

سيد قريش

رواية تاريخية اجتماعية

تأليف

معروف الارناؤوط

عضو المجمع العلمي العربي

الجزء الاول

سطيح

طبعة جديدة مصورة

مطبعة فتى العرب بدمشق عام ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

كلمة شاعر القطرين

الأستاذ خليل بك مطران

في سيد قريش

الى المترسل القدير الاستاذ الكبير السيد معروف الارناؤوط

وردني كتابك فهو اول ماوقع عليه بصري اثر فراغي لساعتي من قراءة روايتك الشائقة التي توجتها بعنوان « سيد قريش » واني لمعتذر اليك عن ابطائي في انجاز وعدي اعتذاراً احسبه خير تقريظ لتلك القصة فقد اكبرتها منذ وقوفي على صفحاتها الأول عن ان اعبرها عبراً ، ومضيت في مطالعتها كما تطالع كتب المدارسة والاعتبار بما يخلق بها من الروية . ولا اسهب بجانب هذا في ذكر ما شغلت به منذ عودتي من تراكم الاعمال اليومية ، وتراكب المعضلات الكثيرة الطروء في هذه السنة ، تتناهب وقتي ، ولا تذر فسحة لما هو اسمى من تكاليف العيش ؛ ومتاعب ادنى الرزق . فلولا هذه العوائق ، وان الطبعة الثانية قد آذنت بالظهور كما اخبرتني ، لكان من دواعي الارتياح لي ان اتوفر على مسايرتك خطوة خطوة في تتبع ماضمنته ذلك السفر الممتع ، من روائع الحوادث ، وبدائع المشاهد ، على انني سأبادر الى كتابة ما خطر ببالي ؛ وجاش في صدري ، بالقدر الذي يسعه ما أشرت اليه من الأحوال . وارجو ان تجد في كلمتي هذه جزاء ، وان يسر . على ما احتملت من مكروه المعاناة لاتحاف لغة الضاد بدرة من انفس دررها .

قصة موضوعة تسلك في سياقها اخبار اكبر حقبة تمهيدية مرت في تاريخ العرب من بدء الموجة المنخفضة التي ذهبت في نهايتها بكل عزة ومنعة لهم في العراق والشام الى بدء الموجة المرتفعة التي قامت على ذؤابتها النبوة تشارف العالم من صحراء الحجاز المحرقة ومن مرتمى قدد الاصنام المحطمة في الكعبة ، تلك لعمر الحق اذكى نتيجة

للمقدمة التي وضعها في احياء الفصحى وتجديد الادب الكبير اولئك الاساطين من رجال بعثتينا اللغوية والبيانية في خاتمة القرن الماضي وفاتحة هذا القرن .

لقد اذكرتني روايتك في سردها الشهي المحكم اكثر ما انستنيه الايام من وقائع ذلك العهد العظيم ، وانارت لي منه نواحي غامضة ، ووصلت في بعض ماوصلت سلسلة من الأنباء منقطعة ، وعلمتني بما اخرجته الى اليقين من مختلف المظنات مالم اكن اعلم . فأن كان هذا شأني وقد سلخت اربعين حولا في المطالعة والمراجعة بين تلك المظنات ، فما اجدر السواد الاعظم من قومي ، وهو مـاهو في جهل اظهر المخلفات من سير آبائه واجداده الاولين ، ان يقبل على كتابك فيقف على ما انتظمه في عقد فريد من تلك السير الأخاذة بالألباب المحركة لأبعد النوازع غوراً في السرائر .

تفتتح القصة على النحو الروائي الجميل الذي نحاه المبرزون في هذا الفن من الغربيين فاذا علقنا بسبب منهـا قطعته علينا في الظاهر ، وهو في الباطن متصل ، لتبدهنا بنبذة ، آناً تقصر وآناً تطول ، تنضو بها الحجب عن يوم من ايام العرب او عهد من عهودهم في ضرب من الحكاية يكاد الجديد الحسن من السبك فيه ينـافس العتيق الحسن ، فاذا استوثقت من انك مهدت بها تمهيداً وافياً لعود على بدء ، عدت ولم يجاوزك التوفيق ، وبهذا الاسلوب تتمشى القصة الى آخر الكتـاب بين تلك الحوادث المتعاقبة ، ما اطمأن منها وما شرف ، ماشف منها وما كثف ، ماتعاظل منها وما تباسط ، كما يتمشى الجدول من منبعه بين الرياض والرمال ، بين المروج والادغال ، بين الاودية والجبال ، ظاهراً او خافياً ، صاخباً او شاكياً ، منحدراً او متعاليا ، مقارباً او منائيا ، مضاحكا اوباكياً ، مخادعاً كالآل او ساقيـا ، لاتفارقه العين على حالة حتى تراه على اعجب منهـا الى ان يبلغ مصبه وقد شفى من الجوارح كل غلة ، وفتن الأبصار بكل روعة . نوع من الغرر القصصية جاريت فيه مؤلفي الروايات الخيالية المحضة في احسن طراز لها ، كما جاريت مؤلفي الروايات التاريخية فيما عدا الأدماج ، فقد ارابوا فيه افكار المطالعين وكفاها تقسيمك الريب بواضح

من الفرق بين الحقيق والموضوع .

هو سفر وكم من سفر جمعته فيه . تأخذ النسق والترتيب من معـــاهدهما في مباحث كل قيم من الفرنجة بأخبار العرب في تلك الحقبة ، فلا يفوتك في مكان من ذلك السياق تستصلح له نقل قطعة برمتها من مرويات علمائنا أو أدبائنـا أن تفعل ، ويسعدك التصرف بما لا يبعدك عن غرضك ، وحيث تؤثر الترجمة تترجم باحكام كأنك القائل الاصيل ، فالمادة بين يديك كانت فيحاء ، متشعبة متناثرة ، بين عشرات من المجلدات الضخام ، وآلاف من الصحف المختلفة اللسان ، لايكاد ذهن فرد يحيط بها ، وكنت اذن حقيقاً بأن تقف منها مواقف حيرة . فلم تقفهـا الا قليلا ، واتسق لك البيان والتبيين في مخضل نير عجيب. فلئن كان المجهود الذي بذلته عظيما ، لقد بدا لنا منه بما لا يقل عظماً عنه ، لطف اختيارك ، وصفاء ذهنك ، وتغلب عبقريتك على الصعاب ، ويظهر جلياً لمن تصفح تلك الأجزاء الثـلاثة ، حين يستحضر جملة ما تضمنت ، أن عاملين شغلاك من مبدئها الى نهايتها ، وان كلامك قد تساوق تحت وحيهما تساوقاً لا مراء معه في انهما صـــادران عن مصدر واحد في ضميرك : هو مصدر ابتغاء الخير لأمتك فوق كل شيء .

العامل الاول هو ذلك الايمان الخالص ، المالىء جوانحك ، الراسخ في قرارة نفسك برسالة سيد قريش ، وبعظم ما ندبه الله له ، وبنعمة الحرية التي هيئت للعرب على يده ، وبجلال الفتح الذي فتح به ابوابا تتدفق منها سيادتهم على الخافقين ، وفي هذا المعنى أوشكت كل كلمة من كلماتك أن تستعر بحرارة عقيدتك ، ولله ماتفعل العقيدة اذا ما تعاون في خدمتها قلب صادق ، وعقل حصيف .

يبدأ الراهب بحيرا فيبشر بني قريش في الفصـل الأول من الرواية ، وفي كل فصل يليه تتناقل البشرى السنة اخرى . فحيثما اعضـل امر للعرب امر ، او بكى باك على حريتهم ، وهي نهب بين الفرس والرومان ، يكون باعث الهمم الخـامدة ذلك النبأ السار عن النبي المرتقب حتى لقد يظن بعض المطالعين انقوة ايمانك وشغفك

بالرسول افعما صدرك فوقع اثرهما من كل فصل في روايتك موقع التسلم من النغم وقد تنوعت لحونه .

أما الذي يدري بما كان من الحالة الفكرية في تلك البرهة فيرى ان الكاتب لم يجاوز الحقيقة ولكنه جرى في تكييفها على اسلوب خاص ملائم لمقتضيات قصته فقد فشت بين العرب في ذلك الوقت فكرة النبوة، وكانوا كأنهم ينظرونها ، ومن ثم قذف فيروع غير واحد من اذكيائهم ، كما دار فيخلد أمية بن ابي الصلت ، من اشخاص هذه الرواية ، ان النبوة قد تتنزل عليهم فكثر ادعياؤها وما لبثوا ان بادوا تباعا سراعا حين انكشف للناس كنه امرهم ومثل هذا التوقع او هذا التهيؤ الذهني لقيام نبي من العرب ، ما كان ليلخص في اروع مما لخصته مع لزومك الحد الذي رسمته لموضوعك .

اما العامل الثاني فقد عمدت فيه ، أخذاً عن ثقات الأخباريين ، الى جلاء ما كان عليه نصارى العرب ، وما عناهم من شؤون مواطنهم ، وما مهد به أحبار منهم بمختلف الوسائل لرسالة سيد قريش وفي هذا المعرض ذكرت كلما حقت الذكرى ، أصالة ذلك الفريق في العروبة ، وبلاءهم في النضال دون استقلال بلادهم ، ووصفت حالاتهم الاجتماعية وصفاً سمحاً ، وفي كل ذلك توجيه رأي أو تنبيه ذهن لقرائك ، على تباين عقائدهم ، الى أنهم عاشوا أخواناً أيام تلك المحن الجوائح ، وانه لاينبغي لبعضهم جهل ما كان لبعض من العمل الجليل في تأسيس الملك العربي الأكبر ، وأنهم لايفلحون في جلب الخير لهم وذود الضيم عنهم تلقاء كائن من كان من أعدائهم ألا بقدر ماترسخ في قلوبهم هذه الحقيقة ، وتنزع بتلك القلوب الى المصافاة ، وحسن المعاشرة ، وفضل التآخي والتعاون لضمان السلامة القومية ، يستخدم فيها كل عنصر من عناصرهم ماتمده به خصائصه لتتألف من أشتات قواها تلك القوة العميمة العظيمة التي بها تعز الأمم وتسود ، بدلا من أن تستسلم الى النزعات المفرقة الموهنة فتذل وتساد .

بعد هذه النظرة العامة سأعمد ، أيها المنشيء القدير ، الى شيء من التخصيص في الكلام على النوع القصصي وعلى اللغة وعلى الروح الروائي في كتابك مما لا معدل عنه ، وأن قضت العجلة بالايجاز فيه فأقول :

القصص آثرت منه النوع المنعوت عند الغربيين بالعبقري ، أي الذي يجعل لأبطاله قدرة كأنها مستمدة من السحر ؛ وجعلت مدار الحادثة التي تخيلتها على ليلى عمة الشاعر الملك امريء القيس ، وما أتته من الغرائب التي تداني المعجزات للأخذ بثأره فوفرت لها من الأيد والدهاء ، والشجاعة والفصاحة ، مالا يتوافر عادة في أنسي . فربما ظن غير خبير أن هذا مأخذ عليك وليس بمأخذ . أن هو لمن تدبر ألا حيلة روائية ، حذوت بها حذو فريق من أرباب الفن ، أنما أرادوا بجمعهم في علم فرد ، صفات اعلام متعددين ، أو في عمل امريء فذ ، اعمال جمهرة من الأفذاذ ، أن يظهروا في صورة أقرب الى الأدراك جلائل الآثار التي تتخلف عن تلك الفضائل وتلك الأعمال .

الوصف — في الرواية ضروب من الوصف خلابة للألباب ، لو أردت الاستشهاد بموفقاتها لعدت هذه المقالة حدها الى مدى بعيد ، وهذا مجال بعدت غايته قبلك على المترسلين عندنا . فمن وفق الى مثل اطلاعك الواسع ؛ ومقدرتك على التأثير ؛ وبراعتك في التنسيق ، تعايا عليه ذلك التقدير الحكيم ، والاستيعاب الممتع والأحكام الذي يمثل للبصر أدق ما ترسمه البصيرة .

اللغة — فصيحة بجملتها فصاحة رائعة على أن في ناحية منها مفردات لم تحققها لاشتغالك بما كان أولى أن تكد خاطرك فيه ولعلك بأعادتك النظر فيها ستزيل شوائبها من الطبعة الثالثة ؛ كما تداركت الطبعة الثانية بالتصحيح والتنقيح ، فجاءت أقرب درجة الى الكمال . وفي ناحية أخرى يلمح اختلاف بين في الأسلوب الأنشائي بين ما تعزوه الى العرب المتقدمين وما تنقله من كلامهم ؛ وبين ما تتصرف فيه من مصطلحات التخاطب بينهم . وكان حقيقاً بأن يبقى على أصله أو يدانيه ، وفي

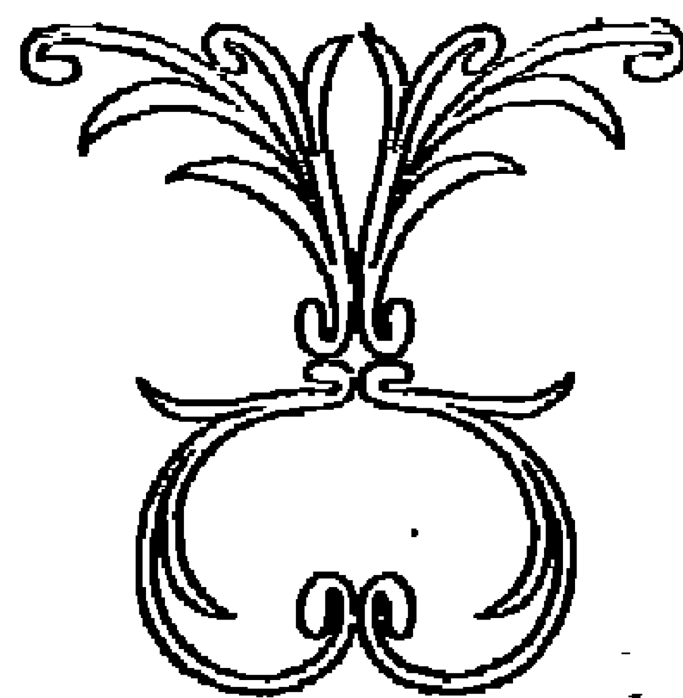
هذا الباب أراك قد ذهبت مذهب الروائيين الغربيين الذين كادوا يجمعون على أن المؤلف أذا قص عليك قصص قوم تغيرت لغتهم الأولى عما صارت اليه بعد ردح طويل من الدهر فهو خليق بأن يتخير لغة زمانه لتكون أغراضه أدنى الى أفهام الناس ، ومن الجهابذة من ذهب الى أجازة التصرف في المعاني نفسها على نحو كهذا بحيث يتخذ من قدم الموضوع وماله من المكانة في النفوس ذريعة لتحريك الشعور في قلوب القراء الى اغراض نبيلة من وطنية أو اجتماعية قد تكون مما لم يفكر فيه أبطال الزمن المعزوة اليه القصة . فعذرك قائم فيما آثرت الا حيث يقع تنافر كبير بين المتعارف في النوع الحديث من الخطاب ، والنوع الذي ألف الجمهور قراءته في كتب تلك الأيام أو في المنقول عنها .

روح الرواية — قال أديب فرنسوي كبير من المعاصرين في تعريف الرواية القيمة ماتعريبه بحروفه : أما وقد فرغت من تصفح الرواية فماذا استقر في ذهني من مادتها ؟ هل فعلت في نفسي أفاعيلها ؟ هل أحسست أني راض عن أشخاصها مشارك لهم فيما طاب أو خبث من أمانيهم ؟ هل أستبقيت لي منهم صديقاً ؟ هل ألمت الامهم أوشاطرتهم آمالهم ؟ هل يتاح لي النظر الى الأماكن التي وجدوا السرور فيها أو خبأوا سوء ما أصابهم في بعض نواحيها ، رجعة الى النفس كرجعتهم أو يتخالجني تأثر كتأثرهم فأعرف بهما ، وهما خير دليل ، ماهي قيمة الرواية من الجهة الأنسانية ؟

وأقول أيها الألمعي المجيد: أنني وردت من روايتك مورداً عذباً ؛ وصدرت عنها أعرف (سيد قريش) كأحسن ماعرفته وأعجب بصناديد العرب كأحسن ماأعجبت بهم ، وأرعى لليلى والبارزين غيرها من أبطال تلك القصة ، أي للشيم العربية التي تمثلها ليلى وأولئك الأبطال ، وداً لايسلى وعهداً لاينسى . فحسبك هذا غاية في الأجادة والأبداع .

وسارقب «رواية عمر بن الخطاب» راجياً أن تزداد فيها المحاسن بما تضيفه منها التجربة الأولى الى ما أوتيت من علم فياض ، وبيان بديع ، فتحقق للناطقين بالضاد ما تعدهم به بداهة فطنتك وسماحة رأيك وبعد مرماك لسعادة امتك . تولاك الله بعونه فان عملك لشاق وأن الفخر لعلى قدر المشقة . سر به سيرك الموفق الى الأمام ، وتقبل من المعجب بك زكى السلام .

« خليل مطران »



كلمة الاديب الكبير

الاستاذ شفيق بك جبري

مدير كلية الآداب وعضو المجمع العلمي العربي

في (سيد قريش)

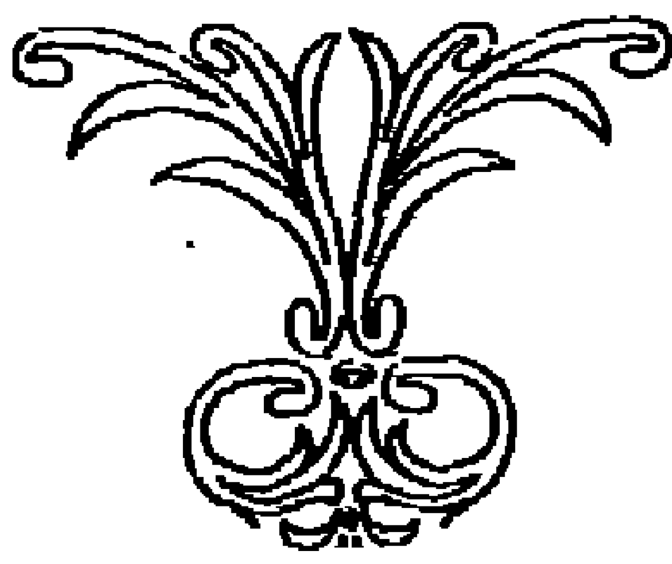
قال ابو العباس النامي في المتنبيُ والنـامي من خواص شعراء سيف الدولة : كان بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبيُ وانا لمـا قرأت (سيد قريش) وأحطت بحياة العرب وسياستها ، واجتماعها في جاهليتها الجهلاء ، خطر بيـــالي أن أقول في الاُستاذ معروف الارناؤوط ماقاله النامي في المتنبيُ : كان بقي من الاُدب زاوية دخلها السيد معروف الارناؤوط

وما هذه الزاوية الا زاوية الرواية ولقد دخلها الاُستاذ معروف وتبحبح في ساحتها ، فيأته وفيـــأها فما نكرت جانبه ولا نكر جانبها . أعطته كل ماملكت ، وأعطاها كل ماملك ، أعطته صوراً هامدة فأحياها ، وأرواحاً جامدة فحركها ، والواناً كامدة فصفاها فأن شئت ان تشاهد شيئاً من حياة هـــذه الصور وحركة هـذه الاُرواح وصفاء هذه الالوان فأرجع الى أي فصل من فصول سيد قريش ؛ اني لا ادلك على موضع من مواضع روعتها ، فأختر لنفسك ماشئت من فصولهـــا في الغساسنة والمناذرة ؛ والقياصرة والاُكاســرة ؛ فأن كان في قلبك غم لم تفرجـه فأرجع الى فصلها في شاعر الغساسنة ، انك تجـد دمشق في ربيعها الطلق تهش بك ازاهيرها ؛ وتضحك لك رياحينها ؛ فأستظل بهذا الظل الخضل ، وان كان في عينيك بقية دمع لم تذرفه فأرجع الى فصل العرب بين الروم والفرس ؛ انك تصادف امة مصدوعة الشمل من قديم الدهر تشتري موتها في سبيل حيـاة غيرها من الروم والفرس ؛ يصطنعونها في تأييد سلطانهم فيتقاتل الحارث الغساني والمنـذر اللخمي

حتى يتبسط قيصر أو كسرى في بلاد العرب ؛ وان كان في صدرك وحشة في وطنك فأرجع الى فصل الوطن في البادية ، انك ترى البدوي يأبى ان يسكن دمشق وجناتها بدل الصحراء ؛ فتعلم كيف يكون الحنين الى الوطن .

أرجع الى هذه الفصول كلها حتى تعرف ماهو سحر العبقرية ؛ وتدرك الفرق بين كمدة التـــاريخ ونضارة الفن ، لقد وضح الأستاذ معروف الارناؤوط حياة العرب قبل الأسلام في جميع نواحيها في سياستها واجتماعها وثقافتها على قـــدر ماهداه اليه التاريخ ؛ وعلى قدر ما أوحت اليـه الرواية ؛ والتـــأليف بين حقيقة التاريخ وبين خيال الرواية هذا هو السحر الحلال الذي يروعك في سيد قريش ؟

« شفيق جبري »



مقدمة الطبعة الأولى :

الرواية والحياة

بقلم الأستاذ منير العجلاني الدكتور في الحقوق والأدب من جامعة باريز

(لعل الراوية اقرب الناس الى الله ، فهو يخلق كائنات حية ، وينسجها من الحوادث والكوارث ، ويصادم بعضها ببعض ، ويقودها الى نهايتها !...

اشخاص موهومة ؟ نعم ! ولكن نصيبهم من الحقيقة يعدل نصيبنا من الحقيقة ، وجوهرهم الخالد ليس كجوهرنا عقيلة في ماوراء الطبيعة ، فنحن انفسنا شهداء عليهم ؛ والاجيال تتناقلهم من بعدنا وهم يزخرون بالحياة !

- فرانسوا مورياك - .

(لم تكتب في فرانسا ؛ منذ عشرين عاما ؛ صفحة حب !)

- مونتيرلان -

الرواية التاريخية

يقول « مورياك » ان الحب في فرنسا تبذل ، وانه لم يعد تلك العاطفة الغنية بالعناصر التي كانت تجيش في صدور آباء لطاف مهذبين ، قضوا حياة كلها تضحية وزهد ، وبطولة وآلام !

الحب — هذا الينبوع الثر الذي تستقي منه الروايات حياة — تبذل ! تعشق « فيدر » ابن ضرتها فلا يثير ذلك احداً في « الكوميدي فرانسيز » ويخلص رجل لزوجه فيبدو للناس كأنه احد احفاد « دون كيشوت » الذي كان يبكي العالم ضحكا ! .. اذن ، ماذا يصنع الرواة ليداروا ميول (الاطفال الكبار) ويبعثوا في نفوسهم اللذة والطرب ؟

ايعيشون في الماضي كما عاش (والترسكوت) الذي قال فيه المعلم (ميغرون) :

« .. الف العصور الخـــالية ولابسها ، ووعاها في ذهنه وكانت قصص الزعامة والبطولة وكل مايتصل بالفرسان المضلين ، تطر به وتهيجه ، بل كان هذا الشيء الفذ الذي احبه في حياته !

ما كان يفتنه منظر من مناظر الطبيعة ــ مهما بلغ من روعته ــ الا بالذكريات التي يثيرها ؛ وما كان يبـالي بقرية او مدينة لم تقع فيها حادثة تاريخيـة او امر جليل الخطر !

كانت تقول مادام « دوستال » انها تتثاقل عن فتح نافذتهـــا المطلة على خليج نابولي ولـكنها ترتاد الوف الاميال ، لتسمع حديث رجل من رجالات الفكر ! .»

كذلك كان « سكوت » ! كان يحول ركابه عن افخم المـــدائن ؛ ليزور احقر اطلال التاريخ ؟ وكان يقول دائمـاً لصحبه وقرائه ! « هيا اشيروا بالبنان الى قصـر قديم او ساحة حرب ؛ ادخل القصر والساحة كما ادخل منزلي فأملأهما بالسكان والمحـاربين بزيهم وشنشنتهم واهيمن على عقول المستمعين جميعا بسحر اوصافي ! »

اي قاريء لايطرب لهذا الوصف ولا يرتاح الى (الرواية التاريخية) ؟ وهل شيء اروع عندك من ان ترجع القهقرى الى العصور العافيات فتجددها وتعيش بين اشباحها كأنك ولدت يوم ولد الـكون ومازلت تستقبل عالمـا وتودع عالمـــا حتى بلغت عصرك ؟

مهمة التاريخ ان يقص علينا حيـاة الجماعات واما الرواية فمهمتها ان تصور لنـا حياةالفرد قبل كل شيء والناس هؤلاء الناس الذين نكتب لهم عافوا سير الجماعات وولوا وجوههم شطر الفرد يعاينون التفاتات ذهنـــه ويسمعون خفقات قلبـــه وينظرون اليـــه يمر بالحوادث وتمر به وهو لايملك منها ومن نفسه الا مايملك الرجل ! (١) كان الناس يعيشون في التاريخ واليوم يعيش الناس في الرواية ! ..

(١) الرجل لايقود الحوادث على [illegible]شاء في الروايات البارعة ، ولـكنه يصارع الحوادث ويخفف عن نفسه او عن قرائه آلام الـكوارث فالرجل خلق للحادثة .

قد يقول لك تاريخ العادات والآداب ان الناس كانوا في العصـــر العباسي يعشقون وان عشقهم كان كحب النحلة الزهرة تستنشق عطرهـــا وتمتص ريها ثم تهجرها الى غيرها !..

هذا قول جميل ! ولكن اجمل منه ان تتقمص هذه الفـــكرة جسما وان تمشي امامك على الارض وتلك مهمة « الرواية التاريخية » عنصر من الحقيقة وتفاصيل منتحلة وزينة من الشعر والفن . انظر الى (سيد قريش)

تثير الروايات لذتك بالصراع وبالازمات وتشوقك الى معرفة نهـــايات ابطالها . هل يموت خالد ؟ هل يفوز في نضاله دون تاجر بليد يريد ان يشتري بنت عمه كما تشرى السلع ؟ هل تحب ابنة عمه التاجر ؟ وانت ترى ان هذه الاسئلة ليس لها موضع في الروايات التاريخيـة فعلي مات بسكـين مسموم ونابوليون مات في جزيرة القديسة هيلانة وجورج صاند خانت ده موسه، نعرف هـذا ولا نتسـاءل عنه ولا نكترث له ومن العدل ان نعترف للراوية المؤرخ بانه يهيمن على المستمعين بسحر اوصافه وليس بسحر الوقائع !

كان اسكندر دوماس الاب يبيح لنفسه كل شيء في الرواية التـــاريخية لكنه ما كان يستطيع ان يقدم آجال ابطاله او يؤخرها ا كان يحب ان تموت الزوجة قبل العاشق لكن التاريخ هو التـأريخ ويجب ان تثير لذة القاريء بالصور البـــارعة والمعاني الذكية وليس بموت الزوجة قبل العاشق او بمجرد انتصـــار الرذيلة على الفضيلة والشناعة على الجمال !...

الرواية والحياة الراهنة :

يحكم (دوهاميل Duhamel) بالعقم والخرف على روايات الشعر والوهم « لان كل رواية تبعدنا عن الحياة — مهما كانت اخاذة — فهي خطل وهي كتاب فقير ! » بل هو يسرف اكثر من ذلك فيحكم بالعقم حتى على روايات التـــأريخ ! واما موریاك فليس يطعن على فن مخصوص من الروايات ولكنـه ينصح الى

الراوية ان يعمل بقول سان ريال (الرواية مرآة تجول وتضطرب فوق طريق واسعة) فلا يحلق الراوية في سماء الشعر ولا يجلس بين الجماهير يعلمها آداب الدنيا والدين ولكنه يصور عصره كما يراه وكذلك يفعل بول موران الذي يسكب على رواياته فناً بارعاً !

في (مفتح الليل) وفي (مغلق الليل) يصور لنا (موران) رجالا ونساء من شتى العناصر ومن شتى الطبقات يتلاحقون ثم يتعارفون فيتصاحبون فيتلاقون هازئين بكل حاجز خاضعين للغريزة الآنيـــة غير مستطيعين ان يستمتعوا بلذة عميقة لانهم يجهلون كل شيء الا القانون الذي يريدهم على ان يلطفوا احساساتهم دائماً ! انهم كلما انخفضوا وكلما اتسخوا تفاقم جهلهم بما يعملون ذلك لاعتقادهم ان كل مايحوم حول اللذة الجسمية ليس بذي بال !

اذن ليست الرواية عند مورياك الا صورة للعالم ويجب ان لايخلع عليها الراوية شيئاً من اوهامـــه وعواطفه ! اذن ليست بروايات هذه « الروايات » الشخصية الغنائية التي سحبها اصحابها من افئدتهم خيطاً خيطاً فنسجوا منها صورهم للخلود ولكنهم ماحفلوا من العـــالم الذي حولهم بشيء ! اذن ليست بروايات « روايات الوقائع والحيوان » الـــتي مازالت تفتح في الادب الفتوح وتستميل اليها قلوب الأوساط واعضاء الاكاديميات ! اذن ليست برواية رواية « الآلهة ظمأى » لاناتول فرانس فالرجل يصور فيها عصراً لم يعش فيه ! كلا ! ان مورياك ودوهاميل يفترقان جداً ، ونحن لانستطيع ان نعيش بالتقتير !.. ان الرواية للحياة ولكن في الحيـاة وهما وليس يمنع الراوية ان ينصح في رفق او « يتفلسف » في رفق ويقص على الناس سيرة عالم يجري دمه في عروقهم .

انا لا ادعو الى رأي « ليفرو » الذي كان يشبه الرواية بالآلهة (Protée) ويزعم انها تتقمص الاشكال كلها لتسحرنا وتستعبدنا ، فليفرو في ادب العصر التاسع عشر وربما ولد متأخراً عن عصره ومن يعلم ؟ لعل الناس في عصر الشك يضحكون

من أدبه ومن موكبه الذي لايتناهى من الشجاعة والكرم !..

انا لا أدعو الى رأي (ليفرو) ولكني احب لادباء سورية ان لايقعوا في شباك المذاهب الافرنسية في الآداب فانها مذاهب مستبدة لاترضى عنك الا اذا دنت بها ولم تخرج في حركة من حركاتك على تعاليمها !

وماذا اقول لك ؟ ان المذاهب الادبيــة في فرانسة تتعبني اكثر من احزاب السياسة ! والكذب على اشده هنا وهنـاك ! كل حزب يريد ان ينال من خصمه ولكل حزب لواء فمن لم يحمله او يستظل بظلاله فهو للحزب عدو ويجب ان يموت عطشا ان لم يمت بسهم !

الرواية والفلسفة

كنت اعارض بلذة بليغة رواية « حي بن يقظان » لمفكر الاندلس الكبير (ابن طفيل) برواية « روبنصون كروزوه » للكاتب الانكليزي (دانيل دوفوه) رجاة ان اعرف مابين الروايتين من ائتلاف واختلاف ثم اكون لنفسي رأياً في قيمة مازعمه استاذي (مونيه) من ان دوفوه قلد المؤلف العربي ولست لأشك الآن في ان دوفوه نقل او قلد او سرق — او قل ماشئت — وزير ابن المنصور فرواية الوزير وضعت في القرن الثاني عشر للميلاد . وترجمت الى الانكليزية عام ١٧٠٩ ورواية الكاتب الانكليزي لم تنشر في الناس الا في عام ١٧١٩

في كلتا الروايتين رجل فذ يعيش بمعزل عن العالم وفي بقعة من الارض ضائعة

وفي كلتا الروايتين فكر فطري لايصطنع آراء مجتمع بشــري لكنه يهدي صاحبه الى استنباط اساليب الحيـاة والتجمل بآدابها والتمتع بلذاذاتها والغوص على اسرارها :

واذا كان ثمة فرق بين « حي » و « روبنصون » فهو ان حياً يموت وقد عرف الله وخفق قلبه لعظمة الكون وكأنه مامر بهذه الحياة الا ليعرف هذا ويموت بينا يقضي روبنصون حياته يصارع الطبيعة وتصارعه وتمر به الحوادث اليومية فيكون

لها شأنها عنده ؛ تقرأ انت قصته وهي طويلة حافلة بالتفاصيل و بصعوبات الحيـاة المتبذلة وتكاليفها الـــتي سئمها لبيد ؛ فتكاد تنكر انها لم تكن اشياء راهنة وحقيقة عاشها صاحبها .

هذا هو الفرق يد اني احب ان اقف عنده قليلا وان از يد عليـه شيئاً قليلا هو ان رواية حي قصيرة — والرواية يجب ان تكون واسعة — وان الفلسفة والعلم صبغا رواية حي بصبغة غر يبة ، وربما قال البعض انها صبغة غليظة

ليس شك في ان الروايات الجدية فيها جميعاً فلسفة ، فلسفة حيـــاة على الاقل لـكن هـــذه الفلسفة قد تلطف حتى تفنى في مجموع الرواية وقد يتعمد — المؤلف ان ينفخ في روايته روحاً فلسفية تطبع بطابعها كل شيء فيمل القـــارئ الرواية وهو معذور لانه اذا كانت الرواية صورة الحيـــاة فيجب ان لاتكون متعبة اكثر من الحياة نفسها

في رواية حي بن يقظان فلسفة لأن الفلسفة هي معرفة اسرار الاشياء ، وحي المعتز ل يريد ان يبدد ما يكتنفه من ظلمات وان يجمع حوله عالماً من المعرفة فهو فيلسوف بالرغم منـه لـكن فلسفته وعله متعبـــان وليس ذلك لان الشك يحوم حول صدقهما بل لاننا نشعر بأن حيا معلم يلقي علينا درساً و يلقي علينـــا فكرة ودرس المعلم وفكر المعلم ليسا برواية اوليسا — على الاقل — برواية بارعة

على اننـــا اذا كنا نجادلك في قيمة حي القصصية فان قيمته في تاريخ الرواية والفلسفة والفكر عظيمة جداً وقـــد نقل دوفوه فـــكرة ابن طفيل كما رأيت وأودعها كتـــابه لـكننا نلاحظ دون ماجهد ان حيا فيلسوف او فلسفة وان روبنصون رجل

والرواية هي سيرة الرجل ليعرف هذا الرواة وليتركوا الفلسفة للفلاسفة

سيد قريش

نحن ان لم نرث لأدبنا المعاصر لم ترق بنا الهمم الى بعثه في صورة جديدة تكفل له الجمال والحركة واظن اننا في حاجة الى اثارة النضال بين القديم والحديث ولو لم يكن يفهم الكثيرون ماهو القديم وما هو الحديث لان النضال يهز الحياة الساكنة الخاملة ، وحسبنا هذا من النضال

ان الجمعيات لتصبغ الفرد بصبغتها . وان الاديب ليجري في عروقه دم الاجيال لكن في طوق فكرة حديثة ان تغير مجرى الحياة قليلا ، ثم يغير الزمن الحياة نفسها انا عدو هذه المدائح والمراثي الفقيرة البائسة التي يصنعها شعراؤنا بأقلامهم ومقاييسم وكثيرون جهروا بالوجد عليها من قبلي . بل كثيرون جهروا بكرههم حتى هذه القصائد التي تحمل اسم الجديد ، وهي - في الواقع - ضرب من المدح البالي ، كأن روح شعرائنا لاتزال هي هي ، وان تكن لبست لبوسا جديدا ، لكنني اعتقد ان هذا اللبوس سيغير « نفس » الشعر عندنا ، وان شعراءنا لن يبقوا حكماء كما كانت طائفة كبيرة من اجدادنا العرب ، فأجدادنا العرب بحكمتهم حرمونا من المرسح ولا اعرف اذا كان واحد منهم كتب كلمة واحدة - ولو بليدة - في المرسح » واجدادنا العرب بحكمتهم نقلوا كل شيء عن اليونانية ، ولكنهم لم ينقلوا قصة واحدة مرسحية ، وربما لم ينقلوا شيئاً من شعر اليونان وأدبهم . . .

اجدادنا ابدعوا ونقلوا ، فيجب ان نبدع نحن وننقل ، وربما تعمد اجدادنا ان يتركوا لنا شيئاً ، وكم ترك الاول للاخر . فلنحمد لهم اذن حتى نقائصهم ، ولكن لايجب ان نبقى حكماء مثلهم ، ولا ان نعيش بالارث الذي خلفوه وحده ، فما شيء اقبح من التقليد ، يقتل الشخصيات ويعطل سيل الحياة الذي يطلب دائماً بقاعا جديدة ومجهولة ؛

ايها الادباء ، هذه رواية « سيد قريش » بين يديكم ، فيها عطر وفيها موسيقى ، وفيها عنصر من الشعر ، كتبها صاحبها لا ليلعب ولا ليبذر منحة الكتابة التي اعطيها

ولكنه كتبها كما اتنفس انا وانت ، بسائق القيام بالواجب وليس بسائق البذخ !

انظر الى صاحبها بالحب وبالفرح ! انه يسير في طريق هو عبدها ؛ وهو ينثر الزهر عليها ، وهو قاد فيها خطاه الى العصور الخاليات ، بمعالم دارسة هنا وهناك . انه يسير في طليعة ادباء سوريا الى سد ثغر الماضي ؛ بتأليف الروايات وتعريب الروايات وتغذية مرسحنا الذي ولد — او سيولد — بالدراما التاريخية .

اية روعة لانشائه المشحون بالعطر والصدى واللون، ومن لاترن في نفسه اصوات جمل بلورية في « سيد قريش » !

كان « الآن لوميير » يحب ان يقدم بين يدي قارئه حجم الاشياء وحرارتها ، وطراوتها ويبوستها وكثافتها ووزن الحياة فيها غير منقوص . كان يحب ان يلمس ما يكتبه لمساً باليد . وما كان شيء يلذه مثل ان يقول لقارئه : هـا قد اتاح لنا علم « البسيكوفيزيولوجي » لذة الاشتغال في البشرة الحية ، وان نشعر بالبشرة ، وهي في كفنا وبين اصابعنا . تحيا حياتها العضوية والبهيمية . فلا اعرف بعد اليوم لذة غير صنع النماذج ! بورك فيها من لذة بليغة ! تنفخ في البشرة حياة وتجري فيها الدم ، نخلقها على ما تشاء نزعاتنا ثم نشعر انها تهرب منا لانها خاضعة . مثل كل ذي حياة لنواميس الطبيعة ،

... والاستاذ معروف الارناؤوط في رواية « سيد قريش » ينقل الينا الزهرة من الخميلة ، بل العطر من الزهرة ، والصوت من الفم، والشعر من النفس لايبدع بشرة ، ولا يجعل اللحم على العظم . لكنه يبدع احساساً ، ويخيل الي — على ضؤولة معرفتي — انه يسرف في تصوير هذا الاحساس في بعض مواطن روايته ، والسر في ذلك عندي هو ان مؤلف سيد قريش كاتب غنائي وان صوره غنية باللون لكنها غير غنية بهذه الخطوط المتشابكة . المتآلفة المتفارقة الصاعدة النازلة ، الثخينة حتى الشناعة . التي يؤلف منها اصحابها اطاراً لحياة ابطال ـرن كشوطيين في روايات الوقائع ، او هذه الخطوط الدقيقة الملساء . التي ننسج

منها لعلماء الجمال صوراً يقضون حياتهم في التحديق اليها ومحاولة تحليلهــــا ، والسر عندي في ذلك هو ان مؤلف « سيد قريش » كاتب روائي « رومـــانتيك » ، ليس لأن انشاءه غير الانشاء القديم ، ولا لأن ميوله تغذت من ادب اليونانـــ وغير اليونان بما وسع آفاقها وبسطهـــا للنور ، ليس لهذا وحده ، ولكن لأن في كتابته مثل هذه العاصفة التي في قلب المنذر ، والتي تملي على العجوز قولها : « ثابري على هديرك ايتها الامواج الثائرة ، فهـــاك فريسة جديدة من فرائس الظلم ، » ! « ليت الحارث بن جبلة بقي حياً اذن لتكف عن مصانعة هؤلاء الذين يتقدمون الى فلذة كبده بالسم المعطر بينما وجوههم ، التي صوحها المكر تضحك من الضحية ! » الخ ...

في رواية « سيدقريش » صور عديدة كأنها هي نفسها تتكلم عن نفسها ، وتقص قصتها ، حتى لتنسى وانت مفتون بها انها نسج رجل معاصر ، لو شاء لنسجهـا على صور مختلفة ، وهذه الصور ما كانت بعد لتستميل الابصـــار لولا شيء يشبه هذا الذي عند موران : « فن بارع » يبعث في الحقائق المتبذلة حياة ولوناً زاهياً ، فبورك في الفن ، في اي ثوب رفل !

سيد قريش — رواية تاريخية ، حرص فيها صاحبها على هذا القسط الواقع الذي لابد منه في كل رواية تاريخية ، ثم اجرى على لسان ابطاله ماشاء من حكمة ومعرفة وأدب ودنيا ، ووصف مجتمعات ابطاله ومؤسساتهم بما جاء في كتب التاريخ ولكن بأسلوب بارع ، وبزينة استلزمتهـــا شاعريته ، وقد افسح حضرته موضعاً لوصف الطبيعة في العابها الجمة . فطورا كان يصور اللعبة لقـارىء اليوم ، وطوراً كان يصور آثارها في نفوس الابطال الالى اختلفت عنا مشاعرهم ونظراتهم الى الحياة ولكن ما بالنا نعدد مزايا رواية سيغمس فيها القـارىء عقله وقلبه ؟ لنكتف بالقول انها فتح جديد في أدبنا العربي ، وان اكثر الذين سبقوه الى الرواية التاريخية كانوا قصاصين شغفوا بالصراع ، والحادثة ، والازمة ، واما هو فكانـــ شـاعراً وكان رساماً ؛ ؟

باريز : « منير العجلاني »

الفصل الاول

شاعر غسان

في صباح يوم صائف بهي من ايام سنة احدى وثمانين وخمسمائة ، غشيت دمشق المدينة الخالدة فرحة رائعة ، فبدت لرائيها دائمة النضارة والنعيم ، وراح ربيعها اللذ ينشر عطوره الفواحة في افق شديد الصحو ، تنيره شمس دافئة تبعث في الحقول والجنات كثيراً من الحياة ؛ وكثيراً من الاشراق ؛ وخرج سكانها من دورهم وعزلاتهم يترددون بالظلال ، في عالم يزخر بالالوان الزاهية المتوردة ، وقد استساغت نفوسهم الملاذ والأهواء كأن الطبيعة الفاتنة قد اعارت هذه النفوس بعض صفائها ومرحها فما عادت تحب غير ضحك الأطيار الى جانب ضحك الأنهار.

كانت الحياة في دمشق عنصراً واحداً يتفجر باللذة والأنسة ، بل لقد كانت الحياة في هذا البلد الناعم الجذلان ناحية فذة يشرف منها الناس على عالم يمور بالمشاهد البريئة التي تفنى عناصرها وتذوب في البساطة الريفية الساجية على حين انها في العوالم الأخرى حياة ذات اشجان واحزان .

خرج سكان دمشق في ذلك اليوم الصائف الماتع الى الضواحي صفوفاً منتظمة ، وجموعاً متناسقة ، وطوائف منسجمة يتخللها جميعها سرب من الاطفال المرحين الناعمين تضحك في وجوههم وداعة لا تعرف شيئاً من الرياء والملق ثم مالبثت هذه المواكب التي وثق بينها الفرح والألم ان افترقت وتشعبت في الطرق المؤدية الى الغوطة منسلة في غمار الأشجار الكثيفة التي تغطي الأفق وتحجب زرقة السماء

في تلك الفينة الحافلة بضحك الطبيعة اقبل على دمشق من ناحية البادية فارس متلفع برداء من الأرجوان وهو بعد في ميعة الشباب وطراوة العمر ، صبيح الرونق ، بسطت النعمة على وجهه اكنافها ؛ حتى اصبح خيالا لها فلما صاقب هذه

الجموع العاكفة على اللهو والمرح حيال ضفاف الأنهار بين منابت الجوز ، ومغارس الآس تمايد من سكر، وتمايل من طرب ، وغلبته نشوة هائئة استفاق لها ذهنه المكدود واستراح ، كأن هذه المشاهد البارعة غمرته بسحرها وفتونها بعد سياحة جاهدة امضاها في مفاوز رملية محرقة ونائية ؛ ولم يشأ الفارس عزوفا عن هذه الجموع الراغدة الرافهة فاستأنس بضجيجها واجراسها وتدفق اليها ، فالتف به سرب من الصبيان المماريح وراحوا ينظرون الى جواده ولباسه ، فناداهم قائلا :

ــ الا تزال دمشق بعيدة من هنا ايها الفتيان السعداء ؟

فحاذاه غلام من بينهم وقال له

ــ كلا ليست المدينة بعيدة عنك ففي قدرتك ان تمضي في سيرك ، فتبلغ دمشق حوالي المساء !

وشرع الغلام يتأمل في رداء الفارس وقد بهره بريقه ولمعانه ، فما شك انه نبيل من هؤلاء الغرباء الذين الفوا الأنتداء الى دمشق للاستمتاع بمشاهدها البارعة او لاقتناء النفائس والطرف الثمينة من كل مايعرض للغريب النازح في اسواقها ومصانعها فلقد كانت دمشق في العقد الأخير من القرن السادس سوقا للبلدان والأمصار التي تحاذيها وتصاقبها وكان التجار يفدون اليها من نجران وحوران وجزيرة العرب رجاة الحصول على زخارفها ونفائسها واسلحتها

ولما استفاق الغلام من ذهلته التفت الى الفارس قائلا :

ــ هل انت من رجال قيصر ؟

ــ كلا

ــ لعلك احد الذين يمتون بصلة الى احبار دمشق ؟

ــ كلا

فامعن الغلام في التحديق الى رداء الفارس كأنما قد راقه زخرفه الخالب وانبرى قائلا

ــ اذن فلست من الرومان ولا من قوادهم ؟ أفأنت من نجران ؟

فضحك الفارس من هــذه الأسئلة التي اخذت تتساقط من فم الطفل كالوابل المنهمر واردف :

ــ لست من الرومان ولا من نجران

ــ لعلك من هؤلآء الذين يعرفون آل جفنة ملوك الشام ؟ فتمايد الفارس من فرط الخيلاء وقال:

ــ صدقت في هذا الذي زعمت فانا هو حسان بن ثابت شاعر غسان

فصاح الفتى صيحة الطرب وقال :

ــ ياللرجل السعيد ! ياالرجل النابه! ثم تلفت الى ناحية الفارس وانشأ يقول :

ــ اهذه هي زيارتك الأولى بلاد الشام ؟ فقال الشاعر

ــ لقد طفت بمشارف الشام ومغانيه اكثر من مرة ، وكان ذلك في الماضي البعيد

فقال الفتى وهو لايزال يحدق الى لباس الفارس :

ــ لعلك قد ازمعت في هذه المرة ان تشترك في أفراح عيــد للفصح فجئت دمشق لتشهد الصلاة في بيعة يوحنا ؟

فقال الفارس:

ــ او تعيدون الفصح في هذا الصباح الضحيان ؟

قال ، نعم فقال الشاعر :

ــ اترع الله حياتك بالأنغام السارة الطروبة فلقد انساني حديثك عن الفصح هذا الجهد الجاهد الذي لقيته في سياحتي المديدة ! . . .

ثم حيا الفتى تحية مفعمة بالظرف والكياسة وانتحى ناحية الماء الدافق الهادر وطفق يسقي جواده الناصب المكدود واولئك الفتيان المازيح يسمرون ويضحكون ولما استوثق من قدرة الحيوان على المضي في السير الى دمشق عاد ينظر الى اولئك الفتيان نظرة أخرى ودفع بجواده الى ناحية دمشق فانطلق به يشق غلالة الغاب فوارته الأفنان ، وحجبته الأدواح ، وعند المساء احتوت الفارس مدينة دمشق الخالدة ؟

الفصل الثاني

آل جفنة ملوك غسان

في القرن الثالث لميلاد السيد المسيح بلغت الدولة العربية في اليمن اعلى ذروات الحضارة فجعل ملوكها يجارون قياصرة الرومان ملوك القسطنطينية في تشييد الصروح والقصور والمعابد وتجميلها بالنقوش والزخارف وطفقوا يعنون بزرع الأرض وانشاء المدن والقرى حتى اصبحت البلاد بفضل هذه العبقرية المنشئة المبدعة بلاداً حالية بالثروة حافلة بالآثار المونقة والمباني الشامخة كقصر غمدان في صنعاء وقصور نجران .

وكانت مدينة مأرب من اروع مدن اليمن حسناً والطفها مناخاً واعذبها ماء وأينعها ثماراً بل لقد كانت مدينة مأرب في بهاء مشاهدها الطبيعية على شاكلة مدينة دمشق يجري في وسطها نهر عظيم تجتمع اليه المياه المنحدرة من اعالي الجبال فيتألف من هذه السيول الجائشة بحر شديد الأعتلام يفيض مرة في العام على المراعي والحقول فلا يذر فيها حسناً ، ولا يستبقي من روائعها روعة !

حيال هذه الجائحة الحافزة فكر اليمانون في انشاء السدود رجاة ان يستبقوا روعة الأرض التي اترعوها بالحقول والجنات ، فاحتبس الماء ولذ الناس هذا العمل الذي خلع على البلاد حلة ناضرة من رواء وبهاء واصبحت مدينة مأرب مرتاداً للملوك والأمراء يرتادونه في فصل الصيف القائظ للترفيه عن نفوسهم ولكن الطبيعة القاسية تنكرت لهؤلاء السعداء فاذرت عليهم رياحها السافيات واستجاشت عناصرها النائمة . فطغت السيول وتدفقت الأنهار ، حتى استحالت الى بحار طامية طاغية ، دمرت السدود ، واغرقت البلد ، واتت على الأحياء والأزقة ، فاندثر العمران ، وعفا اثر السكان ، ولم ينج من هؤلاء الا من اتم حظه واشرق سعده

فهاجرت فلولهم الشاردة الى شمالي جزيرة العرب، وانتشرت في اطرافها التماساً للخلاص وطلباً للحياة الغالية ، وكان ممن هاجر واغترب من هؤلاء البائسين قبائل من الأزد نصبت خيامها على ماء في تهامه يقال له غسان ، ثم طرحتها النوى مطارحهـا فاغتربت وهاجرت حتى نزلت مشارف الشام فنصبت قبابها وخيامها على مسيل الماء ودعاها الناس بغسان !

تتألف الأسرة من افراد متشاركين احساساً متشابهين ميولا ثم تتكاثر وتنمو فتستحيل الى قبيلة توثق ما بينها عصبية ملتحمة تنشأ عنها وحدات منسجمة وحدة الحياة ، ووحدة الدفاع عن الحياة ، ووحدة الميل الى التبسط في نواحي الحياة وتنشأ عن هذه القبيلة المتحدة الأهواء ، امة كادحة ناشطة يشجيها كثيراً ان ترتضي بنصيبها الضيق من الأرض ومن الأفق الذي يغطي الأرض فتغريها طمحاتها بالتوسع في السهول والسفوح والجبال والأودية حيث الينابيع والأنهار ثم لا تلبث ان تتحول الى جند زاحف تحفزه الآمال الجائشة في روحه الى ان يطفو كالأتي المنهمر على البلاد العاشبة فيدوخها تدويخا ويروض من جماحها ، ثم يتحول وقد طرح سلاح المعركة الحمراء الى جيش من الفلاحين والمزارعين يصطنع مواهبه وسلائقه في التعمير والانشاء

كان الغسانيون من هذا الطراز ، تعرفوا الى الالم وهم اسرة مشتتة تتقاذفها حظوظها واقدارها ، فانقلبوا الى قبائل ترتاد المراعي والحقول رجاة الحصول على الأفياء والظلال فلما حققت هذه القبائل آمالها زهدت في افقها الضيق وصبت الى افق واسع يكفل لها امنها وسلامها ورخاءها ويحقق طمحاتها واغراضها ثم وجدت هذا الأفق الواسع الذي تبحث عنه في الشام ، فنازعتها ميولها اليه ، ورأت ان لاغنى لها عن الخضوع لأحكام الطبيعة التي تزجي القوي الى مغالبة الضعيف ومطاردته ليحل مكانه فاصطدمت بالضجاعمة وهم عرب من سليخ كانوا حلفاء لقياصرة الروم وجنودهم في قتال الفرس فحميت الحرب بين غسان الطامحة الناشئة ؛ وبين

الضجاعمة ، وكان حصاد هذه الحرب ان انتصرت غسان في مشارف الشام

تغلب الغساسنة على الضجاعمة في طائفة كبيرة من الملاحم عقدت فيها رايات النصر لأول ملوكهم جفنة بن عمرو فكسرت جيوش الضجاعمة وشردت فلولهم امام الغساسنة الذين استطاعوا في عشر سنوات ان يخلقوا دولة عامرة في البلقاء وحوران وفلسطين وظلت هذه الدولة بعيدة من تدخل الرومان الى اواخر القرن الرابع للسيد المسيح

وتوالت الملوك بعد جفنة بن عمرو واشهرهم يزيد بن عمرو بن مارية الغسانية المعروفة بذات القرطين والحارث بن جبله صاحب يوستانيوس قيصر (١) وهو الذي اشترك في قتال الفرس الى جانب جيوش بلزاريوس قائد الرومان ؛ فاجزل له قيصر في الثواب ؛ ودعاه ملكا على جميع العرب

وعرفه العرب بالمحرق لأنه اول من حرق العرب في بيوتها واشتهر من ملوك غسان الذين تعاقبوا على الشام الحارث بن الحارث بن عمرو الذي قتل في معركة دارت رحاها بين جنوده وجنود المنذر الأكبر ملك العراق ؛ ومن ملوكهم ايضا عمرو بن الحارث وله يقول النابغة الذبياني :

علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

وقد زار معظم هؤلاء الملوك القسطنطينية وكانوا يجرون في الترف والبذخ على سنن القياصرة ؟

---

(١) — هو الامبراطور جوستنيان الاول المعروف عند العرب يوستانيوس

الفصل الثالث

الراهب

لما عرضت دمشق لحسان بن ثابت على ضوء الطفل وبرزت له جناتها المورقة ونهرها السلسل اخذته ذهلة شديدة ونشأ في نفسه احساس جديد فطاف حول بردى الدافق الهادر واثارت القصور الشامخة القائمة على ضفافه روحه الساكنة الساجية فذهل عن حاضره الذي يعيش فيه وضاعت روحه الشاعرة الحساسة في روعة الزخارف والنقوش الماثلة في القصور والكرمات والمعابد والعمد المرمرية !

وكان اذا اراد ان يتلهى عن النظر الى هذه الروائع ؛ امتد بصره الى الجبال التي تحدق بدمشق وقد ضربت في السماء واخذت الوانها من حمرة الطفل ؛ فاستعذى المشاهد البارعة واقبل يتخطى حتى طويت له الجنات والظلال وقبضت امام عينيه الجبال والتلال فما عاد يدري من اين يقبس الجمال والفتون والسحر ؛ امن الصروح والمغاني والقصور التي توامضت عليها بروق السعادة والحب ؟ ام من هذه الجبال التي رقصت عليها ابتسامات الشفق ؛ وقامت على سفوحها اشجار الجوز واللوز

لقد سأل نفسه اكثر من مرة اين اجد الفتون والسحر ؟ افي هذه الكرمات البيضاء ، ام في هذه الجبال الزهراء ؟ فما وجد صبابته في ناحية واحدة ، لأن الجمال الذي احبه ظل يلوح له في جميع النواحي

وبينما هو في غرق خرق سمعه صوت ناقوس ترسله بيعة جد دانية منه ، فارعشه هذا الجرس ولمس في رناته روح العبادة والتواضع ، فاقبل يعيه وينصت له ، وهو اشد ما يكون سبحاً وغرقاً ، ثم استفاق من غشيته اللذيذة على حفيف ضعيف ، فوثب مراحاً طروبا ! ثم تضاعف الحفيف ، وتضاعف كثيراً حتى انقلب الى

صوت شديد ، ولكنه صوت حلو النبرات ، عذب المذاق ، فتلفت الشاعر الى ناحية البيعة ، فانكشفت له مصابيحها متلألئة متوقدة . فدنا منها وهو على جواده فما صاقبها حتى استحيا ان يخفق بابها تحت ذوائب الغروب ففكر في استئناف طوافه وهو الناصب المكدود الذي انكفأ لونه ، وتغضن جبينه من قيظ الصحراء ، ولكن ذلك الصوت العذب الذي رن في اذنيه ظل حافزه الى الاقتراب من البيعة ، فمد يده يريد ان يخفق الباب وقد اصبح من امتع امانيه واعذب آماله ان يجد في سكون هذا المعبد القائم رقدة هادئة تسبح نفسه في احلامها السارة الطروبة

ولم تمتد به احلامه وتأملاته : فانحسر باب البيعة ، من غير ان يمد الى خفقه يداً وانكشف عن رجل حاسر الرأس ، يمشي بخطى متثاقلة ، وقد غيب جسمه في رداء من الحرير الاسود ، وتبدى متوكئاً على عصاه ، فما شك حسان وهو ينظر اليه في انتمائه الى البيعة ، فارتاح الى مشهده ، ورجا ان يجد فيه بعض المجاملة وبعض الكياسة ، فلا يمنعه ان يغشى المعبد في هذه الليلة !

وتقدم الرجل من حسان وقد عجب لوقوفه حيال المعبد تحت جناح الليل الغاسق وسأله قائلا :

— من الرجل ؟

— عربي بعدت عنه الديار ففزع في ليله الى سكون الاديار !

فاستروح الراهب واطمأن وانشأ يقول في كثير من الظرف والمصانعة :

— على الرحب والسعة ياأخا العرب !

وفتح باب المعبد ، فترجل حسان عن جواده وهو اشد ما يكون استئناساً بصمت العبادة وسكينة الورع فتقدمه الراهب الى حجرة منفردة وقال له :

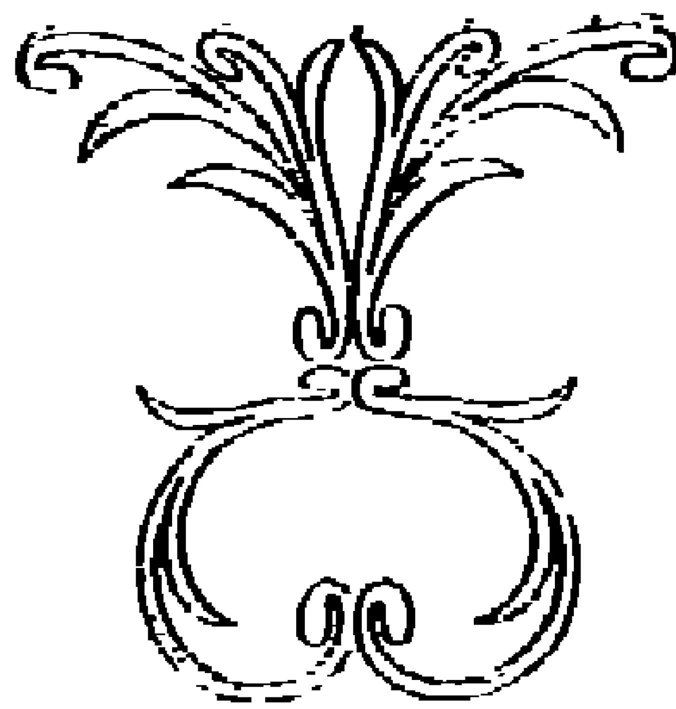
— هنا مبيتك في هذه الليلة !

فاغدق حسان له في الثناء واغرق فسأله الراهب عن اسمه والشاعر يوشك ان يدخل الحجرة المنفردة فارتد اليه وقال :

— اسمي حسان بن ثابت !

— أأنت هو ذلك الشاعر الذي ملأت اغانيه هذه الأرجاء وحفظ اشعاره حتى هؤلآء الذين اشتملت عليهم الصوامع ؟

فابتسم حسان ولم يجب ولكن الراهب لم يشأ ان يضنيه بالأحاديث فاقتاده الى الحجرة التي حبسها عليه ، ثم فارقه بعد أن رنجا له نوما سائغا لذيذاً ، فرمى الشاعر نفسه على فراشه ونام ليلته نوماً هادئاً ؟



الفصل الرابع

أبو سفيان بن حرب وامية بن ابي الصلت

استفاق الشاعر في الصباح من رقدته على عصف الأجراس والنواقيس فاستراح ذهنه الى هذا الضجيج، وراقه ان يفيء الى نافذة حجرته فيطل منها على فناء البيعة وقد جاشت في نفسه رغبة حفزته الى الابتراد بالظلال والأفياء فود لو ينتحي ناحية قصية يشرف منها على الجماهير التي تفد للصلاة في الصبح الباكر .

ولم تكن النصرانية غريبة عنه، فلقد عرفها في البلقاء وحوران وعرفها في دمشق قبل هذا اليوم، ثم عرفها في تدمر وله فوق هذا كله صلة بأحبارها وأعلامها الذين كانوا يجدون كثيراً من الأجلال والتعظيم في قصور آل جفنة الملوك، بل لقد كان لشعره روعة في نفوس هؤلاء الأحبار الذين انقطعوا للعبادة في شوامخ الجبال فأكبروه وفتحوا له ابواب كنائسهم وبيعهم كما فتحوا له صدورهم ونفوسهم .

احس الشاعر حاجته الى الظل والسكون، واحس كذلك حاجته الى عزلة هادئة يشرف منها على ورع النفس وتقشفها ، فتجمل بلباسه وخرج الى حديقة البيعة الصغيرة ينظر الى وفود المصلين .

غص فناء البيعة بالمصلين روماً واعراباً ، وتأرج البخور من كل ناحية فضاعف في سكون العبادة وسكون النفس، وشملت المصلين روعة الصلاة البريئة وتخلل هذا كله انشاد لذيذ مستملح استفاضت له جوارح العاكفين على الصلاة .

في تلك الفينة الحافلة بالخشوع دخل البيعة رجلان اثنان اشترك احدهما في الصلاة وابى الآخر ان يجاريه في عمله ، فانتبذ ناحية قريبة من حديقة البيعة وشرع ينصت الى همس المصلين وقد تبرم به فلما ، ايأسه وقوفه الطويل برح مكانه الى الحديقة وانتحى ناحية منفردة كثرت فيها منابت الحور والصفصاف واستفاض

في وسطها ماء رقراق عذب الهدير .

واثار دخوله الحديقـة وسوسة تلفت لها ذهن حسان الغـارق في هواجسه ، فأخذ الشاعر يحدق الى الناحية التي صدر عنها الصوت ، فاذا هو ينظر الى رجـل سري تضحك في وجهه مظاهر النعيم والترف والسيادة ، فشاقه ان يتقدم منه ، واثار لباسه العربي رغبته في التعرف اليه فعـاف مكانه وجاء الناحية التي آوى اليها ثم توارى خلـف الأدواح واخـذ يتفرس في ملامح السيد العربي فلما عرفـه همس قائلا :

— ابو سفيان بن حرب ؟!

ظل حسان يحدق الى ابي سفيان وقد اذهله ان يراه في هذه البيعة ، وهو الرجل الذي لايؤمن بالنصرانية ولا يعرفها ، فنفرمن مكمنه حتى صاقبه وابو سفيـان سابح في تفكيره وكان يحب ان يباغتـه مباغتـة لذيذة فوضع يده على كتف السيد العربي فرفع هذا رأسه وشرع يحدق الى حسان تحديقـا غريبا فلما عرفـه انثنى قائلا :

— اهذا انت ؟

— اعرفتني ؟!

— ومن لا يعرفك في الحجاز ؟

— لقد رأيتك في الماضي في تصور آل جفنة وكنت في ذلك الزمن محاطاً بهالة من المجد والـعبرية ، وملوك غسان يبجلونك ويكبرونك ، فوددت لو يكون لي بعض هذا الرواء الذي يغمر عيشك ، بل لقد وددت لو يكون لي بعض شأنك في الشعر فتتسق لي السيادة على جميع العرب !

— ان لك من شرف أرومتك وطيب عنصرك وجلال بيتك مـا يغطي هذا الأفق الضيق الذي يعيش فيه الشعراء !

فسكت ابو سفيان وعاد الى تفكيره وقد غشيت وجهه ركدة الانفعال والتأثر

فسأله الشاعر قائلا :

ـــ أي حافز حفزك الى هذه النواحي ؟

ـــ أتيتها في تجارة مع اميه بن ابي الصلت شاعر الطائف !

ـــ أأمية بن ابي الصلت هنا في دمشق ؟

ـــ نعم وهو في هذه البيعة يشارك المصلين في صلاتهم وعبادتهم ! لقد تركنا بصرى عشية الأمس وكنا في ضيافة الراهب بحيرا ! ثم لج في سكوته فسأله حسان قائلا : ولكني اقرأ في عينيك شجنا مذيباً

فقال ابو سفيان :

ـــ هو كذلك فقد ارمضني ان اشهد هذه الأرض الذليلة فأرى ملوكها واقيالها الأعاريب عبدانا لملوك الروم !

فانتفض حسان من الرعب والتفت الى ناحية المعبد كأنما هو يريد ان يستوثق من خلاء هذه الأمكنة ، فلما اطمأنت نفسه الى الوحدة شخص الى ناحية ابي‌سفيان وقال له :

ـــ تكلم همساً ناشدتك اللات والعزى ! . . .

فضحك ابو سفيان ضحكة عابثة واجاب الشاعر :

ـــ ادار في خلدك ان رجلا كأبي سفيان يفرق مثل فرقك هذا ؟ ووضع يده على سيفه موغلا في ضحكه وقال :

ـــ ان ورائي جزيرة العرب فليس يضيرني أغضب الروم ام لم يغضبوا . وبعد فنحن في زمن كثرت فيه الأحاديث عن ظهور نبي كريم في العرب يقودهم الى خواتيم هائلة راغدة !

ـــ من لقنك هذا الحديث ؟

ـــ سمعت هذا الحديث في البلقاء وكان قس بن ساعدة خطيب العرب يدعو الناس الى طاعة هذا النبي الذي سيبعث في اشرف القبائل العربية ثم عدت

فسمعته قبل ايام من بحيرا الراهب !

اي حسان : ان الأمنية الغالية التي اطمح اليها في هذه الحياة ليست في الخروج من معركة ظافرة الى مجد وثيق ، ولكنها امنية تبدو لي رائعة وفتانة اذا استفاض نور هذا النبي في اشرف قبائلنا وبيوتنا !

ماذا ؟ أيشجيك ان يبعث مثل هذا النبي في العرب وانت تعلم اي جائحة تجتاح قومنا في حوران والبلقاء والشام والعراق واليمن؟لا تغرنك هذه الأنوار المتلألئة في قصور الغساسنة فأنها ادل على العبودية والخضوع للأجنبي من الأظلام والتعتيم ، ان ملوك غسان وملوك العراق خدم واتباع لملوك الروم والفرس ، بل ان هؤلاء جميعا خول لبطارقتهم ورؤساء دينهم ، فمن حقنا ان نحطم هذه القيود التي تنطها تيجان كاذبة وتخفها قصور مشيدة هي احق وأولى أن تسمى قبوراً لحرية بلادناالعزيزة الغالية،

ليتكامل ظهورك وبعثك ايها النبي فانني ساكون في طليعة مواكبك ومن حملة مصابيحك !

فطرب حسان لحديث ابي سفيان وشاقه صلفه وزهوه ، فانتفض شموخاً واستعلاء واخذته نشوة ساحرة ففتح نفسه لجمال الحرية بعد ان فتحها لجمال الشعر ثم راح دالفا الى ناحية السيد الأموي حتى صك الوجه بالوجه فشد يده صائحاً :

— أتحسب زمن هذه النبوة بعيداً ؟

— كلا !

فرفع حسان عينيه الى الأفق ثم اغمضها وغاب في قرارة صمت عميق وجعلت زفراته تطفو في صدره ولها عصف وهدير وهو بعد لايزال قابضاً على يدي سيد بني امية فخيل الى ابي سفيان ان صاحبه قد جن ، فهزه هزة عنيفة استفاق لها ذهن الشـــاعر واستراح .

التاع ابو سفيان لمشهده فقال له :

— ماذا حدث لك ؟ اخشى ان يدهمك هذا الذي دهم اميه بن ابي الصلت فلقد

كنت اقص عليه حديث هذا النبي فكان يقع في مثل الهذيان ثم لا يلبث ان يصبح راجفاً ملتاعاً

« ليتني اكون نبياً » ثم سمعته يتخافت بصوته

« ولماذا لا اكون ذلك النبي المبعوث ! » اي حسان ! هل كان في شعرك ذلك الجنون الذي في شعره ؟ وهل صرت تستعذب مثله ان تبعث نبياً في العرب ؟

فصاح حسان :

— كلا ! كلا ولكني وددت لو ان السماء تفسح في أجلي فأستشرق بذلك النور واكون شاعر تلك الحرية التي يحملها الينا ذلك النبي الكريم !

كان حسان شاعراً حلو القريض رقيقه وكان يطرب لهذا العيش الذي يتراءى له فتانا رائقاً في قصور الغساسنة ويجد في الجبال والأزهار وفي التماع الصباح على صفحات الينابيع الصداحة مرح النفس ونشاطها، فيحب افناء الأيام والليالي في خضرة السفوح، وخضرة الضفاف، حتى اصبحت حياته مثل حياة جميع الشعراء زاخرة بالكسل، ولكنها حياة لها فلسفتها في الوحدة والانقطاع .

ولم يكن يخالط شعره الرقيق كثير او قليل من الصور الغريبة عن الطبيعة، فلما حسر له ابو سفيان عن بعث نبي في العرب يقود قومه الى الحرية الغالية ويخلصهم من صلف الروم والفرس في الشام والعراق واليمن، خيل اليه انه اكتشف عنصراً جديداً لشعره ورأى في هذا العنصر الجديد الذي كان غريباً عنه الى الأمس الدابر حافزاً الى حياة حرة طليقة لا يجد مثلها لا في قصور آل جفنة ملوك الشام، ولا في قصور المناذرة ملوك العراق فا عتزم، منذ هذه اللحظات القليلة ان يحبس شعره على الأشادة بروائع هذه النبوة فرفع عينيه الى ناحية ابي سفيان وقال له :

— لقد آمنت بالنبي قبل بعثه !

وفي تلك الأثناء انفرط عقد المصلين فخرجوا من البيعة زرافات ووحداناً وتفرقوا في مختلف النواحي والفجر بعد ممدود الرواق فصاح ابو سفيان :

— الا يروقك ان تبحث معي عن امية بن ابي الصلت في ارجاء هـــذه البيعة ونواحيها فلقد افلت هذا الرجل الممسوس من يدي وآثر صحبة الرهبان عـــلى صحبتي، فقال الشاعر، لك هذا الذي اردت .

ترك ابو سفيان الحديقة الى فناء البيعة فلحق به حسان ؛ وفي تلك الأثناء لاحت لهما شموع البيعة ومصابيحها وهي تتألق وتحترق فوقفا يحدقان من جديد الى بابها المفتوح ، وقد استأنسا بسكون العبادة، واستعذبا روعة الورع ، واستراحا الى الأعراف الذكية التي تملأ الفضاء ، وهما بعد على دين اهل الجاهلية ، وانهما لفي غرق اذا طيف متلفع برداء اسود قاتم يزدلف اليهما بخطى واسعة ، فاقتربا منه حتى صاقباه ، فاذا هو اميه بن ابي الصلت وقد حسر عن رأسه.

فصاح ابو سفيان قائلا :

— اراك قد زهدت في مخالطتنا حتى لم تعد تستأنس بغير هذه الحياة الشاحبة وحتى صرت تحب افناء ايامك في سكون البيع ؟

فامتقع وجه اميه ولم يجب ولكنه جعل يتفرس في وجه حسان فلما عرفه مضى اليه يشد يده شدة عنيفة .

— ماذا أأنت هنا ؟ من اين اتيت ؟

فاجابه الشاعر :

— من بصرى !

— اكنت في بصرى ؟ لقد سلخنا اياماً طوالا في غسان فلم نرك خلالها ، فاي غيمة وارتك في غلالتها ؟

قال اميه هذا ثم التفت الى ابي سفيان قائلا :

— الا نترك هذه البيعة في هذا الصباح الى صومعة بحيرا فأن هـــذا الراهب قد ارادنا على زيارته في مصلاه ؟

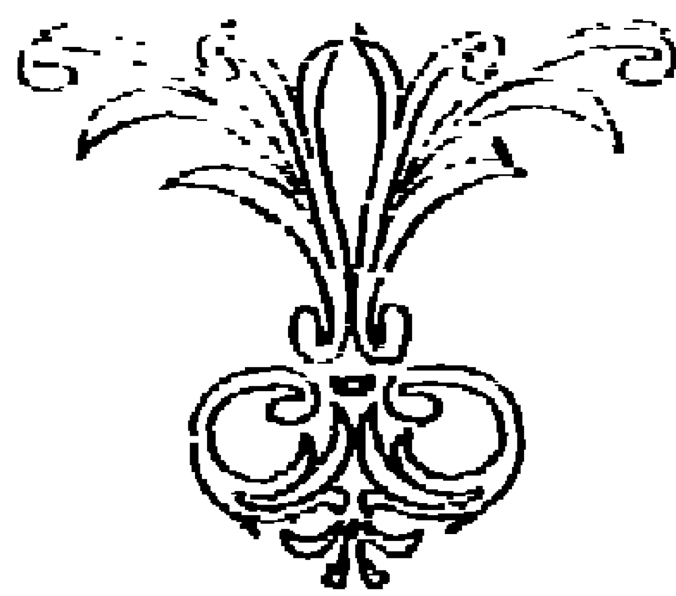
فقال ابو سفيان : دع هذه الزيارة الى الغد ، فلقد صبوت الى عزلة اجد فيها

بعض الراحة ، وسئمت احاديثك عن الرهبان ، وكرهت ان تحملني احلامك المخوفة الى افق لا احبه ولا استعذب التحليق في مداه . . .

— ولكن نفسي قلقة معتمة ، وهي تحتاج الى عناصر تمنع سبحها في ضبابة قرة صاردة . . . اذاكر انت كيف تحدث بحيرا الي في الماضي عن بعث نبي في الغرب؟

فهز ابو سفيان كتفيه ساخراً عابثاً واردف :

= لقد افضت بك كتب اليهودية والنصرانية الى مثل هذا الجنون الذي يغتصر نفسك ، ويقرض صدرك ، فخليق بك وقد احسست حاجتك الى تجديد قسواك الناضبة ان تحلق في فضاء غير هذا الفضاء الذي يغطي البيع والكنائس . . . دع زيارة بحيرا الى غد فلعل هذا المساء الذي نفيء الى ظله الساكن الوادع يحمل الينا بعض الهناء ، وبعض المرح . فادرك اميه ان لا سبيل الى الطواف بالأديرة في هذا النهار ، فسكت . وبعد قليل برح الأسياد الثلاثة البيعة وركبوا جيادهم فانطلقت بهم في اسواق دمشق تحت اشعة الشمس .



الفصل الخامس

آل غسان وقياصرة الروم

انتشرت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، ثم امتدت الى العراق فاجتمع عليها ملوكه واستساغتها قبائل شتى من العرب ومنها تغلب،وكان تبسط النصرانية في الشام علامة قوية على تغلغل الروم في حياة العرب السياسية والاجتماعية يدلك على ذلك ان قصور الغساسنة جاءت مزيجاً من الفن البيزنطي القديم والفن العربي الحيري وكانت كنائس العرب على شاكلة كنائس البيزنطيين بعيدة عن البساطة والسذاجة ، لأن العرب الغساسنة الذين استساغوا النصرانية واقتبسوها من الروم لم يصدفوا عن الاصطباغ بألوان التقاليد البيزنطية فكانت اعيادهم ومواسمهم في حوران والشام شبيهة بأعياد الروم ومواسمهم في القسطنطينية ، وكانت ملابسهم وازياؤهم في زخرفها وزينتها مماثلة لملابس الروم وازيائهم ،ولم تخل بيعهم ومحاريبهم مما كان في بيع بيزنطيه ومحاريبها من صور وانصاب وتماثيل

كان ملوك غسان على ضخامة القابهم ، واتساع سلطانهم ، اتباعاً لملوك القسطنطينية يصطنعهم هؤلاء في حروبهم مع ملوك الحيرة ويحرضونهم على اجتياح ديار آمنة مطمئنة عامرة بجيرانهم واخوانهم وابناء عمومتهم فلا يأنف هؤلاء الملوك من غمس ايديهم في دماء عربية صافية هي بعض دمائهم .

وبينما كانت القسطنطينية تبعث بقوادها الخلص للفتح في آسية وافريقية كان هؤلاء الملوك الخاضعون للرومان في الشام يوغلون في زحفهم على اطراف العراق الذي يحكمه ملوك ارتضوا بسيادة الفرس عليهم واطمأنوا الى سلطانهم ؛ فكانت هذه الملاحم تسفر في الغالب عن تضعضع قوى الجانبين من عرب الشام، وعرب العراق وعلى هذه الصورة كان الروم لا يأنفون من توطيد امرهم في بلاد العرب على

جبال شامخة من اجساد القتلى والصرعى٬

وكان ملوك غسان يفدون على قيصر في دار ملكه فيصانعهم ويذهب في مداراتهم الى اقصى حدود المداراة ، ويحبوهم الهدايا والمنح ، ويغدق عليهم الألقاب وكان الحارث بن جبلة اجل هؤلآء الملوك قدراً وارفعهم شأنا عند قيصر الرومان وقد زار هذا الملك القسطنطينية سنة ستين وخمسمائة في موكب التف به الجلال والرونق ، فاستقبله يوستانيوس في القصر المقدس على شواطيء البوسفور ومنحه لقب « فيلارك » وهو اعلى لقب في الدولة البيزنطية بعد لقب الامبراطور ، ولما عرضت القسطنطينية للملك الحارث وطاف مع قيصر وزوجه تيودورا بمغانيها وقصورها ، وكرماتها وشطئآنها ومعابدها ، استهوته الحياة البيزنطية بزخرفها وبهرته العمد والقباب والاقواس والقناطر والحنايا ٬ فآلى يميناً ليجرين على سنن الروم في الأنشآء والخلق والابتكار، ثم قفل الى بلاده فدعا اليه المصورين والنحاتين والمثالين فأجرى عليهم الخلع النفيسة ، والطرف الثمينة ، وارادهم على خلق الروائع الفاتنة فبنوا له القصر الابيض وقصر المشتى ، ودير هند

والحارث بن جبلة هو صاحب امريء القيس بن حجر الملك الضليل، ورفيقه في سياحته الى القسطنطينيه،وكان سلطانه يشمل نواحي الغوطة وفلسطين وباديتها ٬ مات في سنة سبعين وخمسمائة نخلفه ابنه المنذر وهو في سن سبع عشرة سنة فاتسق له ما اتسق لأبيه من جلال الملك وروعته وحارب المناذرة في العراق وانتصر عليهم

✡ ✡ ✡

كان ابو سفيان بن حرب ممن انتهى اليهم الشرف في قريش ، وكانت عنده راية العقاب وهي راية قريش وشعارها في سوح الوغى وكان واسع الثروة عزيز الجاه لامع الشهرة حتى في البلاد التي خفقت عليها رايات الروم

وكانت له فوق هذا كله صلة ود بآل جفنة الغساسنة ٬ وثقها ولعه الشديد بمشارف الشام ، ونزوله بديارهم واعجابه بيذخهم ومجاراته لهم في انشاء الحصون ،

واقامة القصور وكان مثلهم توّاقا الى الأعمال الجليلة الرائعة، نزاعا الى الذود عن الارض التي ولدته وانبتته نباتا حسناً، منكمشاً عن الروم، كارهاً لهم، لا يأنس الى مخالطتهم وقد نشأ هذا الكره في نفسه حيال الأجنبي من بعثه ومولده في معاقل حرة في تلك الارض المقدسة التي استعصت على الروم والفرس فما بلغتها جنودهم ولا فيأتها راياتهم!

وكان من عادته ان ينزح الى الشام للتجارة فتنتشر قوافله وخيوله في نواح كثيرة من الصحراء ويلحق به فتيان من قومه لحماية موكبه الفخم ولم يكن مع هذا كله بالرجل الذي حبس حياته على الميادين تحت الرايات عن كثب من الصفوف والجحافل، بل كان من طراز فرسان الجيل الذي يعيش فيه، فجمع الى خلق الفارس الجواد، خلق الرجل الذي يجد صبابته وامنيته في الحب، ويقبس شعوره وحسه من قبلة ترعش على شفتي حسناء لعوب!

في صيف سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقف ابو سفيان بن حرب في داره في مكة يلتف به ثمانون من صحابته وبني عمه فصارحهم بعزمه على السفر الى الشام جريا على عادته ومساوقة لتقاليده واراد اليهم ان يصحبوه في هذه الرحلة الماجدة التي عبر عنها بأنها للتجارة والمجد، فلم يدر احد ذلك المعنى الجليل الذي انطوت عليه كلمته فتباروا في اللحاق به وبينهم امية بن ابي الصلت شاعر الطائف، وكان ابو سفيان يأنس بحديثه ويحب شعره شأنه في هذا الحب شأن العرب الذين يجدون في الشعر حماية لأعراضهم، وذباً عن احسابهم، وتخليداً لمآثرهم فلا يهنئون الا بغلام يولد، او فرس تنتج، او شاعر ينبغ.

وكان امية يخبر أن نبياً يخرج قد اطل زمانه فود لو انه يكون ذلك النبي وعكف على قراءة الكتب، ولبس المسوح تعبداً وحرم الخمر واجتنب عبادة الأوثان والتمس الدين طمعاً في النبوة وامل ان يجتمع في رحلته الى الشام الى بعض اعلام النصرانية لعله يسمع منهم شيئاً كثيراً عن بعث ذلك النبي.

وكان ابو سفيان يعرف هذه الهواجس التي تجيش في نفس الشاعر فلم يذهله طمحه ولم يغضبه تماديه في احلامه واوهامه،فبرح مكة في موكب من فرسان امية ، وفتيان آل عبد شمس وبعث الرسل الى المنذر ملك الشام .

وبعد اسابيع توغلت فرسانه في طريق الشام البلد الذي احبه وا كثر من ارتياده في فصل الربيع الزاهر الضاحك ، فانتشر هذا الموكب الفخم في الصحراء وظللت الشمس المتوردة راياته واعلامه

ولما وصلت رسل السيد الأموي الى بصرى بعث ملك الشام بجماعة من فرسانه وابناء عمه لموافاة الموكب عند تخوم بصرى وهيأ قصر صرح الغدير الذي بناه الملك الحارث بن جبلة للضيف الجليل الذي يلتقي في كبرياء بيته وشرف محتده مع آل عبد المطلب سيد بني هاشم ، ولم يكن امر هذه الرحلة غريباً لافي بصرى ولا في دمشق ولا في اي ناحية من نواحي الشام فلقد كان لقريش في السنة رحلات اربع فان اصحاب الأيلاف كانوا اربعة اخوة وهم بنو عبد مناف احدهم هاشم وكان يؤآلف ملك الشام وقد اخذ منه خيلا فامن به تجارته في الشام والثاني عبد شمس وكان يؤآلف الى الحبشة والثالث عبد المطلب وكان يرحل الى اليمن والرابع نوفل وكان يرحل الى فارس وكان هؤلآء يسمون المتجرين فيختلف تجر قريش بخيل هؤلآء الأخوة .

وكان لقريش رحلتان رحلة في الشتاء. ورحلة في الصيف الى بصرى من ارض الشام وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم اهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم والناس ما بين مخطوف ومنهوب، ولم يكن في العرب اكثر مالا ولا اعز من قريش .



اجتازت قوافل ابي سفيان تلك الصحراء العريانة في ثلاثين يوما حتى برزت لها تلك الأرض المتحضرة المهذبة الطافحة بآثار الروم والغساسنة ، فلاحت لأبي سفيان البيع والمعابد والقصور والقباب وانكشفت له ارض ازهر فيه النارنج

واورق والتفت بها الأعناب ومغارس الآس فتنفس الصعداء وفتح نفسه المغلقة لجمال الطبيعة واستأنس بجمال الفن وقد خالط جمال الطبيعة وهزته اعراف الفجر وهي ترعش في الأفق ندية عذبة حلوة انيسة كحلم صبي فصاح :

— اين هذه الأرض الغناء من تلك الصحراء الجرداء ؟

ونم صياحه عن قوة احساسه واحتدام شعوره ، بل لقد جاء صياحه دليلا على روعة التحول الذي نشأ في نفسه حينما عرضت له هذه الأرض التي ازهر فيها الآس والزنبق والنارنج فبدا له كأنه يحلم وتمثل في حلمه تلك الصحراء وقد حاكت السماء طولا وعرضاً فأدار عينيه في مداها الافيح فما وجـــد غير المياه الآسنة ، وغير الرمال المشبوبة !

ولما عاد الى نفسه عثر في نواحيها على اشياء جديدة فاراد ان يتعرف اليها فلم يجد لها اسماً فلبثت هذه الاشياء التي عجز عن الافصاح عنها حبيسة دفينة في قرارة نفسه الى ذلك اليوم الذي يحركها ويستجيشها ويحسر عن اسمائها

وكانت القوافل تمر بالمعابد والصوامع ،واصحابها يغنون ويهزجون،فتختلط اغانيهم واهازيجهم بعصف الاجراس وصخبها ، وفي ذات عشية بدت منائر بصرى فصاحوا :

— هذه هي بصرى !

فهتف سيد بني امية !

— بلى وربي هذه هي بصرى

وافت فرسان الغساسنة الذين بعث بهم المنذر القوافل الى اماكن قريبة من بصرى فلما حاذت المواكب رحب فرسان غسان بفرسان بني اميه وحيوهم تحية العرب في الجاهلية ، فكان لقاء اختلطت فيه خيلاء البداوة بكبرياء الحضـــارة !

قضى سيد بني امية ليله في قصر صرح الغدير عن كثب من امية بن ابي الصلت وتفرقت حاشيته في منازل بصري وقصورها ؟

الفصل السادس

عند الراهب بحيرا

لم ينم امية ليله بعد وصوله الى بصرى فلبث ساهداً ارقا تتزاحم على خاطره شتى خيالات واحلام ، وكان لا يبرح يحس في نفسه نزوعا الى الكنائس والبيع التي عرضت له في بصرى فود لو انه يطفر الى نواحيها

وكان ينام في حجرة بعيدة عن حجرة ابي سفيان فعاف فراشه الى نافذة تطل على دير قديم في بصرى وسرح طرفه في انوار ضعيفة تنبثق من شرفات الدير ثم ارهف اذنيه فاذا هو يسمع انشاداً عذبا يخرق سكون الليل ، فاستهواه هذا الرنين العذب واستثار شجونه طول ليله فحاول ان يبتدع له صورة محسوسة في ذاكرته وراح يتساءل عن معنى هذا الجرس الفاتن .

وكان في حجرته نور ضئيل فابصر على سناه الضعيف بعض الدمى وبعض التصاوير وشد ما كان ذهوله حينما رأى في هذه الدمى وتلك التصاوير انسجاماً مع ذلك الانشاد العذب الذي اخذ يتصاعد من الدير القريب ، فلم يذهب به وهمه الى مدى بعيد في تفسير هذه الاشياء التي عرضت له فادرك وهو المسحور بروعتها انه جد قريب من النصرانية التي سمع عنها كثيراً وقرأ عنها كثيراً والتي كانت له صلة وآصرة وثيقة باحبارها واعلامها فجفا مكانه على الشرفة وهو اشد ما يكون انقباضاً وانكماشاً واقبل يجوس خلال اروقة القصر وهو لا يدري الى اين مساقه ، ثم تسلل الى الحديقه الصغيره فاذا هو عن كثب من باب صغير رصع بالنقوش البديعة ، وركبت فيه فصوص من الفسيفساء وقد قام على الباب تمثال صغير للعذراء مريم فوقف قبالة التمثال ، وفاض في نفسه شعوره المنبجس ، ثم مالبث ان جفا التمثال وازور عنه وفتح الباب في خفة الوميض وهو

لا يدري معنى هذه الثورة التي اخذت تطفو على نواحي روحه

وظل ذلك الرنين العذب الذي استفاض من جوانب الدير حلواً سائغاً لذيذاً يحرك شجونه وذكرياته فجعل يمشي بخطى متثاقلة وهو مسوق بدافع خفي الى ناحيته بل لقد كان يتلفت حوله وهو لايدري مصدر تلك الرياح التي عصفت فجأة حتى حركت حياته الراكدة !

— يالنفسي من هواجسها !

ولم يصف هذا القلق الذي اثار روحه باكثر من هاجس فظل يهذي وهو دائب على طوافه حتى لطم رأسه باب الدير فاستفاق من ذهلته وغشيته وحدق الى الدير طويلا فتنشق عرفا طيباً فالتفت حائراً مشدوهاً لايدري من اين هبت عليه نفحات ذلك الشذا العبق ؟ ولكنه لم يلبث طويلا حتى عرف مصدر تلك النفحات فاذا هي تتأرج من مجامر البخور في داخل الدير .

وتضاعف ذلك الرنين الحلو ثم تضاعف فما شك ان الرهبان يمضون في صلاة الصباح فصبت نفسه الى دخول الدير فطرق بابه وهو اهدأ ذهناً واربط ما يكون جأشاً ! . .

وبغتة فتح الباب ولاح على عتبته شيخ جليل قد أناف على السبعين فنظر اليه راعشاً وانثنى يريد رجوعا فقال له الشيخ :

— من الطارق ؟

— رجل ضل سبيله فعاذ بالدير

— من انت ؟

— عبد الله بن ابي ربيعه بن عوف الثقفي

— لعلك من الحجاز ؟

فحنى امية رأسه فأفسح له الراهب الطريق واردف :

— ادخل على الرحب والسعة فانت في ضيافة الله .

كانت الكنائس والأديرة والبيع في الشام وحوران والبلقاء لاتأنف من فتح ابوابها للضيوف الوافدين من جزيرة العرب ولا يحجم رهبانها وهم الذين حبسوا انفسهم لله، عن صنيع كريم ينم عن سلائق طيبة، ومشاعر نبيلة .

وكان لسادة قريش كرامة موفورة في هذه البيع التي جعل اصحابها شعارها «الله والحقيقة والشرف» وقد اختص الرهبان القرشيين بهذه الرعاية لشرف احسابهم ونقاءنفوسهم واحتواء هذهالنفوس علىاصفى الينابيع التي تفيض بشتى الفضائل

سار امية بن ابي الصلت امام الراهب في كثير من الخشوع وقد اشجته الأعراف الذكية التي تتأرج من مجامر البخور، واشتملت نفسه على روعة الخيال الشعري وروعة الديانة .

والشعراء لا يبرحون اكثر الناس شعوراً بالجمال كلما عرض لهم في الطبيعة مشهد فاتن .

ولعل الديانه اكثر مايفتن لب الشاعر وذكاءه بل لعلها الصورة الفذة التي ينبثق منها حلم الشاعر في الطمأنينة والراحة وسكون النفس الى معاني الحياة الجميلة

قد تعرض للشاعر في الديانه دمية من الدمى فيرى في ركودها وصمتها كل ما تحتاجه حياته من ينابيع الحياة الثرة الدافقة بل لقد تعرض له في الديانة رسوم عافية فيقبل عليها ويدرس عفاءها فلا يخرج من درسه الا وقد حال ذلك العفاء المطلق الى حياة مرحة راغدة .

وكذلك كان شأن امية بن ابي الصلت الشاعر الذي انسجمت الديانة فيخاطره وخالطت ذهنه حتى اصبحت حلماً من الذ احلامه وابهج امانيه، وحتى اصبح كل ما عرض له من الدمى والصور حافزاً لشجونه مثيراً لسكونه .

لم يكن التعس يدري الى اين مساقه ومصيره ؟ فقد جعل يمشي بخطى راعشه وكانت الدهاليز التي تنيرها مصابيح ضئيلة تبدو له كانها عالم بعيد الغور والعمق فبلغ به طوافه حجرة يظللها سقف من المرمر فأومأ اليه الراهب ألا يعدو

في خطوه هذه الحجرة وقال له :

— هنا مبيتك في هذه الليلة

فتغلغل امية في اعماق الحجرة وقفل الراهب راجعا الى مثواه في الدير فلما خلا الشاعر الى نفسه في تلك الحجرة المترعة بكثير من التصاوير والدمى تنفس الصعداء وفتح عينيه كأنه استفاق من غشية طويلة وعكف على ملابسه ينزعها في تؤدة ورفق ثم اضطجع على فراش ينم عن حياة وادعة قريرة ، واغمض عينيه ونام نوماً هادئاً طيباً والأعراف الذكية تملأ جوانب الدير والراهب الذي ساقه الى مثل هـذا المساق يصلي في محرابه في كثير من التواضع والورع .

وفي صباح اليوم التالي بكر امية في نهوضه ، فاذا هو عن كثب من ذلك الراهب المحطم الذي فتح له باب الدير ؛ فرأى فيه على ضوء المصباح شبحاً ضاويا ضئيلا يزدلف اليه بخطى ضعيفة ويمشي الى ناحيته وهو يكاد يعثر في مشيه وكان الراهب لايبرح صامتاً زميتاً كأنه رمس قديم — فنظر الشاعر اليه كأنه قد عرف فيـه صديقاً قديماً وصاح به .

— قل لي الست بحيرا الراهب المبجل ؟

— نعم

— لقد تلاقينا في البلقاء اكثر من مرة واحدة وذلك قبل ثلاث سنـوات افلا تعي شيئاً من امر هذا اللقاء ؟

ثم تلاقينا في صيف السنة الدابرة هنا في قصر آل جفنة !

فحدق الراهب اليه ثم مضى ناظره يجول في الفضاء وراح الشاعر يسأله قائلا :

— في المرة الاولى كشفت لي عن بعث نبي في العرب ؟

فهمس الراهب :

— بلى بلى .

— وفي المرة الثانية قلت لي ان هذا النبي يوشك ان يطل :

فصاح بحيرا متحمساً :

ـــ نعم نعم .

ـــ اذن فاي حديث جديد تريد ان تكشف لي عنه في هذه المرة الثالثة ! . .

ففتح الراهب عينيه كأنما هو قد افاق من حلمه فاذا هـــو لم يعد ذلك الشبح الضاوي الضئيل واذا ذهنه ينفتح ويتلألأ ثم اذا هو يتحول الى شـــاب جديد لا يعوزه قليل او كثير من حماسة الشباب ونزواته فخيل الى امية ان الراهب لم يفقد شيئاً من حمية الحداثة ، واندفاع الشباب ، بل لقد خيل اليه ان الراهب عاد يحدثه بمثل تلك النبرات القوية التي اصغى اليها في الماضي فما شك انه مقبل عـــلى خوف شديد .

وتقدم الراهب من امية ثم تقدم وتقدم كثيراً حتى صـاقبه وحاذاه ثم امسك يديه فاذا هما تنضحان ثلجاً وقرآً فصاح :

ـــ انظر من هذه الشرفة الى الصحراء ! . . حدق طويلا الى هذا الرمل المنبسط الذي تحمله الينا بادية العرب ! . . هنالك في هذا الرمـــل الذي تعصف به شتى الرياح قافلة تسير مطمئنة ؛ في هذه القافلة تجـارة الى بصرى ؛ نعم حدق طويلا في هذا الرمل المنبسط ؛ وانظر الى ناحية هذه القافلة التي تسـير في ارض لا ينبت فيهـــا الزهر والآس ؛ اذا نظرت الى رجال هـــذه القافلة وتبينت ملامحهم بدا لك صبي كعقد الجمان في وميضه واشراقه ؛ ولاح لك في هذا الصبي المجيد ذلك الناموس الذي لاح لموسى وعيسى ! . .

لقد ولد النبي في اشرف القبائل بل في اكرم البيوت !

وكان امية يتبع بنظراته تلك اليد الراعشة التي اخذت ترسم في الأفق خطوطـا وهمية لرمال البادية تسير في وسطها قافلة اصطنعها هذا الخيـال الذي يبعثه الورع والتقشف ولكنه لم ير رمالا ولم يلمح قافلة فعـاد الى الراهب كأنما هـو لا يصدق بعض هذا الذي يقوله .

وشد ما كانت حيرته حينما ابصر الراهب وقد حجب عينيه خلف غمـامة من دموع الفرح وغاشية من بكاء يهطل ويسح ، فغامت نفس الشاعر من اليأس وراح يسأله قائـلا :

— اذن فلست هازلا في هذا الذي تقوله ؟

— كلا كلا !

فلم ينبس الشاعر ولكنه ثنى وجهه وعدا يريد الخروج الى الدير فاستـوقفه بحيرا قائـلا :

— فيم اجفالك هذا ، أيرمضك كثيراً أن ينبت في الحجاز هـذا النبت الذكي المتأرج ؟ واعجباً لكم معاشر العرب ! تعيشون في الصحراء عيشة السائمة وقد الظ بها الفصل القائظ فراحت تهيم في شتى النواحي بينما يغشى تلك المدن التي تركتموهـا وراء هذه الصحراء العارية اجنبي ينعم بالظلال الوارفة الرطبة وبينما يحصد هـذا الاجنبي ما زرعته ايديكم في الحقول التي امرعت في لهث نفوسكم واخصبت في كد خواطركم وبينما ينشيء هذا الاجنبي في الارض الزاهرة المورقة حصونا من الحجر الصلد وقصوراً من صخور الجبال تنم عن جبروته وصلفه بينما هي تنم عن هـذا الموت البارد المقرور الذي يغشى نفوسكم ! . .

في العراق الفرس ، وفي الشام الروم ،وانتم بين هؤلآء واولئك اضنآء بهـذه الصحراء التي لاتدر لبنا ولا تنبت حبا .

واعجباً ! هذه المراعي الفينانة والينابيع الهتانة ، كلها لكم ثم بعد هذا كله تأتون بالماء فتشربونه آسناً غير سائغ ! . . .

ايها الشاعر الذي يأتيه الالهام من جمال الارض وجمـال السماء لتتبدل انغامك في الروضة الغناء ، والدمنة الوطفاء ، بنغمات عذاب تبعثها نفسك في الاشادة بروائع هذا الفجر الذي سيظلل نوره البهي عالمـنا جديداً تفيئون اليه وتحصدون في اديمه نبات الحياة المتوردة الزاهية .

قال بحيرا هذا كله وراح يصلي في زاوية صغيرة في الدير تاركا الشـــاعر في سبحه وغرقه .

ومضت لحظات ، ثم مضت لحظات وبحيرا في غرق عميق ، فما عتم الشاعر ان استحيا من خواطر نفسه الثائرة وضجرها الاحمق فراح ينتحي ناحيـــة بعيدة في الدير رجاة ان يطمئن وان يسكن وقد نسي ابا سفيان ، ونسي صحبه بل لقد نسي تلك التجارة التي نقلته من البلد البعيد ، الى البلد الابعد ، وفاته اغراضهـا فما عاد يفكر الا في الاطمئنان والسكون

وعرضت له في الناحية التي انتبذها في الدير قبور ورموس من المرمر النقي فوقف حيالها مطرقا خاشعاً فضاعف سكونها انفعاله فلج في مخاوفه واوغل في يأسه وخذله شعوره الجائش في التعبير عن هذه الآلام الكثيرة التي احسها فمضى يفكر ليجد لها في خاطره كنفا يستريح اليه فما بلغ به الجهد طمحاته، ولم تكن لديه كلمات كافية لتصوير آلامه الخفية ذلك بأن الاحزان الحقيقية تبقى صامتة ساكنة

وخيل اليه وهو واقف حيال القبور انه اصبح ضعيفاً واهناً وان عينيه تبتردان بالدمع وانه لم يعد سوى امرأة تلج في الشكاة ، وتبالغ في البث .

واشبهت نفسه المتبرمة بالحياة زهرة يانعة قذفت بها الرياح العابثة الى الرمـال فجفت وذبلت وغاب اريجها المتضوع في سعير الرمل المتأجج .

ولم يطل به حجه الى هذه القبور فبرح مكانه وقفل راجعا الى الراهب الذي اتم صلاته فاجزل له الثناء على وفادته وكرمه وارتد الى قصر صرح الغدير فلحق بابي سفيان .

في تلك الاثناء مال بحيرا الراهب الى النافذة فتقصى بالنظر وجه الشمس وقدنهدت من خدرها الازرق البهي وغمرت انوارها القصور والمعابد فهمس قائلا:

— ستصل القافلة الى بصرى . . . انها الآن في هذه البادية ، ثم عاد الى حجرته ليستأنف تأملاته ، واحلامه !

الفصل السابع
في الطريق الى دمشق

قفل امية الى ابي سفيان فالفاه لا يزال في حجرته وهو اشد ما يكون مرحا واستئناساً وكان الارق لا يبرح ماثلا في عيني الشاعر فجعل سيد بني امية يطيل تأملاته فيه كأنه يريد ان يتغلغل الى اعماق روحه ليفهم اسرارها الحبيسة فابتدره قائلا :

— يخيل الي انك لم تنم ليلتك هذه ؟ فأي حادث اشجاك في بصرى حتى صيرك كهذه الطلول الدوارس التي تعرض لنا في البادية ؟

فانشأ امية يقص على ابي سفيان حديث تلك المشاهد التي عرضت له وهو في دير بصرى فاستثارت شجونه وبعثت اوهامه ، ثم سرد له خبر تلك النبوة وافاض في الوصف واخذ يريق على هذا الوصف شيئاً كثيراً من بلاغته فلم تخرج من فمه عبارة الا اترعها بالأنيق المستحب من بيانه ، ثم تبسط في حديثه فذكر حماسة بحيرا ووصف ذلك الورع البليغ الذي غشي الراهب في تصويره النبي فاثرت هذه الصورة المنقولة في نفس ابى سفيان واستثارت حماستها وغيرتها فصاح :

— ان احاديث هذا الراهب عن ذلك النبي الذي سيبعث في العرب لهي على شاكلة تلك الأحاديث التي خبر بها ورقة بن نوفل في سوق عكاظ

دلني على مثوى ذلك الراهب الورع فاني احب ان يحسر لي اشياء كثيرة عن هذا النبي

— ولكني اخشى ان يغمرك مثل هذا الاحساس الغريب الذي غمرني فلقد والله دخلت على الراهب وانا بعد طليق لا يخامرني غير سكون النفس واطمئنانها الى العبادة وكنت لا ابرح مأخوذاً بحلاوة ذلك الشذا المعطار الذي ملأ جوانب الدير واترع نواحيه فما ان قص على الراهب حديثه عن ذلك النبي حتى عدت الى نفسي فاذا هي لا تملك وعياً ولا تصحب ذكراً واذا انا سادر في حلم مضب معتم

ولكنه حلم يبعث اكثر من الخوف واروع من الرعب ! وكنت مطمئنا الى ان تقشفي يبلغ بي هذا المدى الذي بلغه عيسى فما شككت في اني ذلك النبي ! . . . ولكن الراهب ماعتم ان انتحى ناحية تلك الصحراء المترامية التي ترتادها القوافل في طريقها الى بصرى وطفق يرسم بيديه الراعشتين خطوطا وهمية في أواذي ذلك الرمل المنبسط المضطرم ثم سمعته يقول كأنه في حلم « انظر الى الأفق هذه هي القافلة ، انها لتشق غلالة الرمل في يوم صائف ، انها لتنحدر الى بصرى . . . انظر مليا ، في هذه القافلة صبي كريم اغاء الله عليه ما اغاء على موسى وعيسى» ! فاجتذبني وهمه الى وهم حافز فعلقت نفسي بالأفق وراحت عيناي الى ناحية الرمل تتأملانه فلم استبن قافلة ، ولم ألمح صبيا ، فادركت انني في مثل هذا الغرق الذي يغشاه ويحتويه ولكنني صدقت احاديثه وآمنت بصفائها .

كان امية يتكلم وهواشد ما يكون تدفقاً واندفاعاً وكان ابو سفيان الى كلمه اشد ما يكون اصغاء وانتباهاً واكثر ما يكون احساساً بهذاالجديد الذي جاء يحدثه عنه فلما وقف الشاعر عند هذا الحد في وصفه طوافه بالدير واجتماعه الى بحيرا صاح ابوسفيان:

— ليكن طوافنا بالدير غداً فاني لألذ الاصغاء الى حديث الراهب عن ذلك النبي الذي جاء يبشر ببعثه وظهوره اما انت فلا يضيرك ان تلقي بطمحاتك الى هذه الرمال فتحتويها ، ثم تنطلق الى نفسك فتعريها من هذا الالم الممض الذي يغالبها وترجع الى الشعر فلعل الشعر يرد اليك صبابتك في السكون ! والشعر كما علمت تجديد للقوى الذاهبة والآمال الخائبة ، وكان النهار قائظاً لفاح الأوار فمضى ابو سفيان يحدثه قائلا ؛

والآن هلم نبترد بهذا الفيء الذي يغمر جنات القصر فليس يطفيء سعير نفسك غير الابتراد بالظل وغير الغرق في هذهالخضرة الناعمة الملساء التي تغشى هذهالجنات

وانطلق الى جنة القصر،والأرض راقت افقاً وحسنت مرتفقاً ومشي الشاعر الى جانبه وقد غام بصره بوكف اليم .

في تلك الأثناء كان قصر المنذر الغساني يغص بالوافدين من اشراف البلقاء وحوران وتدمر والشام ، وقد نفر هؤلاء من اماكنهم البعيدة لاستماع شعر حسان بن ثابت احد شعراء يثرب .

وكان حسان يرتاد الشام في فصل الصيف القائظ فينزل على ملوكه وامرائه ويجد في اولاد الحارث بن ماريه وهم النعمان والمنيذر والمنذر وجبلة وابو شمر اخوة يحدبون عليه ويبجلون ذكره ويكرمون اثره بل لقد كان هؤلاء كلهم يفتحون امامه قصورهم في البلقاء وفي حوران وبصرى فيدخلها مطمئن السرب وادع النفس كأنما هو في منزله بيثرب بين اهله وذوي رحمه . .

وكان حسان قد برح داره منذ اسابيع وهو بعد ريان الشباب ، حلو الجرس ناعمه ، صبيح الوجه ، لم يبلغ العشرين من العمر فلما اتى بصرى في تلك العشية كانت قوافل ابي سفيان تحط رحالها في الأسواق .

وأراد المنذر ان يبالغ في تكريم الشاعر فدعا شيوخ غسان الى قصر الحارث بن ماريه ليسمعهم شعر حسان فقرأ الشاعر قصيدته بصوت ناعم النبرات ؛ ثم تدفق كالآتي المنهمر فصاحة وبيانا فاشجى سامعيه واستثار عواطفهم ومشاعرهم ولما بلغ في قصيدته قوله :

اولاد جفنة حول قبر ابيهم	قبر ابن مارية الكريم الأفضل
بيض الوجوه نقية احسابهم	شم الانوف من الطراز الأول
يسقون من ورد البريص عليهم	بردى يصفق بالرحيق السلسل

خلع عليه الملك المنذر رداءه وادناه منه .

وبينما كانت اشعار حسان ترعش شيوخ غسان من الحماسة والزهو اخذ الليل ينشر ذوائبه الفاحمة على الرمال وطفقت قافلة صغيرة تشق غلالة الصحراء تحت الغسق التماساً للظلال الرطبة ثم انحدرت الى الطريق المؤدية الى بصرى وفي اثرها بعض الفرسان

* * *

بكر ابو سفيان في نهوضه من فراشه وهو اشــد ما يكون تشوقا الى حديث الراهب بحيرا ، فلما احتوته حجرة امية الفاه يرعش فصاح به :

— لقد بالغت في القلق وارى تماديك في هذه الهواجس التي تزخر في نواحي نفسك قد يفضي بك الى آلام مضنية واني لاحب لك ان تغدو مطمئناً وان تنزع من نفسك اثر هذا الطموح الذي يفترسها ويتأكلها

فلم ينبس امية وانطلق مع ابي سفيــان الى الدير فاعاد الراهب عليهما حديث ذلك النبي بمثل حماسته الاولى وغيرته الماضية وزاد على ذلك قائلا :

سأبرح بصرى بعد ليال الى دمشق فاجتمع الى احبارها لأحدثهم بشـأن هذا النبي الذي سيكون بعثه اول علائم الحياة في صحراء العرب ! . .

فقال ابو سفيان :

— اذن دعنا نودعك

فصاح الراهب :

— لماذا لا تبقون في ضيافتي ؟

— سنلحق بدمشق في هذا المساء لنعرض تجارتنا في اسواقها، فاذا انقضى الغد عدنا الى مصلاك في اليوم الذي يليه فهز رأسه هزة الفرح واردف :

— ان ابواب مصلاي ستظل مفتوحة لكما ولكل قادم من الحجاز !

— لقد اصبح كرمك مثلا سائراً في جزيرة العرب !. . .

فتبسم بحيرا وقال :

— لا تبالغ في المدح والثناء ايها الشريف النبيل فان عملي يبدو لك ضئيلا اذا ما قسته بهذا الكرم الذي لايبرح شعار هذه الخيام التي تتراءى لنا تحت الفضــاء واني لاقسم لك ولست كاذبا أن خيام الاعراب في صفائها وطهارتها افضل بكثير من هذه القصور الشامخة التي لاتتسع لغير الاهواء والشهوات والتي قامت صروحها وبروجها على مناكب البائسين والمكدودين فقال ابو سفيان :

— حسبك هذا الذي قلته فلقد والله حببت الي البادية كثيراً وأنسيتني بعض هذا النعيم الذي تذوقته في الحضارة .

واستأنف بحيرا حديثه قائلا :

ناشدتك الله ألا تنسني من زيارتك ، ثم التفت الى اميه وقال له :

— لعل صلاتك في الدير لاتكون الاخيرة ؟

وارتد بحيرا الى ابي سفيان فهمس في اذنه قائلا :

— سيخرج من ابنائك ملوك يديلون الروم عن هذه البلاد ! وسيكون ابناؤك جندا لهذا النبي العظيم ينصرونه اذا قعد الناس عن نصرته ولا تقعد بهم هممهم عن تأييده في دعوته .

فرعش ابو سفيان وهم برفع صوته فثناه الراهب واراده على السكوت وقال له:

— سنتقابل كرة اخرى اليس كذلك ؟ . .

— بلى وفي هذا الدير

— نعم في هذا الدير ، ولكني اناشدك الله الا تفتح فمك فيعلم الروم بامرك ويفكر قيصر في قتلك . . . قل لي انك ستدفن هذا السر الذي افضيت به اليك في غلالة نفسك ؛

— هدىء روعك فلن يبلغ الروم اعماق نفسي ! .

وشد ما كانت فرحة الراهب حين تلقى هذا الوعد فعاد الى ديره حافل النفس بالشباب والقوة وارتد الى مصلاه وليس في ذهنه سوى معنى واحد وصورة واحدة: معنى النبوة وجلالها ، وصورة ذلك النبي وجلاله ، ثم جعل يتخافت بصوته وهو راكع على رخام المعبد :

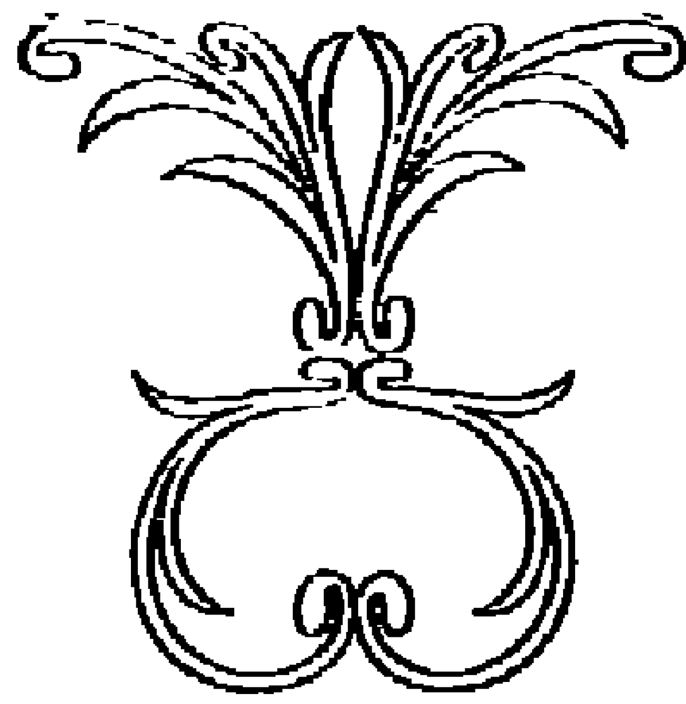
— امتدي ياظلال هذا الفجر الجديد على اكناف عمري الذاهب وانيري غسقها الفاحم .

ثم عاد الى حجرته شاعراً بحلاوة الاستخذاء لذلك الصوت الذي تدفق في

نواحي روحه ، وهو يناديه الى الايمان بذلك النبي الكريم .

وفي المساء اجتاز ابو سفيان بن حرب وامية بن ابي الصلت الطريق المؤدية الى دمشق في طليعة القوافل .

وبعد ايام برح حسان بن ثابت بصرى مودعاً قصورها ومعابدها وملكها فدخل جنات الغوطة تحت ندى الصبح الباكر ولقي أولئك الفتيان اللاهين المرحين فسألهم ان يدلوه على طريق دمشق فدلوه فواصل سيره «كما يذكر القراء» حتى بلغ ناحية الدير ، ونزل ضيفاً على احباره، وفي صباح اليوم التالي لقي الشاعر ابا سفيان في جنةالدير معامية فلحق بهما ، وبرح الثلاثة المعبد متوغلين في اسواق دمشق تحت ذوائب المساء ؟



الفصل الثامن

العرب بين الروم والفرس

طغت على بلاد العرب في اواخر القرن السادس موجة قلق اغرقت في سدفتها حياتها الاجتماعيةوالسياسية فاندثرت الدولةالتي ينتظم بها الأمن والسكون وضاعت الاسرة وهي قوام المجتمع واصبحت البلاد من ساحل البحر الاحمر الى ساحـــل البحر الأبيض موزعة بين الفرس والروم الذين تنازعوا على البلاد المعروفة بخصبها وامراعها وثروتها كالعراق والشام وكان اضمحلال الاسرة في بلاد العرب صـادراً عن اضمحلال الديانة في القبائل العربية العاكفة على عبادات مظلمة مغمورة ليس لها غرض ادبي تقصد اليه او غرض اجتماعي تحوم حوله ؛ فنشأ عن اضمحلال الاسرة تفسخ في وحدة البلاد السياسيـــة انضى الى قيام عصبيـــات مستقـــلة في بعض الانحاء البعيدة عن المراعي والينابيع كالحجاز ونجد لم تستطع البلاد معها ان تتمتع ولو قليلا بالطمأنينة التي تنشيء الأسرة وتنشيء البيت والحقل.

وهذهالحالة المريبة التي شملت بلاد العرب شجعت الروم في القسطنطينية عـلى التبسط في نواح كثيرة من امصار الشرق فخضعت لهم الشام وفلسطين وارادوا الناس على النصرانية وهي ديانتهم فعكف عليها اهالي فلسطين والبلقاء وحوران والشام وتدمر ولبث العراق في نجوة ولكنه لم ينج من الفرس الذين نافســـوا الروم في خلق الملوك والممالك في العراق.

واصطنع الروم عرب الشام في قتال الفرس ووجدوا في ملوك غسان المتنصرين نزوعاً الى المعارك ولعـــل اروع الملاحم التي شهدتهـــا سهول الشام والعراق تلك التي خاض غمارهـــا الملك الحـارث بن جبلة الغساني الى جانب القائد بلزاريوس الروماني الذي بعث به يوستـــانيـوس صاحب

القسطنطينية الى قتال كسرى انوشروان ملك الفرس فلقد احتدمت المعركة وخاضها الغساسنة والمناذرة الى جانب الروم والفرس؛ وكان الحارث الغساني قائداً جيوش العرب المتنصرة، وبلزاريوس قائداً جيوش قيصر ثم انكشفت المعركة عن انكسار الفرس وارتدادهم فرأى يوستانيوس ان يكتفي بهذا النصر فمنع جنوده من التوغل في بلاد الفرس واراد كسرى على الهدنة فوافقه عليها وكان الروم في ذلك العهد يوغلون فتحاً في افريقية.

ادرك كسرى ماربحه الروم من الهدنة فاحنقه ذلك فنزع الى نقض الصلح وطلب الى المنذر بن ماء السماء بن امريء القيس الثالث عامله على العراق ان يغزو الشام وكانت المنافسات قائمة بين الحارث الغساني والمنذر اللخمي على طريق في البادية فلما اجتاح المنذر حدود مملكة الغساسنة انتصر قيصر لعامله الحارث الغساني وانتصر كسرى لعامله المنذر بن ماء السماء فدارت الدائرة في هذه المعركة على الروم، وبلغ الفرس وحلفاؤهم من عرب العراق اسوار القسطنطينية بعد ان تركوا الشام والعراق طلولا عافية، وخربات ممزقة، فاستعان قيصر قائده بلزاريوس الذي كان في افريقية، فهاجم هذا القائد المناذرة في بلادهم وتوغل فيها وامتد بزحفه الى بلاد الفرس وترك الحارث الغساني وجنوده خلفه حتى لايكون لهم نصيب في النصر فاحفظ عمله الحارث فعاد الى بلاده وبلغ كسرى امره فارتد على الروم واخرجهم من بلاده.

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة سار المنذر بجنوده الى الشام فنصب خيامه على «عين اباغ» في واد ظليل على شاطيء الفرات وارسل الى الحارث يقول له «اما ان تدفع الفدية فانصرف عنك، واما ان تأذن بحرب» فاجابه الحارث «انظرنا ننظر في امرنا» فجمع الحارث جنوده ومضى الى المنذر وارسل يقول له «إنا شيخان فلا نهلك جنودنا والرأي عندي ان يخرج رجل من ولدي ورجل من ولدك فمن قتل خرج الى مكانه آخر واذا فني اولادنا خرجت انا

اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك » فوافقه المنذر لكنه غدر به وانزل له بعض رجاله بدلاً من اولاده فعلم الحارث بالمكيدة بعد ان قتل له ولدان من اولاده وحمل على المنذر برجاله واقتتلوا قتالا شديداً حتّى قتل المنذر وهزمت جنوده.

وتوارث عرب الغساسنة في الشام وعرب المناذرة في العراق هذه المنافسات التي وجدت من الروم والفرس ما يغذيها وينميها.

حملت هذه المنافسات الغساسنة على ان يسألوا الوافدين اليهم من العراق رأيهم في ايهما افضل ملك غسان ، ام ملك العراق ، من ذلك ان ابا قيس بن رفاعة كان يفد سنة الى النعمان بن المنذر اللخمي بالعراق وسنة الى الحارث الغساني بالشام فقال له الحارث يوما وهو عنده « يا ابن رفاعة بلغني عنك انك تفضل النعمان علي فقال وكيف افضله عليك ابيت اللعن فوالله لقفاك احسن من وجهه ولأمك اشرف من ابيه ولابوك اشرف من جميع قومه ، ولجندك اعز من جنده ، وانك من غسان ارباب الملوك وانه من لخم الكثيري النوك فكيف افضله عليك؟ » .

وكان هذا النوع من التنافس سبباً في افساد ضمائر الرعية فجعل الذين يسيحون في اطراف العراق ينقلون الى المناذره صورة مشوهة لملوك غسان وجعل الذين يختلفون الى الشام ينقلون الى ملوك غسان صورة مشوهة لآل المنذر ولم تنقطع المشادة بين ملوك العرب فاستمرت على اسوائها حتّى اتّصلت بنواحي تدمر حيث بنو ربيعة حلفاء الروم في حروبهم مع الفرس والمناذرة

امتد هذا القلق الذي شمل الاذهان والضمائر والنفوس الى بلاد العرب جميعا وكان بعضها خاضعاً للنجاشي ملك الحبشة النصراني الذي كان يجري على سنن الروم في افساد الضمائر وتعطيل الأخلاق وكان طبيعياً جداً ان تنجم عن هذه الأحوال الشاذة معارك وملاحم تعطل ما بناه الفكر المهذب من صروح وقصور ومدن عامرة ، من ذلك ان عرب الحيرة بقيادة المنذر الثالث كانوا قد اجتاحوا تدمر فدمروا فيها قصر برقع الذي بناه الحارث بن جبلة في البرية وحطموا شرفاته

وكان عمرو بن الحارث قد بنى بعض القصور الشامخة في دمشق ونواحيها فلما توغل عرب الحيرة في الشام لم يمتنعوا عن احراق هـذه القصور التي كانت مفخرة خالدة للعصر الغساني ولم يتورع الغساسنة عن مجاراة عرب الحيرة في اضرام النـــار في قصور الحيرة التي بناها المنذر بن امريء القيس اللخمي فجعلوا عاليها سافلها واتلفوا زروعها وكرماتها وجناتها .

وبينما كان العرب المتنصرة في الشام والعراق يتبارون في التقتيل والتذبيح اذا عرب الجاهلية الذين صدفوا عن النصرانية واليهودية يسبحون في وثنية جافة قاسية فكانوا يئدون البنات في غير شفقة ولا رحمة وكانت مذاهبهـــم مختلفـة في الوأد، وطريقة الوأد ان الرجل منهم كان اذا ولدت له بنت فاراد ان يستحيها البسها جبة من صوف او شعر ترعى له الغنم والأبل في البادية وان اراد قتلها حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليهـا التراب حتى تستوي البئر بالارض وكانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة فاذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة واذا ولدت ولداً حبسته.

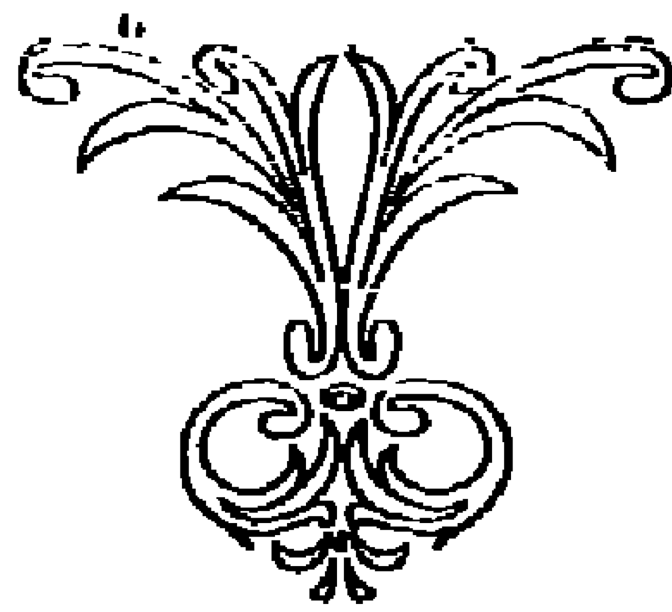
ومن عاداتهم انهم كانوا يدخلون عشرة على امرأة ، وذلك انما يكون عن رضى منها وتواطؤ بينهم وبينها ، فاذا حملت ومرت ليال بعد ان تضع حملها ارسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم ان يمتنع حتى يجتمع عندها فتقول لهم « قد عرفتم الذي كان من امركم وقد ولدت فهو ابنك يافلان تسمي من احبت باسمه فيلحق به ولدها » .

هذه هي حالة عرب الجزيرة في اواخر القرن السادس لم يكن لهم دين يزهدهم في هذه التقاليد المستقبحة او فكرة معينة تردعهم عن الاسراف في التقتيل والتذبيح والأحراق ، بل لم يكن لهم غرض سام يحفزهم الى الأعمار والأنشاء في هذه الأرض الغنية بجناتها وزخرفها ومعادنها فكانوا يوغلون في الأجرام بينما كانت الشعوب القوية التي ورثت عن قديمها السلائق الطيبة والشرائع المهذبة تكتسح في جـــوارهم تلك الارض التي تخرج نباتا طيبا حسنا .

تنبت الفكرة النبيلة في الأرض التي شهدت الوف المآسي والوف الفجائع ثم تستحيل الى عقيدة ثابتة توثقها تلك الأحزان والأشجان التي تخلق الأمة وتخلق معها حريتها وعظمتها واثرها في الأنشاء والابتكار فلا تلبث هذه العقيدة وقد استساغتها الأمة وارتضتها في جملة تقاليدها ان تغدو ديانة مقدسة تجد فيها عزاءها ورجاءها .

وولدت النصرانية في ارض مترعة بالمآسي وكانت يوم مولدها فكرة ضعيفة واهنة فوثقتها الأحزان والأشجان ، ثم استحالت الى ديانة منشئة مبتكرة تعاف هذا الورع الجاف الذي يحملها على الاكتفاء بوطن ضيق الحدود لا يتسع امام شهدائها وحماتها ثم هي امتدت ، وامتدت كثيرا حتي بلغت في زحفها المجيد الفجاج البعيدة والشواطيء والخلجان والمدن العامرة فلم تعد تستسيغ غير القباب الشوامخ والقصور المنيفة في الجنات الزاهرة عن كثب من الامواه الهادرة ! .

فهل ينبثق من ظلمة هذا الغسق القاتم الذي يغطي آفاق بلاد العرب فجر بديع يحمل الى هذه البلاد التي تعبت من كبرياء الجاهلية فكرة منشئة مبدعة تستحيل الى ديانة موثقة تعاف هذا الاعتزال الذي عافته النصرانية حين اتسق بنيانها ؟



الفصل التاسع

دروع امريء القيس

استأنف الفرسان الثلاثة سيرهم في اسواق دمشق تحت اشعة الكواكب ؛ وابو سفيان في الطليعة والى جانبيه حسان بن ثابت وامية بن ابي الصلت ، وكانت الأحاديث بينهم طلية عذبة تناولت ما غبر من حياة الفرسان في الحب والفروسية والأسفار ، وقد نسي الجميع احاديث بحيرا وطرحوها ولم تعد ذكرياتهم التي تطفح بالروعة تخالج خواطرهم واذهانهم لأنهم وجدوا في دمشق افقا جديداً فتح امامهم عالما جديداً يموج بالانسة والفرحة ولعل امية بن ابي الصلت كان اشد رفيقيه استئناسا الى هذا الأفق الجديد فقد لألأ الفرح في وجهه وطفق يلقي على حسان كثيراً من الاسئلة عن سياحاته واسفاره في العراق والشام وحسان يجيبه ويصف اسفاره وصفا بارعا بليغاً ،فالتفت ابو سفيان الى الشاعر وسأله قائلا :

— اي البلدين احب الى نفسك ، العراق ام الشام ؟

فاجاب حسان :

— ما كان في قدرتي ان أوثر العراق على الشام ، او أوثر الشام على العراق فهنا قومي وفيهم كل دمي ، وهنالك قومي وفيهم كل دمي على انني اذا كنت احب هذا الشرف العالي الذي تسطع بروقه في وجوه الغسانيين فاني ايضا احب في اللخميين تلك الحمية التي تعصف بنفوسهم وتحدوهم الى وصل الأرحام والى العطف على الاسرة العربية والحدب عليها فالملوك المناذرة ابطال معامع لاتثار الا لاستبقاء هذه الأواصر التي تربط بعض الأسرة العربية الى بعض ؟

واذا كان يطربني في ملوك غسان اغراقهم في الحدب علي وتماديهم في ايثاري على شعراء البادية فان الذي يطربني في ملوك العراق انهم يفتحون قصورهم للوافدين

من بادية العرب ، فلا ينزل عليهم شاعر الا تهافتوا على ايثاره وتبجيله والا حبوه فوق هذا الذي يستحقه شعره وقريضه ، وانهم ليفعلون ذلك من غير ان يسألوا الرجل عن لونه وصباغه، ومن غير ان يسألوه عن قبيلته واسرته .

في ذات عشية وفدت على النعمان بن المنذر ، فلقيت رجلا ببعض الطريق فقال لي : اين تريد ؟ قلت : هذا الملك ؛ قال : فانك اذا جئته متروك شهراً ثم تترك شهراً آخر ، ثم عسى ان يأذن لك ؛ فان انت خلوت به واعجبته فانت مصيب منه خيرا وان رأيت ابا امامه النابغة فاظعن فانه لاشيء لك عنده ؛ فقدمت عليه ففعل بي ماقال ثم خلوت به واصبت مالا كثيراً ونادمته، فبينا انا معه اذا رجل يرتجز حول القبه ويقول

انائم ام سامع ذو القبـــه الواهب النوق الهجان الصلبه
ضرابة بالمشفر الأذبـــه ذات نجاء في يديها جلبه
في لاحب كأنه الأطبـه

فقال النعمان ابو امامه ائذنوا له فدخل فحياه وشرب معه ووردت النعم السود ولم يكن لاحد من العرب بعير اسود غيره ولا يفتحل احد فحلا اســـود الاه ؛ فاستأذنه النابغة في الانشاد فأذن له فانشده قصيدته التي يقول فيها :

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فامر له بمائة ناقة من الابل السود برعاتها فما حسدت احدا قط حسـدي له في شعره وجزيل عطائه ، فصاح ابو سفيان :

ـــ لقد ورث النعمان هذا الكرم عن كسرى .

ـــ ماذا ايكون لأعجمي مثل هذا الفضل على عربي ؟ .

قال ابو سفيـــان :

ـــ اسمع ولا تستعجل ، اهديت الى كسرى خيلا وادماً فقبل الخيل ورد الأدم وادخلت عليه فألقى الي مخدة كانت عنده فقلت واجوعاه اهـــذه حظي من كسرى ابن هرمز ؟ فخرجت من عنده فما امر على احد من حشمه الا اعظمها حتى دفعتها

الى خازن له فاخذها واعطاني ثمانمائةاناء من فضة وذهب وعلمت بعد ذلك ان وظيفة المخدة كانت الفاً الا ان الخازن اقتطع منها مائتين !

والتفت ابو سفيان الى حسان فاذا هو قد اغرق في الضحك فقال له :

ــ ما الذي اضحكك ؟

فقال حسان ! اتعلم ان حديثك لم يزهدني في النعمان ، بل حببه الي ! فوالله ما رأيت فضيلة في ملوك الفرس والروم الا عدت الى مصدرها ومنبعها فوجدتها بعض هذا الذي يبدو في شمم الغساسنة وعنفوان المناذرة !

فالتفت ابو سفيان الى امية بن ابي الصلت الذي جعل ينصت الىهذهالأحاديث من غير ان يشترك فيها وسأله قائلا :

ــ الديك ما تقصه عن اسفارك ؟ ولكن احترس ان تقص علينا شيئاً عن حياة الرهبان واقاصيصهم ، فانها ورب الكعبة مملة وباعثة الى يأس شديد ! فظل امية صامتا فاردف السيد الاموي ! الا تلذ الكلام على اسفارك ؟

فقال امية ملتاعاً :

ناشدتك الله الا تعرض لذكر اسفاري . . .

ــ اذن فانت لن تحدثنا عنها بعد هذا اليوم ؟

وكان الفرسانالثلاثة قد اقتربوا من شاطيء بردى فاظلتهم بواسق الحور واراق القمر كثيراً من الوانه الزاهية على الشجر والماء فترسلوا في السير ، واخذوا ينظرون الى بهاء المساء وقد اوطف في كل ناحيةوانهم لـكذلك اذا صوت استغاثة يخرق اسماعهم فتمايدوا من ذعر ، وارعدوا من خوف ومضوا الى ناحية الصوت ، مسلفين اليه الآذان فروعتهم فيه نغمة حزن عميق فصاح حسان :

ــ صوت امرأة ؟ . . .

فقال امية . .

ــ نعم صوت امرأة عربية طاح بها الغم واليأس فأخذت ترسل آهاتها الى قلب الليل

فقال ابو سفيان !

ياللذل ! ياللعار ! امرأة عربية تبكي مثل هذا البكاء وليس في البلد من يهدهد حزنهـا والمهـا ؟

وظل الصوت مرتفعاً على اجنحة المساء حتى ملأ الفضاء المغدر وقد تخلله كلام شديد على سامعيه !

ياللعار ! ياللعار ! اورومي ينال مني، وجزيرة العرب نائمة ساكنة متلفعة بالرمال؟

واختلط نشيج هذا الصوت الراعش بعزيف الماء الهادر ، وراح الشجر متمايداً على شاطيء النهر واحتوت المشاهد جونة عابسة فما عاد الفرسان يسمعون غير صليل الورق ،وصدى تكسر الماء على ضفاف النهر فثارت مشاعرهم وطغت حماستهم فصاحوا:

— لبيك ! لبيك .

وفي خفة الوميض امتشق الفرسان سيوفهم ، فاذا لها بريق في تلك الجونة الجاهمة، ثم طلع القمر فلاح للفرسان على ضوئه قصر التفت به الأعناب والظلال وقامت على جنباته غابة صغيرة من شجر الجوز فنازعتهم حماستهم اليه ، وودوا لو انهم يتسلقون جدره وشرفاته لولا انه قائم على الضفة الثانية من النهر حيث ينبعث ذلك النشيج الأليم ، فقال حسان :

— لنعبر النهر الى الضفة الثانية فان الصوت يتفجر من نواحي القصر .

فقال ابو سفيان :

— لمن هذا القصر الرفيع الذرى ؟

— لعله من قصور الروم ! فانبرى امية قائلا :

— بل هو لآل جفنه ملوك الشام .

فاجفل ابو سفيان واردف :

— ياللأمل الخائب !

فقال اميه :

ـــ اراهن على ان آل جفنة ابرياء من تعذيب الشاكية الباكية ! واردف حسان :

ـــ لقد نزهت حياتهم عن الخبائث فما اساؤا الى امرأة .

فقال ابو سفيان :

ـــ لقد تطاغى انين التاعسة فماذا نفعل ؟

قال حسان !

ـــ لنخترق الماء .

وتضاعف النشيج فخلعت نبراته الشجية نفوس الفرسان فدفعوا بأفراسهم الى الماء وعبروا النهر . . .

انصاحت غيوم الليل وبرز القمر في الأفق تلتف به حاشيـــة من الكواكب وانكشفت المخاضر امام الفرسان فأوغلوا فيها، واخذوا يفتشون عن تلك الشاكية الباكية بين الأدواح والأفنان فما ابصروا لها خيالا فانقلبوا الى منابت الجوز ومضوا متوغلين في كثيفه وامية بن ابي الصلت في الطليعة !

وفي تلك الأثناء لاح لأمية خيال متلفع بثوب غاتم اللون وقد راح مستنداً الى شجرة من شجر الجوز فترجل عن فرسه ونهد الى ناحيته فاذا هو خيـــال فتاة في سن سبع عشرة سنة ، فتفرس في جبينها وراحت يده تمس يدها المقرورة البـــاردة واخذت عيناه تنظران الى عينيها الغائمتين فوقع على احزان نفسهـــا الشديدة فارتد الى صاحبيه صارخاً :

ـــ يااللالم الممض ! يااللالم الممض !

ثم عاد الى صوب الفتاة فلحق به صاحباه وطفق الثلاثة يتقصون ملابسهـــا الغاتمة بالنظر، ويتفحصون وجهها الرائع الحسن وقد صوحه الحزن واذبله الهم .

لقد تحدث الثلاثة اليها فما نبست ، وظلت عيناها اللتان فتحهما الرعب تنظران الى الفضاء الافيح كأن طيفاً مزعجاً قد لاح لها من بعيد فارادها على هذه الوقفة الذاهلة فقال ابو سفيان :

ـــ اهي وحدها هنا ؟ قال امية :

ـــ نعم ويخيل الي ان خيالات الشجر في هذا الليل الغاسق قد اخافتها فاحتبس منطقها ! . . .

ـــ اذن فأنت تعتقد انها كانت تهذي ؟ . .

وتحركت الفتاة فتحركت عيناها الذاهلتان الى ناحية الفرسان ، وجعلت تتفرس في حدجات عيونهم ، وفي ملابسهم، ثم اخذت تعي اصواتهم حتى اطمأنت نفسها الى وجوههم فهمست قائلة :

ـــ من انتم ؟

فصاحوا :

ـــ من بني ابيك !

فغشيت وجهها نشوة فرح اكيد، وانثنت تتأمل في ارديتهم ووجوههم فما شكت في انهم اصدقاء توافوا الى نصرتها من مكان قريب فقالت لهم :

ـــ من انتم ؟

فقال حسان ـــ سكني روعك فانك في حمى ابي سفيان بن حرب سيد آل عبد شمس ! اما انا فاسمي حسان بن ثابت من يثرب ، وهذا الذي كان اشدنا اسراعا في اللحاق بك هو امية بن ابي الصلت من اسياد ثقيف ! .

فتهلل وجهها واشرق وعافت مكانها على الشجرة وقالت .

ـــ اذن فما عدت تحت رحمة ذلك العلج هيباس ؟

فصاح الثلاثة :

ـــ ومن هو هيباس الذي تذكرين ؟

قالت :

ـــ هو قائد الرومان في هذا البلد ؟

ـــ يا للرجل النذل . . .

ــ نعم لقد كان نذلا في نزوله علي وانا اهم بخفق باب هذا القصر .

ــ واين هو هياس الذي اخافتك صورته الى هذا الحد ؟

ــ احدق بي فرسانه من كل ناحية ، اما هو فقد اخذني بين ذراعيه ، يريدني على سوء ، فصحت وافرطت في الصياح لعلني اسمع صوتي من في القصر ، فضاع كلامي في هدير الماء ، وغمرتني موجة يأس شديد ، وخيل الي ان قائد الرومان بالغ مني سؤله ، فأوغلت في الصياح ، حتى حمل الي هذا الهواء الرطب صدى اصوات بعيدة فردت الي سكينتي ، ولكني بقيت على صياحي وبقي الهواء يردد تلك الاصوات البعيده التي خرقت اذني حلوة سائغة ولما غصت الغابة بالأصداء خيل الي ان يدي هياس املستا من يدي ، فنظرت الى الرجل فاذا وجهه قد ارتد مسفوعاً شاحباً ثم تركني هائماً على وجهه فلحق به فرسانه وهم لا يرون طريقهم من فرط الجزع ، اجل ايها السادة فر هياس النذل من غير ان يمسني !

فقال لها ابو سفيان :

ــ من انت ايتها المرأة التي اثار شجوها شجوي ؟

فصمتت ولم تنبس فسألها حسان .

ــ من اين اتيت ؟

فحدجت الفتاة الفرسان الثلاثة بنظرات صامتة تنم عن اسى بليغ ولكنها بقيت على صمتها وسكونها فقال حسان :

ــ لماذا لا تحسرين عن اسمك امام هذا القرشي النبيل ؟

وقال امية :

ــ تكلمي ! لعلك غسانية ؟

فهمست قائلة :

ــ كلا .

ــ اقرشية انت ؟

ــ كلا ؟

ــ اتكونين من بنات بكر بن وائل ؟

ــ كلا !

ــ افي تغلب وربيعة قومك وعشيرتك ؟ فصاحت بلهجة متحمسة :

ــ كلا ! انما انا من كندة ايها السادة !

فصاح ابو سفيان :

ــ لك الله ما اشد زهوك ، ولكن كندة فروع كثيرة ، فمن ابها انت ؟

قالت : اتعرف هذا الشعر ؟

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الارمد

ــ هذا الشعر الذي تغنين هو لأمرىء القيس بن حجر ملك كندة وصاحب قيصر ، فهل كان ابوك في حاشية هذا الملك ؟

ــ انظر الى وجهي ياسيدي فهل ترى عليه طلعة امرأة تسللت من رجل يمت الى حاشية الملك او الى بعض حرسه ؟ ! . . .

ــ اكان ابوك صديقاً من اصدقاء الملك ؟

ــ كلا !

ــ لعله اذن احد قواده ؟ . . .

ــ لا هذا ولا ذاك ! . .

فضحك ابو سفيان واردف :

ــ اخاف كثيراً ان تزعمي ان امرأ القيس كان زوجاً للمرأة التي ولدتك !

فصاحت الفتاة :

ــ انه ابي ايها السادة !

فضحك الفرسان الثلاثة وقال امية هازلا :

ــ أليس في قصة هذه المسكينة ما يضحك ؟ لقد بت اشك في صدق احاديثها عن هياس وفرسانه ! قالت الفتاة :

ــ اتضحك ياسيدي علي ، وثوب حدادي لم يخلع بعد ؟

خشي اميه ان تبعث لهجته الهازلةفيروع الفتاة بعض الشك فتكلف الجد وقال لها:

ليس في الأمر مزاح ولكني اردت ان اعلم اي صلة لك بهذا الشاعر الذي لم يترك في بادية العرب على رحبها وامتداد اطرافها قبراً يحج اليه الناس كما يحجون الى الكعبة ! . . . ولعلك لا تستغربين ان يبدر منا هذا الذهول ونحن من الذين عرفوا شعر الملك الذي خلف في نفوسنا الوالهة بعض الذكر برغم اختلاف الليالي وتعاقب السنوات ، وبرغم هذا الفضاء الخفي الذي يحجب شمس الأموات عن الأحياء.

فقالت الفتاة وقد لجت في تأثرها وانفعالها :

ــ ولكن في نظراتكم اشياء لا استطيع ان افسرها بغير العبث ! . . . فسألها ابو سفيان قائلا :

ــ اين عشت بعد موت الملك ؟ قالت :

تركني ابي تحت حماية ابن عمه يزيد بن الحارث بن معاوية فعشت بالقرب منه في بصرى عن كثب من قصور الغساسنة .

ــ اتهزلين ؟

فاحمر وجهها وسكتت فسألها اميه قائلا :

ــ وكيف تدلين على صدق هذا النسب ؟

ــ اتريدون دليلا ؟

فصاح الفرسان الثلاثة:

ــ نعم نعم نريد دليلا ، ودليلا ناصعاً ! . . .

ــ هذا هو ملك الشام في قصره ببصرى فأنطلقوا اليه واسألوه عن مولدي وبعثي

فقال الجميع : يكفي هذا الذي تقولين . . . وسألها حسان قائلا :

ـــ لماذا اتيت الى دمشق ؟

ـــ حملتني اليها ذكريات قديمة ولكنها ذكريات شجية تقض المضاجع .

لما اراد امرؤ القيس بعد قتل ابيه الخروج الى قيصر استودع السموأل بن عادياء الغساني دروعاً واسلحة، فلما مات امرؤ القيس غزاه الحارث بن ظالم، فتحرز منه السموأل، فاخذ الحارث ابناً له وكان خارجاً من الحصن فصاح الحارث بالسموأل فأشرف عليه فقال «هذا ابنك في يدي وقد علمت ان امرأ القيس ابن عمي وانا احق بميراثه منك فان دفعت الي الدروع والا ذبحت ابنك » قال اجلني فاجله ؛ فجمع اهل بيته ونساءه فشاورهم فكل اشار عليه ان يدفع الدروع ويستنقذ ابنه فلما اصبح اشرف عليه فقال له : ليس الى دفع الدروع سبيل فاصنع ما انت صانع ، فذبح الحارث ابنه وهو مشرف ينظر اليه من الحصن ثم انصرف بالخيبة فوافى السموأل بالدروع الموسم فدفعها الى ورثة امريء القيس فتنازعوا وفزعوا الى الحارث ابن جبله الغساني ، فحبس الملك الدروع عنده ثم مات الملك الحارث فبقيت الدروع عند ابنه المنذر وامتنع ورثة امريء القيس عن المطالبة بذلك الأرث الذي جشمهم كثيراً من العناء .

تعاقبت السنوات والليالي ونسي الناس حكاية هذه الدروع حتى دعاني يزيد ابن الحارث بن معاويه اليه وهو على فراش الموت ؛ ونحن يومئذ في بصرى ، نعيش في ظل الغساسنة فقص علي حكاية الدروع واورادني وريثة لهذا الأرث الضخم الذي تركه ابي فجئت قصر الملك في بصرى فاذكرته قصة الدروع فحسر لي عن جزعه واسفه وقال لي : لقد حمل ابي هذه الدروع الى ملك الروم ، فلم يعد ثمة سبيل الى انتزاعها منه ، سمعت هذا منه فشجيت نفسي ورأيتني حيال واجب لامفر من قضائه :

وهنا تلظى حماسها وسطعت عيناها ببروق غريبة فقالت :

« اليس غريباً ان يضع الروم ايديهم على هذا الأرث المجيد وهذه قصورهم

ومعابدهم وصروحهم المشيدة تغص بالشيء الكثير من بهاء النصر ورواء الفتح !.

ليت شعري اي قيمة لهذه الدروع النائمة في زوايا قصورهم بجانب تلك النفائس الغالية التي حملوها الى القسطنطينية من اراضي العراق واراضي الشام ؟

لقد وقر في عزمي ان اتحدث الى الروم بشأن دروع ابي فهبطت دمشق وحاولت ان اجتمع الى عمرو بن الحارث صديق قيصر .

فصاح الفرسان الثلاثة :

ـ ولكن عملك جريء ...

ـ نعم انه عمل جريء فأن فتاة ضعيفة مثلي ما كان يظن احد ان حلمها الضئيل يحملها على طرق ابواب القصور ومع هذا كله عدت الى نفسي فرأيتني متصلة بذلك الغابر الذي يوثق مابين الأحياء والأموات ، ولمست في نفسي حافزاً يحفزني الى الاستبسال ، فهبطت دمشق في ليلة ساجية مطمئنة كان القمر فيها اكثر ما يكون بهاء واشراقاً ، وفزعت الى عملي وقد احتواني سكون الغسق ، واشتمل على صمته الرائع وكنت لا اعاف الالتجاء الى الناس لأسألهم عن الطريق المؤدية الى قصر البريص الذي اعتاد ملوك غسان ان يفزعوا الى افيائه في فصل الصيف القائظ ، فدلني الناس على القصر فمشيت اليه وانا مطمئنة الى عطف الغساسنة وحدبهم، وجعلت امشي في طريق تغص بأشجار ذات افياء وافنان ونهر بردى يلوح مختلماً ثائراً، لقد فكرت في عبوره لعلني اقترب من قصر « البريص » الجاثم على شاطئه فعبرته غير حافلة بثبجه المتدافع ، ولا مكترثة لموجه الدافق حتى بلغت الضفة ، وحتى لمحت ذلك القصر الغارق في بهاء الطبيعة وسكونها .

وخيل الي وانا في غرق عميق تدفعني اليه تأملاتي الحائرة المشتتة في هذه الظلمة الراعبة ان الفضاء يزخر بأصوات مبهمة تتغاير الى سمعي ممزوجة بهدير المياه ووسوستها فغشيني الخوف وغمرني بعض الذهول فكدت اقفل راجعة ولكن ذلك النور الضئيل الذي تفجر من شرفات القصر في تلك الأثناء حمل الي بعض

السكون ، ثم مالبثت تلك الأصوات المبهمة التي تغايرت الى اذني ممزوجة بهدير الماء والتي حسبتها لأول وهلة صدى حفيف الورق الذابل ان حالت الى اصوات منكرة ما شككت في انهـا اصوات قطاع الطريق الذين اعتادوا الألتحاف بالغسق في خلال عكوفهم على اجتراح الأجرام البشعة .

فلم يذهب هذا الحادث المباغت بروعي ، ولم ينزع من نفسي سكونها وجلدها فانثنيت الى باب القصر وجعلت اخفقه في كثير من العنف لعل الذين اشتملت عليهم جدره وردهاته يتبارون في نصرتي .

وكان الليل يجيش بالتعتيم والطبيعة المتوردة الزاهية قريرة وادعـة والطريق عاطلة من روادها فثابرت على قرع الباب في غير جداء وقد خيل الي ان القصر خلي من ذويه او ان هؤلآء غرقى احلام ، وصرعى اوهام ، لايسمعون ركزاً ، ولا يحسون امراً ، وهنا سكنت حركة هـذا الدم الذي يجيش في اعمـاق نفسي وتملكني خوف واي خوف ! فاغمضت عيني حتى لا ارى الأفق والماء والعشب والكلأ ، وغام بصري بدمع كنت حبسته للوهلة الأولى ، ثم مضت دقائق ومضت دقائق اخرى ففتحت عيني فاذا انا في حرجة صغيرة يلتف بهـا بعض الفرسان وقد اخذ احدهم بذراعي وطفق يدنيني اليه صائحاً :

ــ الى اين تفرين ؟ انت لي في هذه الليلة ؛ . . .

فوارى ابو سفيان عينيه بكفه استحياء وصاح :

ــ ياله من جريء . . ياله من نذل . .

ــ نعم ياله جريئاً فلقد اراد الي ان اصحبه فأبيت ، وافرطت في الصياح فقال لي: « ايه ايتها البدوية الناعمة الملساء ! فيم هذا الخوف الذي يتدافع في نفسك وانت في ذراعي اجمل فتيان الروم »

فصاح الفرسان الثلاثة . . .

ــ الم يكن معك سلاح تصوبينه الى صدره ؟

ـــ كان سلاحي الوحيد اباثي وشممي ، . . .

وطفق الرومي يغدق علي كثيراً من الفاظ الحب ممزوجة بلهب نفسه وقد اراد اكثر من مرة ان يقبلني فعصيت فجعل يقول لي :

« لماذا تنأين عني ؟ الا تدرين انك قد وقعت على هيباس فارس الروم وبطلهم الحلاحل » فصحت به « لن تنال مني وورائي عصبة كريمة من قومي » فانثنى يضحك فبكيت وكنت ابداً شاخصة الى هذا القصر الذي شهد وحده هذه المأساة المؤثرة وقد غاب لحامي في كظة التيار ولما رأيت العلج يسرف في بغيه صحت :

ـــ اين انتم ياملوك غسان ! اين انتم ؟

وددت لو ان رخام هذا القصر يتحول الى قلوب تشعر وعيون تبصر ولكن القصر بقي حجارة صماء في بقعة خرساء .

وبالغت في الاستغاثة حتى حمل الي هذا الهواء السائغ صدى اصواتكم فردت الي رباطة جأشي؛ ورحت اضرب ذلك العلج هيباس على جبينه وهو بعد لم يخجل ولم يتورع ، ثم صحت :

« اليس في البلد من يغار على الكرامة » . .

فاذا اصواتكم تعصف وتقترب ، فأجفل الرومي وصحبه ، فما عادوا يدركون شيئاً من الأمر ، ثم اذا هم يعودون الى افراسهم وقد خاضوا بها الماء وتواروا في صميم الغاب فاحتوتهم ادواحه المرسلة ، وبعد قليل فتحت عيني فرأيتني بين ذراعي هذا الفارس المجيد ، واشارت الى امية :

هذه هي قصتي ايها الشرفاء ما كان لي ان ابالغ في وصفها وهذا الشجن الذي يغمر نفسي صورة صحيحة لها . .

فقال لها ابو سفيان :

ـــ ستكونين في كنفي ما اقمت في هذا البلد ، قولي لي هل نسيت حكاية الدروع؟

ـــ كلا كلا ، فلقد نذرت ان اطالب بها حتى اظفر بها ، فاذا لم يقدر لي الفوز

في استردادها نزعت الى استثارة هذه الحية المتوارية في رمال الصحراء حتى تتحول رمالها المشبوبة الى فرسان يغضبون لكرامتي !

— ولكنك تقدمين على عمل قد يعرض سادات العرب لمكاره واسوآء لأن الروم اشداء حذقوا الحرب وخبروا صروفها .

فقالت الفتاة :

— لقد انستك المدينة الخضراء تلك الصحراء الجرداء ونبا بك هذا النعيم الوارف الظل عن الأصغاء الى صوت الحق فما عدت ترى في بادية العرب ابطالا وفرساناً واصبح الروم في نظرك ذوي خطر ؟

اين هؤلآء العلوج الذين اسميتهم فرساناً من فرسان قومي ؟! ان لي في هذه البادية ابناء عم سأستجيشهم واستفزهم حتى تتحول البادية الى شواظ عاصف وحتى تنقلب بيوتهم ومساكنهم وقصورهم الى جيش متنقل تغطي راياته هذا الأفق .

وضاعف حماسها في روعة جمالها فجعل الفرسان الثلاثة يحدقون اليها وقد استهواهم اسرافها في وصف فرسان البادية، وكان ابو سفيان يحس لذة في حديثها الذي خلت نبراته من الرياء والملق فقال لها :

— ما اردت في حديثي ان ارفع من شأن المدينة الخضراء وانا لم انس بعد هذه البادية التي ولدت فيها بين الفرسان المساعير ! ان للبادية في نفس ابي سفيان مثل هذه الحرمة التي يحسها حيال البيت الحرام . . . ولكني ضنين بالدماء ان تسفح لا اقل ولا اكثر .

— اذكر ايها السيد اننا نعيش في زمن الشعراء والفرسان ! بل اذكر هذا الذي يقوله العرافون في كل مكان عن بعث نبي في العرب يرث الروم والفرس في بلادهم وامصارهم . .

فبهت الفرسان الثلاثة من حديثها واستوى ابو سفيان على فرسه ضاحكاً .

— ويحك من لقنك هذه الأحاديث ؟

ــ انطلق الى سطيح الكاهن واسأله عن هذا النبي ...

نعم انطلقوا ايها السادة الى سطيح واصغوا الى حديثه العــذب عن ذلك النبي الذى سينتصف للعرب من الروم والفرس .

فصاح الثلاثة :

ــ سطيح ! سطيح !

ــ لا بأس ان تمضوا الى مثواه في نجران ، بل لابأس ان تسألوه الشيء الكثير عن هذا النبي الذي اصبح ذكره يجري على الأفواه في صحراء العرب ! . .

فقال ابو سفيان .

ــ لقد حدثنا الراهب بحيرا عنه

فامتقع وجه امية بن ابي الصلت ودب الرعب الى روحه وراح يذكر تلك الأحاديث الكثيرة التي خرقت سمعه في البلقاء ونجران وبصرى ولكنه ظل صامتاً كالتمثال ، وللمرة الأولى احس ابو سفيان في نفسه بعض الأظلام وبعض الخوف ولكنه لم يدر باعث هــذا الخوف الذي حبس لسانه فراح يفكر وبعد قليل التفت الى الفتاة وقال لها :

ــ اتودين البقاء في دمشق ؟

ــ لن ابرحها حتى ابلغ الفوز ،فاذا عسر علي ان ارجع الى البادية بدروع امرىء القيس فاني انطلق الى الحيرة لاستنفر ملكها الى نجدتي .

ــ ولكن عملك هذا قد يسيء الى الغساسنة وانت تعلمين ان ملوك العراق اعداء لملوك الشام .

فعلقت بالصمت خلال لحظات ثم اردفت :

ــاذ كرايها السيدان عصرنا هذا هو عصر الشعراء والفرسان،بل اذ كرانه عصر الأنبياء

فصاح الفرسان الثلاثة :

ــ الى اين معادك في هذه الليلة ؟

— لا ادري !

— سنبيع تجارتنا غدا في الأسواق فهل يسرك ان تنطلقي معنا الى بصرى .

— نعم ولكني لا استمريء رجوعاً الى بصرى قبل غسل الأهانة التي لحقت بي في هذه الليلة !...

— وكيف ذلك ؟

— سأعوذ بقيصر فلعله ينصفني من هيباس فاني لجأت الى فتى العرب في هذا الزمن.

— من هو هذا الفتى الذي تتحدثين عنه ؟

— هانيء بن مسعود ! .

فصاح حسان :

— سيد بني شيبان ؟

— نعم فهل تعرفه ايها السيد ؟

— أليس هو اشجع العرب ؟

— نعم .

— ولكن الرمال تحول بينك وبينه ؟

— لن تستعصي هذه الرمال على الخيل الطائرة .

فلم ينبس الفرسان ، وفي تلك الفينة التفت حسان الى ناحية القصر ، فالفى نوراً جديداً يشع من شرفاته فهتف قائلا :

— اراهن على ان القصر معمور بسكانه .

وجعل الفرسان الثلاثة والفتاة بينهم يحدقون الى نوافذ القصر فاذا هم يلمحون شبحاً على الشرفة وقد اخذ الشبح ينظر الى الفضاء البعيد فقال حسان :

— لنتقدم من القصر ولنخفق بابه فلعل الحظ لايخوننا في هذه المرة!

وانطلقت الفتاة تعدو الى ناحية القصر واخذت تخفق بابه بشدة ووقف الفرسان عن كثب منها يحمون الطريق ...

الفصل العاشر

الحب في الليل

قلت لك يامارية في الهزيع الأول من هذا الليل الساجي ان الحب نشوان لايستفيق ، فهلا مررت به حالماً فليس احب الى نفسي من هذا الغرق الذي تضيع فيه تأملاتي وهواجسي ، ولكنك ابيت الا ان يستفيق الحب من نشوته على وسوسة هذه القبل المعطرة التي تطبعينها على جبين هذا الطفل ! . .

لقد كانت عواطفي نائمة في اعماق نفسي ، فلما تساقطت قبلاتك على جبيني استيقظت عواطفي فهي لن تستسيغ الهجوع مرة اخرى ! . .

— زدني من هذه الكلمات فان سحرها يمشي بي الى عالم يمور بالصور البديعة المونقة .

— ليست ليالي دمشق ايتها الحبيبة اقل بهاء من ليالي القسطنطينية ،وحبنا الطفل الذي ولد على ضفاف البوسفور سيجد غذاءه في ضفاف بردى الوادع المطمئن ، وسيعيش في هذه الخمائل النضرة كما عاش في تلك الخمائل الزاهرة التي يظللها افق بيزنطية المصحي . . . افلا ترين الى بردى وهو يضحك على شاطئيه تحت رطوبة الليل الحلوة ، انك لن تسمعي ياحبيبتي الغالية في هذا الجو جرساً يعكر صفو هذا النهر الذي يجري في غير مد وجزر ، ومهما طغى الماء وتدافع ، فانه لايلبث ان يفيء الى سكونه والزمن سواء اكان هادئا مفراحا ، ام كان عابساً متجهما لن يعطل سير هذا النهر .

ان هذه الخطوط البيضاء التي يرسمها الموج في تدافعه لاتزال كما كانت قبل عصور ، فليس سبيل الى محوها ، وكذلك هو حبنا سيبقى على روائه وطهارته لاتعبث بسكونه هذه الرياح الصاردة !

— دع الحب هذا الذي اسميته طفلا ينام في القبل المعطرة ، احترس ان توقظه فأنه يحلم ، نعم احترس ان توقظه فاني اخشى ان تفلت هذه القبلات التي تصبغ شفتيه بشتى الألوان .

جلس الفتى عمرو بن الحارث الغساني في هذه الليلة القمراء الى حبيبته مارية وبينما كان هيباس يطارد الفتاة هند في تلك الحوالي البعيدة عن العالم ، والفتاة تستغيث وتبالغ في الاستغاثة كان عمرو هذا الفتى الذي اصبح جماله مداراً للاحاديث يقص على حبيبته احاديث الهوى فلم يخرق سمعه ولا سمع مارية صوت هند .

طفق عمرو يتحدث الى حبيبته عن تلك الأيام الهائئة التي تصرمت بالقرب منها على شواطيء البوسفور في القسطنطينية ، ومارية ابداً مصغية الى كله وهي نشوى لاتعرف صحواً من سكر الحب ! وكانت تقول له من حين الى آخر :

— ليتك بقيت في القسطنطينية ؟ فان ليالي الحب على شواطيء البوسفور لهي احلى وامتع من لياليه هنا . . .

— لماذا لاتحبين دمشق ؟

لقد كان يطرح عليها هذا السؤال وهو ابداً شاخص اليها فتستحب الصمت فيقول لها :

— لقد اثر سكوتك في كثيراً حتى بت اخشى ان يكون مقامك في دمشق باعثا الى ضجرك وما احب ان يعلق الضجر بحياتك وهي لاتبرح غرساً طرياً يحتاج الى ندى الفرح ، وكان ينظر اليها من حين الى آخر فيشجيه ان تتحول تلك الابتسامة الحلوة التي لاتفارق شفتيها الى اظلام خفي فيسألها قائلا :

— لماذا توارت هذه الابتسامة العذبة ؟ ولماذا تحولت الى هذا القطوب الذي لا ادرك له مغزى ؟ فتظل عيناها السوداوان راكدتين ركود مياه الجداول فيضنيه هذا الركود ويشجيه فيقول لها :

— ناشدتك الله ان تحسري عن هذا الشجن الذي اطفأ وميض عينيك المقدس فلقد كان لعينيك عبث الأمواج ومرحها فاذا هما تجمدان .

فكانت تؤثر الصمت وتستحب الا تثير في نفس هذا الفتى الذي احبهـا فوق الحب ، وعبدها فوق العبادة عاصفة نائمة لاترى في اثارتها غنما ولا ربحاً ، وكان قد نثر على فراشها الذي اضطجعت عليه بالقرب منه كثيراً من الورد وكثيراً من الزنبق فتأرجت اعراف هذه الأزهار حتى ملأت نفسيهما فغابا في قرارة سكر عميق ؛ ثم اذا هما يسبحان في متع الأهواء البريئة فصاحت مارية :

ـ دع حبنا يحلم . . . نعم دعه يحلم فأني احب له ان يغرق في لذة الهواجس فلا يستفيق لأن في الاستفاقة ما يكدر ويشجي . . .

ـ لماذا لا تحسرين عن الملك ؟

ـ ستعلم كل شيء ياريحانة نفسي ! . .

افاء الله على ماريه الحسن كله وجعل جمالها الخالب فتنة لناظريه ، وحباها وهي بعد في الربيع السابع عشرروحا وخفة ونشاطاً وتوثبا ، ولكن حياةهذه الحسناء ظلت لغزاً من الألغاز فلم يعرف الناس عنها شيأ

وجل ما عرفه الناس عنها انها ربيبة قيصر ، وان صاحب القسطنطينية ارادها زوجاً لأحد امراء غسان !

عاشت مارية في قصر البريص عيشا لم يخالطه غير الحب ولكنها ظلت ابداً متبرمة بهذه العزلة التي فصلت بينها وبين وطنها القديم ، وفي اكثر الأحايين كانت مارية تتحدث الى عمرو عن وطنها الأول في كثير من الحماسة وكانت تسأله :

ـ لماذا لا نعيش معا في القسطنطينية التي قاسمتني الأعجاب بجمالهـا الساحر ؟

ثم تسكت فيقول لها :

ـ الا يروقك ان نمضي بعض العام في دمشق ، في هـذا القصر الذي حبسته على سعادتك وهنائك؟ وكانت تفضل الصمت ، وفي بعض الأحـايـين كـانت دموعها تسح وتهطل فتتلقاها يديها البضتين الناعمتين فيسألها عمرو :

ـ ما الذي يبكيك ؟ يخيل الي ان الم نفسك شديد ؟ فما هو هـذا الألم الذي

يخفيه صدرك ويذيعه دمعك ؟

وفي هذه الليلة برح بهما الحب فعاذا بناحية بعيدة عن الضوضاء وطفق عمرو يرتمي على صدرها وهي في سكر شديد،وغرق اشد وانهما لكذلك اذا هما يسمعان صوتاً يتفجر من ناحية النهر فتركا متع الحب البريئة وراحا الى الشرفة يحدقان الى الفضاء وكانت انوار القمر قد حسرت عن المخاضر والمشاهد فلاح مشهد الفرسان لعمرو فقال لمارية :

ـــ الا ترين الى هذه الأشباح التي يواريها الليل ؟

فقالت !

ـــ نعم نعم ؟ . . .

ـــ لماذا ترعشين ؟

ـــ اني خائفة :

ـــ لا تخافي فليس في هذا البلد من يقتحم مثوى عزلتنا الهادي . . واني لمطمئن الى ان هؤلاء الذين يمضون في خفق باب القصر ضيوف ضلوا طريقهم الى المدينة فأحبوا اللياذ بالقصر ! . . .

قال هذا وتحول عن الشرفه منتحياً ناحية جنة القصر فقالت له مارية :

ـــ اني خائفة ! . . .

ـــ لا تخافي .

وفي خفة البرق تهافت عمرو على ايقاظ الحرس فنهضوا ولحقوا به يحملون امامه المشاعل .

* * *

قال عمرو بن الحارث لضيوفه وهو ينظر الى وجوههم تارة ، والى ملابسهم تارة اخرى !

ـــ هذا هو قصر البريص فادخلوه على الرحب والسعة ايها السادة .

لقد نمت لهجته الوادعة المطمئنة عن طيب اعراقه وشرف اصله ، فما شك ابو سفيان في انه حيال سيد القصر فنظر الى رفيقيه نظرة نمت عن اطمئنانه الى محدثه ثم دخل الجميع حديقة القصر ، ولما ترجل الفرسان الثلاثة عن جيادهم اقترب عمرو من ابي سفيان فلاحت له في ملابسه الفاخرة وزينته الباهرة علامة الشرف والرياسة فسأله في كياسة ومداراة :

— من الضيف ؟

— ابو سفيان بن حرب !

— سيد بني امية؟ ونظر عمرو الى الفارسين كأنه يريد ان يسألهما عن اسميهما فصاح حسان:

— حسان بن ثابت .

— شاعرنا الفتى ؟ وقال امية !

— امية بن ابي الصلت .

فانبسطت اسارير وجهه واثنى قائلا :

— انها لليلة جليلة القدر ؛ موفورة الشرف يجتمع فيها هنا تحت قباب البريص الحسب والأدب والشمم ؛ ثم وقعت عينه على هند فوثق انها ابنة احد هــؤلاء الفرسان الثلاثة فادركت هند اي هاجس يدور في خلده فقطعت عليه تصوارته قائلة :

— هند بنت امريء القيس بن حجر . فصاح عمرو :

— كان امرؤ القيس احب الناس الى جدي الحارث بن جبله .

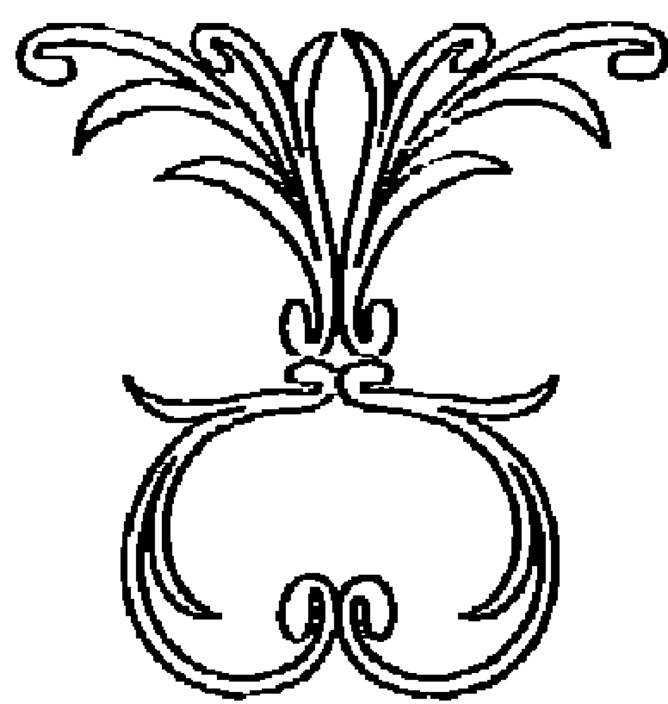
فصاح الجميع :

— اذن فانت . . ؟

— عمرو بن الحارث بن مارية ذات القرطين سيدة غسان ! ادخلوا ايها السادة الى قصر ابائي فأني اخاف ان تؤثر رطوبة الليل في نفوسكم التي امضها التعب ، ومشى امامهم فلحقوا به الى القصر ، ثم تركهم في قاعة الضيافة وعاد الى حجرته فاذا مارية تنتظره حائرة مشدوهة فقال لها :

— لم يكذبني ظني فان ضيوفنا في هذه الليلة يجمعون الى نضـــارة الأعراق نضاره الأخلاق ، انهم سادة العرب وكفى ! فاطمأنت نفسها وجعلت تنظر اليه في كثير من الحدب والحب فقال لها :

— حان لنا ان نفيء الى الراحة ياحبيبتي بعد هذا القلق الذي استولى علينا . . . لقد شربت كثيراً من رحيق الحب حتى ردتني كؤوسه المترعات مراحا طـائر اللب ، وحتى اصبحت في حاجة الى رقدة هانئة لا اصطحب معها ذكراً لغير الأحلام الطاروبة قال ذلك ثم مشى بها الى السرير والقمر يرسل انواره الى داخل الحجرة من خلال الشرفات ،فرقد الحبيبان واخذت الأشعة والظلال ترسم على وجهيهما خطوطاً ملونة تزيد في روعة هذه الأحلام التي حملت الى نفسيهما لذاذة الحب ؟



الفصل الحادي عشر

هيبـــاس

نام ضيوف القصر ليلتهم نوم الدعة والسكون وفي صباح اليوم التالي بكروا في النهوض وتفرقوا في حديقة القصر يستمتعون بالأريج والظـل والندى ، وكان ابو سفيان اشدهم استئناساً بهذه الخمائل الضاحكة المستبشرة التي حملت الى روحه عبق الأزهار المتنوعة الألوان ، وانتحى حسان في جنة القصر ناحيـة منفردة بينما اخذت هند تروح وتغدو حول السواقي الهادرة ، اما امية بن ابي الصلت فقد جعل يتامل في بهاء الطبيعة كأنما قد راقه سحرها واستهواه جلالها ، ثم طفق يذكر ذلك الأنشادالعذب الذياستمع اليهوهو فيبصرىواستعرض صلاة بحيرا الراهبوحديثه الشجي عن بعث نبي في جزيرة العرب ، ثم استعرض ذكرى طوافه بدير يوحنا في دمشق ولم ينس حديث هند عن سطيح ، ولما ملأت هذه الذكريات روحه المتوثب مضى يهمس قائلا :

— ليت حديث هند عن سطيح يكون كاذباً ! .

وحاول ان ينسى هذه الصور فما وجد الى ذلك سبيلا فقد ظلت كلها تزدحم في فكره وتتجمع حتى خيل اليه ان احساسه اخذ يرزح تحت وقرها فاوشك ان يقع على الأرض فتجلد وخشي ان يصبح ضعفه حديث الناس .

وكانت الشمس لم تنبعث من خدرها بعد فأخذ ينعم بمشهد الفجر الســـاجي وينصت الى غناء البلابل والى حفيف الورق ووسوسة المياه ، حتى انسجمت هذه الأصوات في اذنيه فنسي بعض تلك الهواجس التي غاص في لججها ! . .

وكانت هند في تلك الأثناء عاكفة على قطف بعض الأزهار ، فاجتمع لديهـــا من الرياحين اطار بديع حافل بالألوان الزاهية المتوردة فلما مرت بالقرب منـــه

مضى يحدق اليها فانثنت الى الخمائل تنتقل من واحدة الى اخرى كالفراشه كأنهـــا لا تريد لقاءه ففطن امية الى هاجسها وادرك انها تجفوه فرفع رأسه اليها وقال لها :

— اتحبين الزهر ؟

— ان كلفي بالورد الأحمر لشديد .

— اهذه الأزهار لك ؟

— كلا .

— اذن فأنت تجمعين الزهر لطيف تمثلين؟ .

فاحمر وجهها من الحياء وادركت اي هاجس يجيش في خاطره فقالت له :

— هذه الأزهار كلها لسطيح الكاهن . .

— السطيح ازهارك الندية ؟

— لعلك تستغرب ان اهتم بجمع الأزهار لهذا المخلوق الذي حرمته الطبيعة من منحها السخية ، فلم تخلقه على شاكلة البشر الذين ينعمون بالملاحة والشبـــاب والعافية والحب ، حقا ايها السيد ان الطبيعة لغريبة فانها تضن على كثيرين من مخلوقاتها بالشباب والجمال والحب ولكنها لا تمنعهم السرور والقناعة والعواطف الصادقة فان اكثر هؤلاء البؤساء الذين مسخت الطبيعة صورهم واورثتهم البشاعة يعيشون في الناس بقلوب تحس ، وعيون تسح ، فلا يعرض لهم في الحياة الكثيرة التكاليف ، مشهد بائس الا احاطوه بنشيج القلب وصرير النفس ، وسطيح انسان يحس ويشعر ، ولا يمنع دمعه ان يفيض اذا عرض له مشهد حافز . .

— انك لتبالغين كثيراً في تبجيله وايثاره .

— ولكن سادة قريش يحترمونه اكثر من احترامي له وهم اذا احترمـــوه واكرموه فذلك لأنه صادق في حديثه عن المستقبل ، فلقد قص على كثيرين من الخلق حديث ذلك النبي الذي سيبعث في العرب ، فهز كلامه نفوسهـــم وبعث في قلوبهم حـــلاوة الايمان .

ـــ اذن فانت تؤمنين بهذا النبي الذي لم يقع بصرك عليه بعد !

ـــ نعم نعم ؛ وكيف لا أؤمن به وهذه الروح التي تثب في اعماق نفسي تأبى علي الخضوع للروم والفرس الذين يسرفون في ارهاق قومنا في الشام والعراق .

ـــ تكلمي همساً فاني اخشى ان يسمعك الروم ؟ ..

ـــ ان نبرات حديثي تضيع في هدير الماء ، قل لي الا تؤمن انت ببعث هذا النبي؟

فصمت اميه ، وادركت هند اي قلق يعصف بنفسه فتركته وشأنه فلحق بها قائلا:

ـــ الى اين تذهبين ؟

ـــ يخيل الي ان حديثي عن سطيح لا يروقك .

ـــ ولكنك تبالغين كثيراً في تبجيله !

ـــ دعني من الشعراء ياسيدي فانهم لاينظرون الى الأشياء الا بعين الخيال .

وانطلقت تعدو حتى اقتربت من حسان فسألها قائلا :

ـــ لماذا تجمعين هذه الأزهار ؟

ـــ الا تجرحك الحقيقة ان حسرت لك عنها ؟ فضحك حسان حتى اوغل في ضحكه وقال لها :

ـــ لا احسب هذه الحقيقة التي تخفينها في صدرك مؤذيتي ، فهل ازهارك هذه لفتى تحبين ؟

ـــ انا لا اعرف الحب ياسيدي الشاعر بل انا لا ابرح طليقة من اساره كهذا الهواء النقي ...

ـــ اذن هذه الأزهار ؟

ـــ لقد جمعتها لسطيح الكاهن .

ـــ اتحبينه كثيراً ؟

ـــ كيف لا احبه ياسيدي وهو صوت الحق الذي لم نتعرف اليه بعد في حياتنا؟

ـــ اذن فانت لاتزالين تحت وقر احاديثه عن ذلك النبي ؟

— لقد آمنت بالنبي قبل بعثه فهل يشجيك هذا الأيمان ؟

— في فؤآدي لسطيح مثل هذا الذي في فؤآدك ؛ فلقد آمنت بالنبي قبل ان انصت الى احاديث سطيح !

— كان الله لك . . .

ونظرت اليه باسمة متهللة وهي تكاد تطفر من الطرب ، فاقترب ابو سفيان منها وهو اشد ما يكون تشوفاً الى حديثها . فقال لها :

— الا تريدين مقاسمتي هذه الرياحين ؟

قال حبان ضاحكا :

— لقد ادمى الشوك يديها وهي عاكفة على قطف هذه الأزهار التي ستزين بها مفرق سطيح !

فقهقه ابو سفيان وقال لها :

— لعل هذا المسيخ قد اخرج الشيطان من روحك حتى استحق وردك ؟

— كانت نفسي حائرة متبرمة بالحياة فاخرجها الى عالم يمور بالفرح .

— اين هو هذا العالم التي تتحدثين عنه ؟

— انه في الأيمان الذي يحمله الينا نبي العرب .

فهمس ابو سفيان قائلا :

— دائماً هذا الحديث !..دائما هذا الحديث !..

— ايشجيك ياسيدي ان تؤمن ؟

— كلا . . . ولكن ثقي اننا سنجتمع الى سطيح .

— متى يكون هذا الاجتماع ؟

— بعد ايام قليلة .

وفي تلك الأثناء اقبل عمرو بن الحارث وهو اشد ما يكون مرحاً نخف الفرسان الى لقائه فقال لهم :

— يخيل الي ان الحديث ذو شجون ؟

فقال ابو سفيان :

— كيف لا يكون ذلك وبيننا شاعران ونبيه ؟

فضحك عمرو واردف :

— دلوني على هذه النبيه ؟

— دونك هنداً ، فنظر عمرو الى هند التي ظلت صامته وقال لها :

— انبية انت ؟

— انه يمزح ، ولعله قد اراد ان يحدثك عن ذلك النبي الذي بشر به سطيح الكاهن قبل بعثه !

فبهت عمرو، وحار في تفسير ما ذهبت اليه في حديثها، واخذ ينظر الى الفرسان الثلاثة كأنه يحاول ان يعلم شيئاً منهم عن هذا الذي ارادته هند ،فلما لم يجبه احد على سؤآله التفت الى هند وسألها قائلا :

— لقد سمعت شيئاً عن هذه النبوة من فم بحيرا فهل قص عليك سطيح شيئاً جديداً عنها ؟

— اتيت سطيحاً في ذات عشية ، فوجدت في صومعته بعض التجار الوافدين من جزيرة العرب، فجعل ينظر اليهم ويستعرضهم امامه كأنه يبحث عن ضالته بينهم وشفتاه ترعشان من الألم ، فلما لم ير ضالته بين هؤلآء التجار قال لهم « اني لا ارى ذلك الصبي المبارك بينكم على اني واثق من بعثه وظهوره »

ولما سألوه «من يكون هذا الصبي المبارك ؟ » اجابهم :

« هو ذلك النبي الذي سيبعث في بادية العرب» ثم رفع صوته وناداهم قائلا :

— اليس بينكم قرشي واحد ؟

فلم يجبه واحد منهم ، فدنوت منه وسألته :

— الا تستطيع ان تقول شيئاً غير هذا الذي قلته عن بعث النبي ؟ فتناول يدي

وهزها بعنف حتى خيل الي انه قد انتزعها، فأردت افلاتا منه فما استطعت ثم قال لي:

«عودي الي بعد ايام، ولم يزد على ذلك شيئاً »!..

فتركته وانا غير قادرة على خنق هذا الشعور الجديد الذي انبثق في نفسي فلقد استهواني حديثه وجعلني مؤمنة : فصاح عمرو :

— ياالحديثك اللذ! ناشدتك الله ان تذكريني عند سطيح، ثم التفت الى الفرسان قائلا :

— ان سطيحاً لا يكذب .

واخذ الفرح يغمر وجه هند فقالت :

— الم اقل لكم منذ هنيهة ان سطيحاً لا يكذب ! . . .

فهز اميه رأسه هزة الرجل الذي اشتمل عليه اليأس وراحت عيناه مخضلتين بالدمع وادرك انه لن يدرك حلمه في النبوة .

ولم يفطن عمرو الى حسرته فالتفت الى الفرسان وناشدهم ان يأكلوا على مائدته فانطلق الجميع الى مائدة انيقة في قاعة القصر الكبرى وراحوا يملاؤن بطونهم الجائعة .

* * *

في تلك الفينة كانت مارية في حجرتها بالقرب من الشرفة المطلة على جنة القصر وقد امتلأت روحها بطائفة من الهواجس المرة والآلام المذيبة، فأخذت تلهو بالزهر الذي حمله اليها عمرو في الصباح الباكر رجاة ان تقصي عنها آلامها الممضة فما وجدت في البنفسج تلك الأعراف التي تترع روحها مرحاً وعزاء..

ياللغرابة ! ايعجز الزهر الفواح ان يترع روحها عزاء ومرحاً وهو الذي ينتقل بالمحزونين واليائسين الى عالم يمور بالطمأنينة والسكون ؟ في الماضي، نعم في الماضي الذي طوى في غضون حوادثه سرها المحجب كانت تفزع الى الورد والزهر لتجد في كنفهما ذلك العزاء اللطيف الذي يبدد سحب احزانها فتأنس روحها

الى العبق وتجد فيه بعض الدعة ، وبعض الرجاء ، فلا تلبث ان تنسى ولو الى امد هذه الأشجان المرة التي تحطم ابهى احلامها وانضر آمالها .

— وا رحمتاه لا تقع عيني في هذه الحياة الا على المشاهد الجاهمة فان العيش هنا تخالطه الوان لا اجد في صباغها ذلك الأشراق الذي يبيد اليأس ، بل لست اجد في نواحي حياتي كلها نجوماً ولا ارضاً ، ولا ظلا ولا فضيلة ، وكلما راحت عيناي تبحثان عن ضجيج المفارح لا اجد غير الصمت وغير نفس متأججة حساسة ، ولكنها ليست متصلة بالحياة والموت حتى اصبحت غارقة في بحر عظيم النواحي ليس له شاطيء ولا صدى فهو ابداً صامت ساكن لا يتحرك لقد كانت تتحدث الى نفسها بهذه اللهجة اليائسة ثم تقول :

من انا ؟ ومن اين اتيت ؟

لما اردت ان اسأل عن ابي وامي ومن عساهما ان يكونا ، سخر قيصر نفسه من حزني واجابني قائلا :

« اتسألين كيف وجدت في هذا العالم ؟

« ثم ضحك وضحك كثيراً حتى بدا لي في ضحكه انه عابث بحزني ساخر من الحي

« وبعد حين وضع يده على كتفي وقال لي في غير جفاء :

« انت كالأقحوانة عثر عليها الرعاة في شوامخ الجبال .

اذن فأنا يتيمة كالأقحوانة لا اقل ولا اكثر ! ... ظلت هذه الهواجس المؤلمة تزدحم في خاطرها المتوثب فراحت تبكي بينما كان عمرو الذي احبته وتخيرته اباً واماً وحبيباً عن كثب من ضيوفه الذين اسماهم سادة العرب .

وعادت الى زهرة ندية من البنفسج نأدنتها من فمها ، وغمرتها بسيل من دمعها المدرار وقالت

— هذه الزهرة المباركة اللطيفة هي احب الأزهار الى نفسي لقد كان عمرو يعرف قيمة هذا العرف الطيب الذي ينبعث منها فجاءني في الصباح الباكر بكثير من البنفسج .

هي الزهرة الأولى التي اخذتها منه ، بل هي الزهرة الأولى التي افنيت فيها روحي وعقلي وهواجسي ! . . واتم فكرها على حين غرة بقبس غريب ، فراحت تنصت الى شدو البلابل السارحة في جنة القصر، وهي بعد على الشرفة فحولت هذه النغمات العذاب احزانها الى قليل من العزاء فابتسمت وقالت :

— حذقت اليأس حتى اضحت بارعة في فنونه والوانه ، ولكن الطبيعة المرحة لاتزال العنصر الوحيد الذي يدخل الهناءة الى نفسي، ان لهذه البلابل المغردة اجنحة ملونة تنتقل بها من فضاء الى فضاء ، ولكنها لن تمل هذا التنقل، ولا تعاف الانشاد ، ويخيل الي انها غريبة نائية مثلي ، ولكنها اعرف بالفرح من نفسي التي لم تتعرف اليه بعد !

جعل الله اوكارك هانئة ايتها الطيور الأليفة التي ردت الي عواطفي وفكري الذاهل!..

واخذت مارية تضحك ، وقد طرحت شجونها وآلامها ، ثم سرحت طرفها في الأفق الساجي كأنها لذت الغرق في الوانه المختلفة .



جلس عمرو الى جانب امية بن ابي الصلت وحسان بن ثابت الشاعرين وطفق يسألهما عن بلاد العرب وعن سوق عكاظ وشعرائها، وهو الذي احب الشعر والشعراء، فانبرى حسان يحدثه عن سوق عكاظ بلهجة فخمة عالية حببت الى نفسه السياحة في جزيرة العرب فما طرب لحديث كحديث الشاعر عن امرىء القيس ابن حجر وكانت هند في خلال ذلك تنصت الى حديث حسان وهي اشد ما تكون فرحاً واستئناساً ، ثم دفتها كبرياؤها فما عادت تملك نفسها فصاحت .

— زدني من شعر الملك أبيت اللعن !

فانطلق حسان في حديثه عن امرىء القيس حتى ذكر تفاصيل قتل ابيه وامرؤ القيس يومئذ بدمون من ارض الشام مع نديم له يشرب ويلاعبه بالنرد فوافاه رسول ابيه وقال له وقتل حجر ، فلم يلتفت الى قوله ، وامسك نديمه فقال له امرؤ القيس

«اضرب» فضرب حتى اذا فرغ قال ما كنت لأفسد عليك دستك، ثم سأل الرسول عن امر ابيه كله فأخبره فقال .

تطاول الليل علينا دمون　　دمون انا معشر يمانون
وانا لأهلنا محبون

ثم قال: ضيعني ابي صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لاصحو اليوم ، ولا سكر غداً ، اليوم خمر ، وغداً امر ، ثم شرب سبعاً فلما صحا آلى الا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن ، ولا يلهو بلهو ، ولا يغسل رأسه حتي يثأر بأبيه ولما بلغ حسان هذه الناحية من حديثه ترقرقت الدموع في عيني هند فقالت :

— كفي كفي فأن هذه الحكاية معروفة ايها الشاعر ، ولكنها حكاية مؤلمة توقظ في نفسي كبرياء هذا الملك الذي ادرك ثأره ومات مغترباً نازحاً ! بل ان حديثك عنه يذكرني بعاري . . . هذا العار الذي لحق بي من هيباس ولم اغسله بعد !!..

فوثب عمرو صائحاً :

— اي هيباس تعنين ؟

فنهضت هند ونهض الفرسان الثلاثة معها واصطبغ وجه عمرو بلون الحناء ورأى في عيون الفرسان بريقاً لم يطمئن اليه فقال :

— اي هيباس تعنين ؟

— هيباس قائد الرومان .

— واي شأن لهيباس معك ؟

— لقد دهمني برجاله بينما كنت في طريقي الى القصر ، واراد ان ينال مني ، ولكن هؤلاء الفرسان المساعير الذين بعثهم السماء منعوا العار عني ، فاقسمت بتراب ابي على الثأر بالأهانة التي لحقت بي ! فاصفر وجه عمرو وضاع صوابه وقال لهند :

— اتقولين حقاً ايتها الفتاة ؟ ! . .

— ابيت اللعن ايها الهمام ! ان حديثي واضح كفلق الصبح .

فجعل عمرو ينظر الى الفرسان الثلاثة كأنه يحاول ان ينتزع من نفوسهم سر هذا المعمى الذي حار في تفسيره .

فقال ابو سفيان :

ـــ انها صادقة ، وقد نجت من العار بفضل هذه السيوف .

ـــ وهياس ؟

ـــ فر كما يفر اللص في غسق الليل ، ولو تمهل في فراره لوقعت عينه على مشهد لم يره الأحياء والأموات !..

ـــ اي هند ! لماذا قعدت عن قتله ؟

ـــ كنت عزلاء لاسلاح في يدي ، يااللص ! اردت اليه ان لا يسرف في جنونه وناشدته الشرف والمروءة فما اصاخ فجعلت اصيح من اعماق نفسي ، اليس في هذه النواحي فارس من آل جفنة المغاوير ؟ ولكن من في القصر كانوا غرقى احلام ،وصرعى اوهام، فضاع نشيجي المؤلم في وسوسة المياه ! ..

فقال عمرو :

ـــ صدقت فقد كنا نياماً لانسمع صوتاً ولانحس ركزاً .

ـــ واوغلت في صياحي حتى غص الفضاء على رحبه بفحامي ، وحتى نقل الهواء العاصف صرير نفسي الى هؤلاء السادة الذين اضافوا الى بهاء الأعراق بهاء الأخلاق ! فنفروا الى نجدتي، وانا نفس يتردد وشعلة تنطفىء ، فاحمرت عينا عمرو من الغضب والتفت الى هند واردف :

لوعلمت غسان هذا الذي تحيفك لماترددت في قذف فرسانها الى المعركة الحمراء!..

ثم التفت الى ابي سفيان قائلا :

ـــ لم تدهشني هذه المروءة ، ولم يذهلني ان يصدر عنك مثل هذا العمل الرائع فقد كان شرف غسان ضائعاً فرد الينا سليما غير مثلوم .

ويحي لو كان الحارث بن جبله حياً لماابطأ في غسل هذه الأهانة ؟ انه ما كان يجد

شفيعاً لهياس غير الموت وسيموت هياس ! اجل سيموت هياس ! فهل يرضيك موته ياهند ؟

ـــ النار ولا العار .

ـــ قري عيناً فلن يطلع صبح الغد على هياس وهو في الأحياء .

فصاح الجميع :

ـــ اتقتله ؟

ـــ ساطلب دمه الى قيصر فان ضن به علي هجرت هذا القصر ولحقت بالبادية فانها لاتضيق بفرسان غسان .

كانت هند في تلك الفينة حائرة اللب مضطربة الفكر لاتملك كلاما تقوله وقد ادركت اي حمية اثارتها ، واي حماسة اذكتها ، فاقتربت من عمرو حتى حاذته فامسكت به ورمته بطرف ندي ثم احنت رأسها الى الأرض وغاصت في لجج هواجسها ، وظلت يدها في يدي عمرو حتى استفاقت من ذهولها فرفعت رأسها اليه وقالت له :

ـــ ناشدتك الله ان تتريث في عملك فاني لا احب لك هذه المغامرة القاسية وانت في ميعة الشباب بعد . . . الله يعلم ما تجره هذه العاطفة النبيلة التي تثور في نفسك من الكوارث والآلام ، ثم التفتت الى الفرسان الثلاثة قائلة :

ـــ ساعدوني ايها السادة في تسكين خواطره الثائرة . .

هدئي روعك فلن تشرق شمس الغد حتى يكون القصاص .

وساد السكون ضيوف القصر ، فما عادو ينبسون كأن على رؤوسهم الطير وكانت نفوسهم تزخر بعواطف شتى ؛ عاطفة التوجع لهذه الفتاة التي صيرها غضبها شبه مجنونة ؛ وعاطفة الاحترام لهذا الشاب الذي ارتضى لنفسه الغرق في تيار حوادث قد لايجني من ورائها خيراً ؛ وعاطفة ناشئة من حرصهم على غسل جريمة اذا ظلت بلا قصاص لازم عارها فرسان العرب الى الابد .

وانهم لكذلك يمضون في التفكير المضني اذا باب الحجرة التي آوت مارية اليها ينفتح واذا مارية على عتبته وهي اشد ماتكون التياعاً وارتماضاً فشخصت انظار الجميع اليها ، وقد ارتاعوا لظهورها بينهم ، وكان ابو سفيان اشدهم ارتياعاً من مشهدها المؤثر ، فجعل يحدق اليها تحديقا غريبا متواصلا ، ثم وضع يده على جبينه كمن يتذكر شيئاً قديماً عرض لخاطره على حين غرة وراح يهمس قائلا :

ــ اين رأيت هذا الوجه ؟

وتقدم حسان منه وقد فاض قلبه بمثل شعوره واحساسه فقال له :

ــ الا ترى على وجهها خيال هند ؟

وكذلك فعل امية ، واخذ الفرسان الثلاثة في تلك اللحظة ينظرون تارة الى ماريه واحيانا الى هند الغارقة في تأملاتها ، وصاح عمرو :

ــ ماريه ! ماريه ! كيف اتيت الى هنا ؟

فتقدمت الفتاة من الفرسان الثلاثة وقالت لهم :

ــ لقد سمعت ايها السادة حواركم وانا على الشرفة فأثرت قصة هذه الفتاة في نفسي كثيراً حتى لم استطع حبس دمعي ، وحتىاصبحت خائفة على حياة عمرو وهي الغالية عندي .

ورفعت هند عينيها الى مارية فتلاقت النظرات فاذا هذه خيال تلك ، واذا تلك خيال هذه ، وادرك عمرو هذا الشبه في الفتاتين ولاح له كذلك ان انسجاماً بديعاً يترع نغمات صوتيهما ، فجعل ينظر الى الفرسان فاذا هم في مثل حيرته وارتباكه ! واخذت هند التي استجاشها هذا التماثل في الخلقة والجمال والعمر تهمس في نفسها « ان لها نظراتي وجبيني وعمري وصورتي »

ولم تكن ماريه اقل شجنا من هند فقد طفقت تقول : ان لها نظراتي وجبيني وعمري وصورتي ، فمن هي هذه الفتاة ؟ .

وراحت هند تسأل نفسها : « من هذه الفتاة ؟ » ثم اقتربت من ماريه

وقالت لهـــا :

ــ لقد سمعت حكايتي التي اثرت في نفسك كما تقولين ؟

ــ نعم ، نعم ، اثرت حكايتك في نفسي كثيراً حتى لم استطع حبس دمعي وكنت واقفة على الشرفة انصت الى صوتك وانظر الى حركاتك والمح هـذا الشجن الذي يخطف على جبينك فما شككت في انك اهل للرحمة وانك جديرة بالعطف ، ولـكني جزعت كثيراً حينما رأيت سيد غسان يتهدد ، انه فتى باسل يغضب للشرف وهـو فوق ذلك روح حساس سريع التأثر .

ثم التفتت الى عمرو وقالت له بصوت ناعم رقيق :

ــ قل لي انك عدلت عن التحرش بهيباس ! نعم نعم ، قل لي انك عدلت عن سفح دمه لأن قلبك الطيب الرقيق يعاف مشهد الدماء المسفوحـــة ، ولأن يديك الرحيمتين ما تعودتا غير الأحسان الى المسيء . . . اي كارثة اليمـــة تنزل بي اذا انت ابيت الأصغاء الي . . .

وشخصت الى ناحية هند وقالت لها ناشجة شاجنة :

ــ ايتها الفتاة التي ماثل المها المي كما ماثلت صورتها صورتي ، حولي بين عمرو وحدته وحماسته فأني اخشى عليه ! ناشدتك الله ان تنسي عارك ولو الى امد حتى لا يذكر عمرو نذره الدموي !

وراحت تنظر الى ابي سفيان ورفيقيه وقد نم بريق عينيها عن اليأس والأسى وقالت

ــ الا تشاركوني في قلقي وليس فيكم الا السيد الغطريف ؟

رق فؤاد هند لهذه الفتاة الشاكية المتألمة وحال قلبها الذي كان يخفق منذ قليل للانتقام الى رحمة سامية ذابت فيها جميع عواطفها فشخصت الى ماريه وقالت لها :

ــ ليسكن روعك فلن يضرج عمرو يده بدم ذلك النذل، ثم التفتت الى عمرو قائلة:

ــ ابيت اللعن ايها الهمام ، لقد زهدت في الثأر من اجل هذه الوالهـة فدع هيباس وشأنه .

— هند !

— ان لي في الحياة غرضاً اسمى من غرضي في الأنتقام ! فقد مات ابي وهو يلح علي في قضاء الواجب الذي لاسبيل الى التغاضي عنه وهذا الواجب يسألني ان لا امزج به واجبا يعوقه ويعطله واحسب الحافي في غسل الأهانة التي لحقت بي من هياس معطلا لواجبي الأول الذي لا استطيع التخلي عنه ؟

— هند !

—دعاني يزيد بن الحارث — وهو الذي اقامه ابي وصيا علي — اليه وهو يحتضر وكنت في تلك الأثناء في دسكرة بعيدة عن بصرى بين اهلي وذوي رحمي، فما ترددت في الأصغاء الى ندائه الاخير ، فخرجت في ليلة كالحة في غير رداء أتزمل به ورحت هائمة على وجهي في طريق تدفع الى بصرى ، فكان البرد اللاذع يتلقاني في كل ناحية ويرتمي على نحري فما راعتني رياحه المقرورة ، ولا ارمضني زمهريره القاسي ، بل واصلت السير حتى اتيت يزيد وهو لم يغمض عينيه بعد .

اخذ ناظري وجهه الذابل فمد الي يده الراعشة ، وراحت عيناه الغائرتان تدمعان فاقبلت اسأله هذا الذي يريده ويأمله في دعوتي اليه فارادني على الجلوس لجلست ؛ وجاء اهلي جميعا فتيانا وفتيات ليروا بقية ما ابقت الأيام من الفتى الذي عاش ايامه الماضية محفوفا بالشرف وحسن السمعة .

وكان اذا تراءى لهم خيال يزيد وهو ذاهل غشيت حدجاتهم دموع اصفى من ندى السماء وراحت نفوسهم تلقة منكمشة ، وهنا تحرك فتى كندة وتمايد في سريره وكانت الشمس قد اطفلت وغابت في حمرة الشفق ، فاصغينا اليه فاذا هو يتحدث الينا عن دروع ابي وقد اودعها السموأل بن عادياء الغساني قبل ذهابه الى قيصر وقد ابى السموأل ان يسلم الدروع الى الحارث بن ظالم وآثر ان يسلمها الى ورثة امرىء القيس ، ولما امتنع السموأل عن تسليم الدروع قتل الحارث ابنه وهو مطل عليه من شرفات الحصن ؛ ومضى في سبيله والسموأل اشد ما يكون حرصاً

على الأمانة التي تسللت اليه من ابي ، وتعاقبت الأعوام وتصرمت الليالي ومـات السموأل بعد ان اسلم الدروع الى ورثة ابي ولكن ابناء عمومتي تنازعوا على هـذا الأرث فارادني يزيد وريثة لدروع ابي وقال « انطلقي الى ملك الشـام ولا ترجعي حتى ترد دروع ابيك اليك ، ومات هـذا الفتى بعد ان اصغى الى قسمي ؛ نعم مات مطمئناً الى وفائي بالوعد ، فقال عمرو :

— ثم ماذا ؟

— جئت الملك المنذر في بصرى وقصصت عليه حكاية الدروع فقـال لي ان اباه الحارث قد بعث بها الى قيصر فعدت الى بصرى ملتاعة واجمة ولكن اليـأس ظل بعيداً عن نفسي فلم يتسرب اليها وها انا لا ازال ماضية في قضـاء الواجب الأول فلن اغمض جفني حتى استرد دروع ابي ! ارأيت ايها الهمام كيف يحـول الواجب الأول بيني وبـين واجب الثأر . . . قل لي ناشدتك الله انك عدلت عن مطاردة هيباس .

فصاح عمرو :

— لقد اثرت قصتك في نفسي كثيراً حتى لم اعد قادراً على حبس عواطفي الجائشة ثم رق صوته رقة غريبة واردف . ناشدتك الله ان تمكثي بيننا هنـا في هذا القصر فاني عما قريب سألحق بقيصر في القسطنطينية وسترافقني مارية في رحلتي هذه وقد يكون من متع نفسك ان تذهبي معنا الى قيصر ؟

فقالت مارية :

— ناشدتك الله ان تمضي معنا الى القسطنطينيـة فلقد يراك قيصر وينصت الى حديثك الشجي فلا يتردد في تخفيف شجونك ! ان حكاية هذه الدروع بسيطة جدا ولا احسب قيصر يضن عليك بارث ليس هو من حقه بل هو من حقك

وواصل عمرو حديثه قائلا :

— نعم امكثي هنا الى اليوم الذي نمضي فيه الى قيصر .

فقال ابو سفيان :

— ليس لها ان ترفض طلبك بعد ان عرضت عليها الحماية والمجد .

فقالت هند بلهجة راعشة :

— لقد قبلت هذا الذي اردتني عليه .

فانبسطت اسارير الجميع ووثبت ماريه الى ناحية هند فسكت يدها وقالت لها

— لقد انقذني عملك من يأس شديد ! ثم همست في اذنها همسة خفيفة :

— ستكونين لي اختا افزع الى حنانها وشفقتها ،

فدنت هند منها واردفت : أأنت تقولين هذا القول ؟ قالت نعم وقد اصبح في قدرتك ان تثقي بحبي وعطفي قالت ما ارق قلبك ياسيدتي !

رأى الفرسان الثلاثة ان مقامهم بالقصر لم يعد مستساغا بعد ان اطمأنت هند الى كنف اصحابه فطالب ابو سفيان الى عمرو ان يأذن له ولصاحبيه بترك القصر وقال ان قوافله لم تعرض تجارتها بعد في اسواق دمشق وهو في حاجة الى الرجوع الى الحجاز مع اميه بن ابي الصلت ، فرجاه عمرو ان يبقى اياما عدة فاجاب:

— لقد وعدت بحيرا الراهب بزورة قريبة واخشى ان يطول انتظاره على غير جدوى

فالتفت عمرو الى حسان قائلا :

— وانت ؟

فضحك الشاعر واجاب :

— لم ار بحيرا وانا في بصرى ، وقد كنت سمعت عنه روايات كثيرة حملها العرب حتى الى خيامهم في البادية فكنت اجد فيها لذة ومتعة ، ومنذ ذلك اليوم البعيد اصبحت تواقاً الى رؤية هذا الناسك الذي يحفظ الشعر ويرويه...

فقال عمرو :

— الا تعود الينا ؟

فقال حسان :

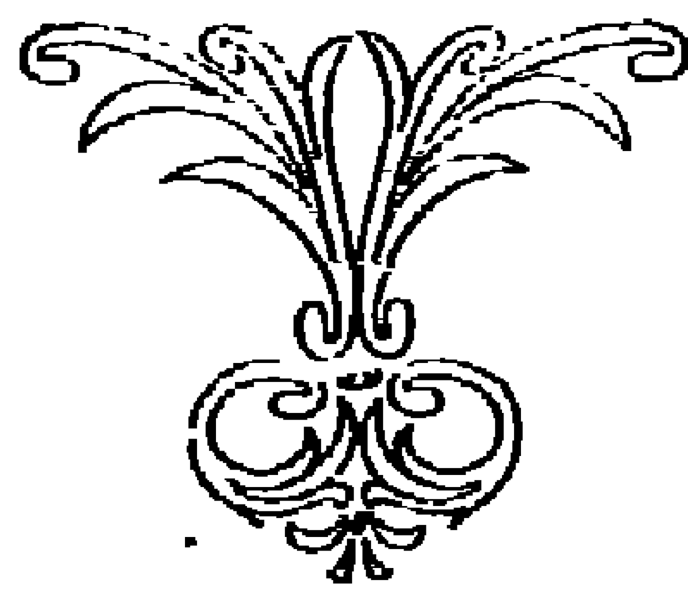
ــ سأرتحل غداً الى البلقاء فلا اعود منها الا في موسم عكاظ المقبل ...

واقبل الفرسان الثلاثه على عمرو يودعونه ثم امتطوا غوارب جيادهم، وبرحوا القصر الى دير بحيرا، وفي تلك الآثناء التفت عمرو الى ماريه وقال لها :

ــ لقد حبتك السماء هذه الفتاة الكريمة التي ستعيش في قصر ابائي كاحدى بنات الحارث بن مارية .

فضحكت ماريه ومسكت بيدي هند قائلة :

ــ وستكونين هنا في دعة وخفض عيش الى اليوم الذي تبلغين فيه غرضك من دروع ابيك ؟



الفصل الثاني عشر

موسم الشعر

غادر الفرسان الثلاثة قصر البريص حوالي المساء ، فقضوا ليلتهم في دير قديم اعتاد أميه بن ابي الصلت ان يفزع اليه في اسفاره الى الشام وفي صباح اليوم التالي عرضت قوافل ابي سفيان تجارتها في الأسواق فاقبل عليها تجار البلد حتى نضبت ، ورأى ابو سفيان ان عمله قد تم في دمشق ففكر في زيارة بحيرا الراهب في صومعته وقد كان معه على موعد ، كما روينا في الفصول السالفة ، فوقعت هذه الزيارة من نفس اميه موقعاً طيباً واحس حاجته الى الراحة والى الدعة بعد الشجون التي برحت به في تلك الليالي التي سلخها في دير بصرى وفي قصر البريص عن كثب من عمرو بن الحارث الغساني وقد نسي حديث ماريه وهند ، ونسي ايضاً حكاية هيباس ومأساته المؤثرة ، ولم يعد يذكر غير حاجته الى التعبد والتقشف في الدير وغير الأستماع الى احاديث الرهبان وكان ابو سفيان لايمل صحبته ولا يعاف حديثه وقد وثقت القرابة بينهما برغم التفاوت البعيد الذي يفصل بين آرائهما في العبادة فلقد كان ابو سفيان مصطلحاً على عبادة الأوثان مسرفاً في معاشرة الحسان ، شديد الشغف بمرح الحياة ونشاطها ، حتى ليستهويه عبق المرأة من بعيد ، فلا يلبث ان ينطلق في اثره ، اما اميه فقد كان ورعاً متقشفاً شديد الولع بالكتب القديمة ، عزوفا عن الناس الا عن الرهبان ، ولم يكن مغمور الصيت في الحجاز ولا في الشام بل كان له في بلاد العرب كلها صيت لامع لعل العامل المؤثر في ذيوعه هو انتماؤه الى آل عبد مناف فقد كان جده لأمه عبد شمس بن عبد مناف سيد بني اميه .

ولم يكن في الشعراء خاملا بليداً بل كان من شعراء الطبقة الثانية وقيل من شعراء الطبقة الأولى ، وقد صيره عكوفه على مطالعة الكتب القديمة انساناً تزخر

نفسه بشتى الأحلام والهواجس فأخذ يحدث عن ظهور نبي ، يجمع اليه العرب ويؤلف مابين بطونهم وقبائلهم وافخاذهم وكان يرجو ان يكون ذلك النبي الذي بشر به الرهبان في معابد حوران والبلقاء والشام .

لقد نمت هذه الهواجس في روحه حتى اصبح شديد الزهد في الدنيا فأخذ يجفو الأختلاط بالناس ، وعرف ابو سفيان هذه الأهواء الدينية التي تطفو في نفسه فانطلق يسخر منه ويتأفف من اكثاره الأحاديث عنها ، وفي بعض الأحايين كان ابو سفيان يلومه على هذه الوساوس التي علقت بلبه وعقله ، ويقول له :

« ان طمحك الأحمق قد باعد بينك وبين مسرات الحياة فاصبحت هازلا وافسد الهزل عليك الرياسة ! فكان يقول له

— دعني وتأملاتي ..

— ولكنها تأملات معتوه ... احترس كثيراً ان تفاجئني بمثل هذه الأقاصيص المملة التي يحدثك بها هؤلاء الذين طابت لهم الحياة في الصوامع والخير لك ان تنصرف الى الشعر فانه باعث في نفسك بعض العزاء الذي لاتعثر عليه في وساوس يمليها عليك ايغالك في كتب الرهبان .

وانهما لمضيان في الطريق الذي يدفع الى دير يوحنا حيث ينتظرهما بحيرا اذا بأبي سفيان يلتفت الى اميه ويقول له :

— احترس ان تتغلب عليك هذه الهواجس فاني اراها قاذفة بك الى دنيا لاحظ لك فيها واني ليرمضني كثيراً ان ارى شعلة ذكائك تخبو ، وان يأخذ بصري نفسك فلا يقع منها الا على رسم محيل على اني لست ادري هذا الذي يطوح بك الى التماس العزاء في اوهام اصطنعها الناس وجعلوا لها هذه المظاهر التي يضيع العقل في روائها وهي قليلة الجداء في حين انك واجد في الحب سعادة دائمة وهناء مديداً وافقاً ساجياً لامطر فيه ، وشمساً لاتحس في فيئها قراً ولا برداً ! وفي حين انك واجد في العقار نشوة يتفتح لها ذهنك وينتعش تحت تأثيرها فكرك فتغدو الدنيا

في عينيك وهي قصيرة في الديانة فضاء بعيداً لانهاية له في الحب ولكنه فضاء يعج بالطمأنينة ويزخر بالمفارح .

بل لاادري لماذا تستخذي مثل هذا الاستخذاء للاوهام وانت تعلم اي رجل هذا ، افتحسب سطيحاً انساناً له ما للناس كافة ؟ أعزب عنك انه حيوان له عينان ورأس وليس له يدان ورجلان ، ايكون هذا المسيخ الذي لايحتوي على غير اللحم ، اقوى منك على حذق المستقبل وما يطن ؟ اتحسبه صادقاً في هذا الذي تحدث به الى تلك الفتاة ؟

ـــ حسبُك هذا الذي تقوله !

ـــ ولكني اخشى عليك الجنون !

ـــ الا تذكر هذا الذي قاله بحيرا ؟

ـــ لقد اخذ بحيرا عن سطيح ، والناس في بصرى وحوران لم يعنوا بهذه الأحاديث التي لم يقم الى الآن دليل على صدقها . . .

هب حديث سطيح صحيحاً لاملق فيه ، افيشجيك ان يرث العرب الروم والفرس في هذه البلاد الحالية بالثروة والخصب ؟

ناشدتك المروءة ان تنزع من نفسك هواجسها المرة فهذه هي الحياة امامك وهي موارة بعناصر الفرح واللذة، فافتح صدرك لها فأنها وحدها قادرة على اطفاء هذا الضرام الذي يتأجج في صدرك ، فلم ينبس اميه ، وظل على صمته حتى بلغ الفرسان الدير

لما عرض الدير للفرسان تنفس امية الصعداء وتهافت على خفق بابه ؛ وبعد قليل فتح له الباب فتوغل الفرسان في مساربه، بعدان تركوا جيادهم في المربض، وكان بحيرا في تلك الساعة مكباً على المطالعة في حجرته الصغيرة .

لم يرفع بحيرا رأسه الا حينما عرضت له وجوه الفرسان فترك كتبه وخف الى الترحيب بضيوفه وكان فرحه بلقاء حسان عظيما ، ولم يشأ ابو سفيان ان يرهق الراهب بسؤال ما عن سطيح ولعله قد اراد في تغاضيه عن ذكره انلايفتح

تلك الجروح التي يعاني اميه آلامها وهي جروح كثيرة لا سبيل الى معالجتها الا بالنسيان .

كذلك بحيرا فأنه تجنب الخوض في مسائل الديانة احتراماً لأبي سفيان الذي عاف الأحاديث عنها، ورأى ان ادب الضيافة يريده على المبالغة في الحرص على عواطف ضيوفه وبين هؤلآء الضيوف سيد من آل عبد شمس ، فقصر احاديثه على سوق عكاظ، وصارح ابا سفيان برغبته في حضور الموسم الجديد الذي سيكون خصباً ممرعاً بقصائد ماتعة يلقيها شعراء البادية الفتيان .

وتناول حديثه شعراء الطبقة الأولى منهم فترحم على امريء القيس بن حجر وقال : كان امير الشعراء في غير نزاع ، ولو ظل حياً ، ولم تشتمل عليه ارض الروم لجاء بالمعجزة الباقية ، ثم تغنى بشعر النابغة الذبياني وسأل حسان بن ثابت اذا كان النابغة سيحضر موسم العام في عكاظ واراد اليه ان يذكر اسماء الشعراء الفتيان الذين يعدون في الطبقة الأولى .

فأجابه حسان قائلا :

— بلى ان النابغة سيحضر هذا الموسم شأنه في السنين الماضية وستضرب له كالمعتاد قبة من ادم بسوق عكاظ فتوافيه الشعراء وتعرض عليه اشعارها واول من انشده في العام الماضي الأعشى، ثم انشدته انا في هذا العام، ثم انشدته الخنساء بنت عمرو ابن الشريد ؛ وسينشده في موسم العام المقبل شعراء عديدون من نجد والحجاز والعراق واليمن وبين هؤلآء فتيان حذقوا الشعر من عبس وربيعة وعدنان .

— ليت الله يفسح في اجلي حتى لا احرم نضارة هذا الموسم الذي سيكون خصبا بالفكر الراجح . . .

فضحك ابو سفيان وقال باسماً :

— ولكنك قوي وباسق كالشجرة الفرعاء وفي وسعك ان تشهد موسم هذا العام ، بل في وسعك ان تشهد مواسم الأعوام المقبلة .

ولم تتناول احاديثهم غير الشعر فأسهب حسان في وصف شعراء الموسم الماضي واطرى الشعراء الفتيان الذين سيكونون نجوم الموسم المقبل ثم انتقل الى ذكر ملك الحيرة وتشجيعه النابغة على احياء هذه المواسم التي ترفع من قدر الشعر والشعراء في جزيرة العرب وقال :

— وفي الحق اننا نعيش في عصر الشعراء فان الماضي قد تعرف الى ملوك الشعر امثال امريء القيس وزهير بن جناب الكلبي ، وطرفة بن العبد من بني بكر بن وائل ، وعدي بن زيد ، وزهير بن ابي سلمى المزني ، واحسب شعراء هذا الموسم سيكونون من الفتيان الذين جمعوا الى نضارة الحسب نضارة الأدب ووفقوا بين اغراض الفروسية . واغراض الألمعية ، وسيكون في جملة هؤلآء عنترة العبسي وقيس بن زهير ، وعروة بن الورد ، وهؤلآء الشعراء الثلاثة هم فرسان العرب في هذا الزمن الذي نعيش فيه .

فصاح بحيرا مشدوها !

— لقد سمعت الشيء الكثير عن شهرة عنترة في الفروسية وعلمت ان لشعره تلك الروعة التي تصحب ملاحمه ! فهل صحيح هذا الذي يتحدث به الناس ؟

— جمع عنترة اليه مجد المعركة الحمراء ، وشرف القصيدة الزهراء .

— زدني من احاديثك ؟ من هو افرس فتيان العرب ؟

فصعد حسان زفراته واجاب قائلا :

— ناشدتك الله الا تذكرني بفارس الفتيان فان هذه الذكرى توقظ في نفسي آلامها الراكدة وتبعث فيها كثيراً من الأشجان .

ثم تأوه وقال :

— لقد مات هذا الفارس الذي تسألني عنه .

— ما اسم هذا البطل الذي ترعش ذكراه الممضة صوتك ؟

— ربيعة بن زيد المكدم ، لو عرفته وهو في ربيعه السابع عشر لما ترددت في اكباره

واجلاله ! فلقد كان يخوض المعركة وادعاً مطمئناً ، فلا يؤوب منها الا وقد اترع نفسه بعبق الظفر ، وكانت بسالته حديث النساء والشيوخ في خيام الأعراب وكان وفاؤه اسمى من استبساله في مواقف اليأس .

شهدته في معركة تلظت فيها حمرة الشفق . فرأيته يثب على خصومه غير مكترث ولا قلق ثم رأيته يعود من المعركة وهو اشد ما يكون مرحا وتوثبا كأنه لم يخض الغمار ، ولم يلتحف الغبار ! فأثار مشهده شجاعة الشيوخ الذين اشفوا على الفناء فأحس هؤلاء انهم يماثلونه في النجدة والكبرياء .

يا اسفا ، لقد مات في ربيعه السابع عشر ، فأنطفأت تلك الشعلة الطاهرة التي كانت تنير حلك هذا الليل الذي يغطي آفاق جزيرة العرب .

اتيت رمسه والفجر لا يبرح ندياً رطباً ، فعقرت ناقتي على قبره ورحت اذرف عليه دمعا هو في صفائه وطهارته كالدمنة الوطفاء . ناشدتك الله أيها الراهب المبجل ألا توقظ في نفسي حسراتها النائمة واحزانها الراكدة !

فوثب بحيرا وقد احمرت عيناه ورعشت يداه ثم حاول ان يتكلم فخنقته عبراته فما عاد يطيق كلاما فجعل الفرسان الثلاثة يطيلون التحديق اليه وهم لا يدرون اي شجن يضني نفسه ويذويها وراح ابو سفيان يتساءل عن معنى هذا الألم البليغ الذي هد قوى الراهب هداً !

وخيل الى حسان ان حديثه عن ربيعة كان الباعث الى اثارة عواطف الهرم فاراد ان يلطف من كربه واستعان رفيقيه في تسكين هذه الآلام التي اعتورته ! ولكن الراهب مالبث ان اطمأن ، فاذا جبينه يتلألأ ، واذا ابتسامة وادعة تحرك شفتيه ثم اختفت تلك الحلقة الشاردة من عينيه فاغمضهما اغماضة خفيفة وبسط يديه الى فضاء الغرفة بينما راح الفرسان الثلاثة يرقبون حركاته وهم في حيرة من امره !

لقد ثنى اميه وجهه حتى لا يرى هذا المشهد وهمس ابو سفيان قائلا :

— ليتني جفوت هذا الدير

وصاح حسان : جن الرجل !...

في تلك الأثناء تقدم بحيرا من النافذة فأطل منها على الحاضر ومضى ناظره يجول في الفضاء غامراً الحقول والمراعي وهو لا يراها ، ثم ما تم ان اشرق وتهلل وطفق يتكلم كأنما ارتفع له شبح من مكان بعيد فراح يحدثه .

« .. هذه هي القافلة . انها تمشي في رمال الصحراء وادعة مطمئنة ، وهذا هو ذلك الطفل الذي افاء الله عليه الشرف والمجد والتواضع والعدل النبيل الصالح »

« انظروا ، هذه هي الشمس تريق بهاءها على جلال الموكب ، وقد اهتزت الرمال تحت هذا الزحف المجيد ! يالهذا الزحف الرائع الذي يمشي باصحابه الى العيون والأنهار والخلجان والبحار . . يالهذا الزحف الرائع الذي لاينتهي الا عند ابواب المدن الكبرى في الشام والعراق » .

« انظروا معي ، ان النبي قد ظهر وهو يقترب من بصرى حتى يكاد يدخلها

« ثم شخص الى ناحية الفرسان الثلاثة وكانوا ينظرون اليه وهم لايفقهون هذا الذي يقوله فتابع حديثه قائلا :

« ليس عصركم ايها الشرفاء عصر شعر فحسب ولكنه عصر النبوة وعصر العقائد العاقلة المهذبة التي ستجعل من الصحراء بلداً كاسياً رافهاً ، لقد بعث الله في العرب نبياً كريماً ورسولا عظيما يسوقهم الى خير مساق ويعرفهم بالفضيلة الباقية التي تصقل النفس وتمشي بها الى عالم يموج بالطمأنينة » . . .

« وهذه الجنات الزاهرة التي يبتسم فيها الأقاح والورد ، وهذه المياه الهادرة التي تغسل المراعي وتسقي العشب ستذوب في ابتسامة مضيئة تلمع على شفتي ذلك النبي» .

وراح بحيرا الى مقعده رابط الجأش حافل النفس بالسكون فجعل الفرسان الثلاثة ينظرون اليه وقد خالطهم الذعر ، وكان حسان اهدأ ذهناً ، واصفى خاطراً من رفيقيه بل لقد كان اكثرهم استعداداً لفهم هذا الذي يجول في خاطر الراهب .

في الأسبوع الماضي كاشفه ابو سفيان بحديث بحيرا عن النبي فما ارتاع ولا

اجفل ففتح نفسه لجمال الديانة وصفاتها ولم يجد في الشعر وحده غذاء الروح ورجاءها ، بل لقد وجد في الديانة ذلك الغذاء الذي يودع شعره الرواء والبهاء .

ولم يكن يشجيه ان ينبت في صحراء العرب ذلك النبت الضاحك المتورد وهو الذي يعلم حاجة هذه الصحراء الى الزهر والنبات ! وحسب الصحراء في عقيدته هذه الجاهلية الربداء التي يضيع فيها الفكر واللب ، بل حسب هؤلاء الأعاريب جفاء العيش ونضوبه في بادية يختلف عليها النهار والليل وهي ابداً سادرة حائرة .

لقد شهد حسان الوف المعارك التي تثار لهفوة يجترحها بدوي ساذج فلا يلبث سعيرها ان يمتد حتى يحرق الخيام والبيوت ، وحتى يتأكل النفوس البريئة ، وحتى يستأصل الزروع والكروم فكان يقول :

لماذا تكون الشام بزخارفها ونفائسها وعجائبها ومروجها وانهارها وجبالها وبحارها لهؤلاء الروم وهم غرباء عنها ؛ ولا تكون لهؤلاء الأعراب الذين لاينقصهم شيء من وضوح الألمعية واتساق الذكاء ؟! .

ازدحمت هذه الخواطر المتوثبة في ذهن حسان في الأسبوع الماضي حينما انصت الى حديث ابي سفيان ، وفي هذه المرة استجاشت رواية بحيرا هذه الخواطر وحركتها فمضى الشاعر الى الراهب حتى اطمأن الى سكونه ، ثم سأله في رفق ودعة :

— من لقنك هذا الحديث ؟

— كتبي وعلمي ؟

— اتؤمن بهذا النبي الذي حسرت لنا عنه ؟

— لقد آمنت به وهو لايبرح جنينا في احشاء امه وانا اليوم اشد ايمانا به من الأمس!

— هل في الشام من يقول قولك ؟

— اذا كان الشك يقرض نفسك ويؤذيها الى هذا الحد فأن في قدرتك ان تمضي الى نسطورا الراهب في بصرى او الى سطيح الكاهن .

— واين اجد سطيحاً هذا ؟

— تجده في سفوح الجبال عند نهر الأردن ، او في الأطلال النبطيه ما بين البلقاء وحصن تيماء .

— اتدري ما يقول سطيح ؟

— اذا انطلقت اليه روعك حديثه واشجاك ، فلقد اتيت سطيحاً منذ اسابيع وهو في صومعته فرأيت عنده خلقاً كثيراً يخطبهم ويصف لهم ذلك النبي ، فأصغيت اليه فاذا هو يتدفق فصاحة وبياناً ، فاستهواني وصفه الخالب لتلك الديانة التي تدعو الناس الى العبادة النقية الصافية والى نبذ المعتقدات الجافة البليدة ولما تكلم سطيح على صفات النبي وصور لسامعيـــه صورته الحسنة وكاشفهم بدعوته الى البر بالوالدين والعطف على البنات والبنين رحت اذرف دمعي الحبيس ، ثم انطلقت وانا حافل النفس بجمال تلك العبادة .

— سأرى سطيحاً غداً . .

ونهض حسان يريد الخروج من الدير ولكنه ترسل في مشيـــه وشخص الى ناحية امية فأذا بصره يقع على حزنه وجواه ، ولم يفت سيد آل عبد شمس هـــذا الشجن البليغ الذي يرزح اميه تحت وقره ، فترك مقعده وقال للراهب :

— اتأذن لنا بالرحيل ؟

— الى اين تمضون في هذه الساعة ؟

— الى مكة فلقد مرت بنا ايام عدة ونحن في الشام ؟

ثم التفت الى امية قائلا :

— الا تشاركني في رأيي هذا ؟

فهمس امية قائلا :

— بلى !

وودع الفرسان بحيرا بعد ان اجزلوا له في الثناء ومضوا في اسواق دمشـــق متوغلين وكان زفيف الرياح الصدى الوحيد الذي يخالط زفرات نفوسهم !

الفصل الثالث عشر

القصاص

لما مات يوستانيوس (١) صاحب القسطنطينية وصديق الحارث بن جبله الحميم خلفه على عرش بزنطية يوستينوس قيصر (٢) العدو الألد لكسرى وحلفائه ملوك العراق فسار هذا الملك سيرة خلفه في مصانعة الغساسنة ومداراتهم وعمل على التقرب من الملك المنذر الغساني الذي خلف اباه الحارث على الشام وكان مسوقاً الى مصانعة الغساسنة تحت تأثير عوامل كثيرة ، ربما كان اروعها شأناً واعظمها خطراً حرصه الشديد على حماية طرق الأمبراطورية البيزنطية وقد كان الفرس وحلفاؤهم ملوك العراق يجتاحون هذه الطرق ويتوغلون فيها حتى تبلغ جيوشهم صميم بلاد الروم .

حيال هذه الغارات المتتالية التي قوضت صروح العمران والحضارة ومنعت الفكر الراجح من مواصلة كدحه ودأبه في العمل المجدي المثمر اطلق قيصر يدي المنذر الغساني في بلاد الشام ووسع سلطانه حتى شمل ارمينية وقسماً كبيراً من آسيه الصغرى ثم انشأ الروم خطاً دفاعياً في اطراف حوران يفصل بينها وبين البادية ، وكان هذا الخط قديماً مؤلفاً من عدة حصون بنوها واحكموا تحصينها لرد سيل عرب العراق عن اراضي الأمبراطورية .

قام الملك المنذر الغساني بحماية هذا الخط ، وقطع على عرب الحيرة الطريق التي كانوا يتسربون منها الى اراضي الروم ، فامتنع هؤلاء عن الغارات زمناً غير يسير ، ووصلت اليهم اخبار كثيرة عن بطش المنذر الغساني ، فتهيبوا اقتحام الأراضي التي يمتد عليها سلطانه فرأى الأمبراطور يوستينوس الثاني ان يواصل عمله في افريقيه

---

(١) Justinien I (٢) Justin II

واوربة بعد ان اطمأن الى سلامة حدود الأمبراطورية وبعد ان وثق بقدرة المنذر الغساني على حمايتها ورد الغارات عنها .

وبينما كانت جيوش قيصر تتوغل في افريقية واوربة كان ملك الحيرة يعد الجيوش سراً لاكتساح الشام رجاة الثأر بابيه من المنذر الغساني وحكاية هذا الثأر ان الحارث بن جبلة والد المنذر الغساني الذي مات في سنة احدى وسبعين وخمسمائة قضى اكثر ايام حكمه في محاربة المنذر الثالث ملك الحيرة وانتصر عليه في قنسرين انتصاراً رائعاً وذلك ان ملك العراق جهز جيشاً للثأر بابيه المنذر بن ماء السماء الذي قتل في معركة عين اباغ فكتب الى الحارث ملك غسان « اني اعددت لك الكهول على الفحول » فاجاب الحارث :

« لقد اعددت لك المرد على الجرد » ثم التقى الجيشان بمرج حليمة — حليمة بنت الحارث ملك غسان — وعصفت ريح الحرب ودامت اياماً لا ينتصف الواحد من الآخر ، فجعل الحارث ابنته حليمة لمن يأتيه برأس ملك الحيرة فخرج فارس من غسان يدعى لبيد بن عمرو الغساني وشد على المنذر فقتله وكان تحت رايته عرب العراق فانهزمت وقتل منهم خلق كثير وعادت غسان ظافرة وهذه المعركة هي التي عرفت عند العرب بيوم حليمة ، وهي من ايام العرب المشهورة وفيها ورد المثل الطائر « مايوم حليمة بسر »

وقد جرت هذه المعركة في عهد يوستانيوس الاول والحارث بن جبله الغساني المعروف بالأعرج ، فأثارت ذكراها حفائظ عرب الحيرة واحنقتهم ولكنهم آثروا الصمت والسكون مخافة ان يبطش المنذر الغساني بهم ، ولما مضى يوستينوس الثاني الى الفتح في اوربة وافريقية كثرت اعباء المنذر واتسعت رقعة ملكه حتى شملت ارمينيه فلم يعد في قدرته ان يتفرغ للتفكير في شؤون الشام ؛ وكان لزاماً عليه ان يسيح في اطراف هذه الممالك الشاسعة التي وضعها يوستينوس الثاني تحت سلطانه فرأى عرب العراق في متاعب المنذر الغساني سانحة هائلة للثأر فاكتسحوا اطراف الشـــام

والمنذر يومئذ على اطراف جبال طوروس.

وتوغل عرب الحيرة وحلفاؤهم الفرس في حدود بزنطية حتى بلغوا في زحفهم حواضرها فرجع المنذر الغساني الى بلاده وجمع الجيوش ورتبها ترتيباً حسناً وحمل بها على مؤخرة الفرس .

ريع يوستينوس الثاني لزحف الفرس فبعث الى المنذر بجيش كبير من جيوشه وناط قيادة هذا الجيش بهيباس احد قواده في افريقيه فلما تلاقى العدوان انهزم الروم وتراجعوا وكاد هيباس يقع اسيراً في يدي الفرس وحلفائهم الحيريين ويعزو مؤرخو عصر يوستينوس هذه الهزيمة الى كره هيباس الغساسنة وكان المنذر عالما بهذا الكره فمنع جنوده من التوغل وارادها على الرجوع الى الشام ، فاحفظ عمله يوستينوس الثاني فحقد عليه واراد اغتياله اكثر من مرة فلم يفلح

وللمرة الأولى في تاريخ الغساسنة والروم نشأ مثل هذا النفور بين الشام والقسطنطينية ، بل للمرة الأولى يمتنع ملك من غسان عن اصراخ قيصر ومحالفته

عاد هيباس بعد انكساره الى دمشق فلبث فيها على قيادة الجيوش وطفق يناصب الغساسنة العداء فاحنق عمله المنذر فأراد قيصر على عزله وارجاعه الى القسطنطينية فخشي يوستينوس ان يؤدي عزل هذا القائد الى التحاقه بجيوش الفرس فسكت ولم يجب على كتاب المنذر .

عاش هيباس في دمشق عيشا حاليا بالترف والنعيم وجمع اليه بعض الفتيان الظرفاء فملأ بهم قصره وانقطع معهم الى الحب والعبث والمراح ، ولم يمنعه هذا العيش الجديد ان يسترق اخبار الغساسنة فاحاط قصورهم في حوران والبلقاء والشام بالجواسيس .

وكان لعمرو بن الحارث بن ماريه ذات القرطين قصر في دمشق يختلف اليه في فصل الصيف للابتراد بالظلال الرطبة والأفياء المرسلة فأحاطه هيباس بعيونه ورجاله واوصى بمراقبة الداخلين اليه والخارجين منه .

وكان عمرو قد عاد حديثاً من القسطنطينية ومعه فتاة رائعة الحسن كثرت عنها الأحاديث ولكن امرها ظل سراً خفيا فجعل الذين كانوا يرونها مع عمرو يتساءلون عنها وعن نشأتها فقال بعضهم انها ربيبة قيصر وقال بعضهم انهـا حبيبة الفتى عمرو ابن الحارث وان الحب وثق مابين نفسيهما .

وهكذا كانت هذه الفتاة البضة الناعمة التي جمعت الى روحها الكياسة والظرف والدعة موضع حوار الناس وغرض احاديثهم في يوتهم وفي خلواتهم الريفية

اي شأن لقيصر في حياة هذه الحسناء ؟

لقد كان الناس يرددون هذا السؤال اذا مااحتوتهم منـازلهم ودورهم ولكن في غير طائل لأن الجواب عليه لم يكن امراً هينا ، وربما دار في خلد احدهم انها ابنة قيصر ولكن كثيرين كانوا يردون هذه المزاعم وينقضونها لأن يوستينوس الثـاني ابن اخت يوستنايوس الاول لم يكن قد تزوج بعد !

في ذات عشية خرجت مارية الى جنة القصر فانطلقت الى الأفياء الظليلة للترفيه عن نفسها التي امضها هذا الضجر الذي احسته في عزلتهـا ، وكان من امتع امانيهـا ان تسبح في خضرة الرياحين في العشيات التي ينيرها القمر ؛ بل ربما كانت تجد في ساعة الأصيل تلك اللحظة المبتغاة التي تصبو الى الغرق في سكونها ودعتها .

وانها لتمضي في عبثها بالأزهار اذ عرض لها عند باب الحديقة طيف متلفع بالسواد كانت عيناه تنظران اليها فروعها بريق هاتين العينين ورأت فيه ما يرمض نفسهـا ! ثم اختفت تانك العينان فعادت مارية الى حجرتها وهي اكثر ما تكون قلقا وغما .

وفي اصيل اليوم التالي عادت الى الطواف بحديقة القصر وحاولت المضي في مثل عمل الأمس فثناها عن فكرتها ذلك الخيال الذي عرض لها في الأصيل الفائت ، وخيل اليها انها ترى تينك العينين النضاحتين بالمكر والرياء فرجعت الى غرفتهـا واجمة ذاهلة فتلقاها عمرو بين ذراعيه ولم تفتــــه مخاوفها وهواجسهـا فراحت تتكلف الابتسام وفي الصدر صرير شجي وان لم يبد له في العين لألاء ولا قطر .

ولما سألها عن هذه الأشياء الخفية التي تتغاير الى خواطرها راحت تستمريء الصمت ولم تشأ ان تحسر له عن مصدر القلق الذي تحسه فسألها قائلا :

ـ الا تحسرين لي عن معنى هذه الكدرة المخوفة التي تغشى وجهك ؟

فلم تنبس !

ـ اذن فانت لا تحبين الاقامة في هذا البلد ؟ ..

فلم تنبس ؟

فدلف عمرو اليها حتى احتواها بين ذراعيه وقال لها متلطفا ـ نامي هنا على صدري هذا النوم الوادع الذي تتراكض في غمضته تلك الأحلام العابقه بشذا الحب .. لله هذا الحب المتأرج الذي يرطب نفسي بنسماته العذاب .

فلم تتحرك وامتنعت عن الكلام فقال لها :

ـ اراهن على انك شقية بعيشك في هذا القصر ، وعلى ان في حياتك سراً لاتريدين الافضاء به الي فما هو ذلك السر ؟

فسكتت فقال لها :

ـ الا يغبطك ان تتأسي بحديث مع صديق ، الا يبهجك ان تجلسي الى حبيب يفهمك كما تفهمينه ويبثك ما تبثينه ! لما تلاقينا في القسطنطينية رأيت نفسي تطمئن الى خوالجها ، وكان ايماني بالحب اقوى من اي ايمان آخر ، فهل تزعزع ايمانك ايتها الحبيبة ؟

اذا كان الغناء يلطفُ من كربك فاني مغنيك ابدع ما عندي من غناء ، واشجى مالدي من نغم ..

وطفق يغني فكان لجرسه اللذ وقع مؤثر في نفسها فاذا هذه النفس التي لم تطمئن بعد تلك العشية المخوفة ترتاح الى وسوسة هذا الجرس الناعم فابتسمت وقالت له :

ـ حدثني عن الحب ، بلى حدثني عن الحب .

فجعل يعبث بشعرها ، ثم كانت بينهما تلك الأحاديث الناعمة الملساء التي مر بها القاريء في الفصول السابقة وفي تلك الاثناء كان رجال هيباس يحدقون بالقصر يراقبون انواره ثم خمدت الانوار وغيب القصر في غسق فاحم فصاح هيباس :

لقد رايتهما يدنوان من الشرفة ثم اشتمل عليهما القصر واحتواهما هذا الديجور الشامل ، غدا ايها الرفاق ستكون لنا رجعى الى القصر وغداً يكون الاختطاف .

وهم فتى الروم برجعة ولكنه تردد واجفل وطفق ينظر الى النواحي البعيدة كأنما قد عرض له شبح جديد ثناه عن الرجوع ، والتفت رفاقه الى النـاحية التي تراءى الشبح فيها فاذاهم يبصرون فتاة تغلو في ركضها الى القصر فصاح هيباس :

— امرأة والله .

ولم يكذبه ظنه فلقد كان الشبح الذي راح يتأمله فتاة في نضارة شبابها ، وفي خفة الوميض تهافت رجال هيباس على التحديق اليها فترسلت في مشيها وارتد وجهها شاحباً مفسوعاً ،

ياعجباً ! من يكون هؤلاء ؟

اخذت تلقي هذا السؤال على نفسها من غير ان تجد له جوابا وخيل اليها في لحظة واحدة ان هؤلاء الرجال من اتباع عمرو بن الحارث فاطمأنت قليلا وارادت ان تواصل سيرها ولكن هيباس اراد اليها ألا تتحرك فجعلت ترمقه مبهـوتة وهي لاتدري اي غرض يبطن .

والتفت هيباس الى رجاله قائلا :

— اراهن على انها عشيقة جديدة لصاحب القصر ، ايها الرفاق لقد وقع الطائر في الشرك ، وفي هذه المرة سنعود بالمغانم والمرابح لأن يومنا شديد الخصب .

بلى وربي انها لفرصة مواتية لصيد ، موائمة لربح .

كفت اشارة من هيباس لحمل رفاقه المجانين المماريح على الأحداق بالفتاة فطفقت تستغيث وتلح في الاستغاثة .

ومضى هيباس الى الفتاة واخذ يطرح عليها كثيراً من الاسئلة :

ـــ من اين اتيت ؟

ـــ من بصرى ؟

ـــ والى اين تقصدين !

ـــ الى قصر البريص .

فاحمرت عيناه من الغضب ، واردف :

ـــ اذن فانت على موعد مع عمرو ؟

فاستيقنت الفتاة انها حيال اعداء ولمحت في عيني هيباس بروق الضغينة والموجدة ولكنها لم تستطع افلاتا لان رجال هيباس لم يتوانوا في التضييق عليها وفي تلك الأثناء قال لها هيباس :

ـــ لاسبيل الى فرارك ، وبعد فلماذا تفرين ؟ افلا يروقك ايتها الحسناء الشاردة في هذه النواحي ان تقضي الهزيع الأخير من هذا الليل بين ذراعي اجمل فتيان بزنطية

ـــ ارجل مثلك يسب امرأة مثلي ؟

ـــ اترين في هذا البث الذي احمله اليك سبابا وشتما ؟ يالك من حمقاء . . . لقد كان ماضي حياتي حافلا بالحب وكان لي خليلات كثيرات فلم يقلن هذا الذي همس به فمك الآن !

ـــ رح في طريقك والا اترعت الفضاء صياحاً .

ـــ ولكن غضبك ينمي في ملاحة وجهك فليتك تمعنين في الغضب !

واذ ذاك تولاها خاطر ملحاح مثل لها حاضرها في الصورة البشعة فاستيقنت ان عدوها قوي وان السبيل الى الافلات من يديه لم يعد هيناً بل لقد وثقت ان شرفها لابد ضائع اذا لم يبلغ صوتها العاصف في اعماق الليل سكان القصر فاخذت تقاوم جلاديها وتهرب منهم وتركض امامهم حتى وقفت حيال باب القصر وطفقت تصيح :

— اين انت ياعمرو بن الحارث ! اين انتم يا ابناءمارية صناديد الشاموفرسانها؟
فضحك هيباس ضحكة ساخرة عابثة وقال لها :

— لله انت من فتاة ، ويافرحة الرجل الذي يشم عبقك الاطهر في هذا المساء المعطر فادركت الفتاة انه يتعمل العبث باحزانها فانطلقت تلح في البث حتى حمل الصدى ترجيع نفسها الى الفرسان ، وكان سكون عميق راح هيباس في خلاله يتأمل ، ثم ردد الفضاء اصواتاً عاصفة حملها الهواء من بعيد ثم اذا هذه الأصوات تصيح :

— لبيك ، لبيك ؟

وتلا ذلك ضجيج في ماء النهر الزاخر ، ثم ارتفع صهيل الخيل في الفضاء حتى خرق آذان الرومان ، فرد الى الفتاة سكونها فبالغت في الاستغاثة وصاحت :

— الي الي ايها الرقود النيام ، فصاح الفرسان :

— لبيك ، لبيك ؟

فلم يشك هيباس في خطورة الموقف ، فجعل ينظر على ضوء القمر الى ناحية النهر فاذا هو يبصر فرساناً يخوضون الماء الطامي فريع وهو في موقفه والتفت الى رفاقه صائحاً :

— لنبتعد فان الخطر محدق بنا ؟

وفي اسرع من وميض البرق توارى هيباس وجماعته وراء الأشجار ، ولبثت الفتاة عن كثب من باب القصر وهي ذاهلة منكمشة حتى وصل الفرسان الثلاثة فرأوها فريسة البرحاء والألم .

وبينما كان اميه بن ابي الصلت جاثيا بالقرب منها اخذ هيباس وجماعته ينظرون الى الفرسان الثلاثة عن بعد ، فلما انكشفت وجوه الفرسان صاح هيباس :

— لقد عرفت منهم واحداً . . . نعم لقد عرفت ذلك الشاعر الذي يتردد على الغساسنة ، ثم رفع يده مهدداً متوعداً و ارخى لفرسه العنان فشقت به تلك الغابات الوارقة ولحق به رجاله .

وبعد قليل عاد الفرسان الثلاثة الى قصر البريص مع الفتاة هند وكان من امر هذه الفتاة في قصر عمرو ماعرفه القراء في الفصول السابقة ؟

تركنا الفرسان الثلاثة يخترقون طرق دمشق بعد خروجهم من الدير وكانت احاديث بحيرا لاتزال تترع نفوسهم بطائفة من الهواجس المتغايرة ، فقد كان بعض هذه الهواجس عذبا سائغاً في نفس حسان بن ثابت ، بينما بعضها كان يثير القلق والخوف في نفس امية بن ابي الصلت . ولم يحفل ابو سفيان كثيرا بتلك الاحاديث ولكنه لم يمنع نفسه ان تتأثر باحزان امية وكان يشجيه ان يقع بصره على يأسه ، ذلك اليأس الذي جرده من مباهج العيش وحرمه مناعم الدنيا !

وكان المساء قد ارخى ظله في تلك اللحظة ، واخذ الناس يتوافون الى بيوتهم مستروحين الى افيائها ، بعد ان صير قيظ النهار نفوسهم مكدودة ناصبة وبعد ان غشيتهم لفحاته المضطرمة .

وخلت الأزقة والاحياء من عابري السبيل فما عادت تحتوي غير الظلال الفاحمة التي تغطي الأفق وتحجب دراريه ولم يكن القمر قد طلع بعد ، فتوغل الفرسان الثلاثة في الطرق ، وراحوا يجتازون الاحياء البعيدة وابو سفيان في خلال هذا المطاف الدجوجي يقص على رفيقيه بعض الحديث عن اسفاره ورحلاته الى الشام والعراق ، ولعله قد اراد بهذه الأحاديث ان يحمل رفيقيه على نسيان بحيرا وكلمه ، بل لعله اراد ان ينزع من نفس امية تلك الخلجات الراعشة التي تبعثها في صدره ذكرياته في بصرى وفي دمشق .

ولم يكن يمل سرد الاقاصيص خاصة ما كان منها متصلا بالشباب ونزواته . والصبا وحماقاته وابو سفيان بعد في الثانية والعشرين ، لا يتبرم بالأهواء ولا يعافها فجعل يقص حكاية غرامه بفتاة اغريقية افتتن بها وافتتنت به وكان منزلها في ضاحية من ضواحي دمشق ، ثم قال :

كانت اللقاءة الأولى في صيف العام الماضي ، ولما سألت الفتاة عن اسمها ابت

ان تحسر عنه ، وفضلت ان تكون علاقتها بي سراً من الأسرار فأبيت عليها هذا الحرص وحاولت اكثر من مرة ان انتزع اسمها من فمها فذهبت مساعي في هذا السبيل سدى حتى علمت ان اسمها هيلانة .

علقت بي كما علقت بها وصيرها الحب ذاهلة مجنونة ، وفي ذات عشية اتيتها زائراً وهي ارقة ساهدة وللمرة الأولى راحت شفتاي تمس شفتيها فرعشت واذا بها وهي الفتاة الغفل الغريرة تنأى عني وتجفوني فلم ادر باعث نفرتها وسبب ازورارها، وفي غداة اليوم التالي عدت اليها ، فالفيتها على مثل حالها في العشية الفائتة، فجعلت تنظر الي مبهوتة شاردة اللب .

ورأيتني سعيداً بهذه اللقاءة المبتغاة التي كنت احسب الدهر تراخى عنها ، وتباطأ اليها ، ولكن ظنوني الهائمة حالت في تلك اللحظه الى يأس ، فلقد الفيت الفتاة عليلة مدنفة ، وهي تشكو من سعال يحبس انفاسها ، ويمنعها ان تفتح صدرها للهواء فجعلت اسألها عن هذا الذي تشكوه ، فلم تنبس واخذت تنظر الي بعينيها الضحوكين العابثتين وهي ابداً ذاهلة كأنها سكرى .

لها الله من تاعسة ، لقد اسمعتها كثيراً من كلمات الحب ، فما اصاخت ، كأنما كانت في غرق تتهاوى نفسها في لججه العابسة ، ثم تركتها آملا ان يبدلها الغد ولكن هذا الذي املته ورجوته لم يتحقق فلقد زرتها في عشية اليوم التالي وحاولت ان ادخل حجرتها رجاة الاستمتاع بأحاديثها ، وشد ما كان جزعي حينما علمت نبأ موتها من خادم هرم كان يسهر عليها ، فما ترددت يومذاك في الرجوع الى البيت الذي يحتويني في الضاحية !

وعلى هذه الصورة مات حبي الذي ولد في دمشق ، وهو لايبرح في المهد ، فخامرني يأس شديد ووجدتني مكرهاً على ترك دمشق ، وكانت قوافل ابي قد خرجت من المدينة قبل ليلة فلحقت بها وعدت الى مكة ، ولا يزال ذكر هذه الفتاة البائسة يروعني ويستثير خواطري .

كان ابو سفيان يتكلم بلهجة تنم عن انفعال نفسه وشجوهـــا فتركت قصته في رفيقيه ذلك الأثر الذي توخى بعثه ، فتناسى امية احاديث بحيرا, واقبـل ينصت الى كلمات ابي سفيان الشجية .

وبينما كان ابو سفيان يقص حكاية هذا الحب القصير العمر طفق حسان يستعرض الصور التي بدت له في قصر عمرو بن الحارث ، فذكر مـارية ، وعرضت له ذكرى هند كما عرض له ذلك هذا التماثل الغريب في خلقة الفتاتين ؟

ثم ذكر حكاية هند وهيباس ، فراح الى نفسه يسألها عن معنى هذه المشاهد المتشابهة المنسجمة ! ثم اوغل في تفكيره وتأملاته ولم يستفق منها الا على صـوت يعصف في غسق الليل فانتبه الى هـــذا الصوت الذي اخذ يتضاعف ويشتد حتى خالطته اصوات عدة فصاح :

— يالهذه الأصوات التي يرددها الهواء ، فهز صياحه ابا سفيان وامية ففطنا الى الأصوات التي اخذت تتعالى وتشتد فجعلا ينصتـان اليهـا والطريق عاطل من رواده ، والليل منشور الذوائب ، والكواكب متوارية خلف سحاب فاحم وليس في هذه النواحي غير حفيف الورق وغير وسوسة المياه .

امتنع الفرسـان الثلاثه عن السير ، وطفقوا يحدقون الى ناحية الأصوات فقـــال اميه :

— ليس في هذه الأجراس الهامسة في غسق الليل ما يروق فأولى لنا ثم اولى ان نعبر الطريق التي اعتاد الناس عبورها وهي طريق لاتغطيها الأشجار ولا تلتف بها هذه الغابات الكثيفة !

فقال ابو سفيان :

— ولكني مضطر الى عبور هذه الطريق الوعرة لأدرك قوافلي قبل ان يشتد حلك الليل ، لماذا نحس هذا الفرق ونحن ثلاثة لا يخطئون اذا صوبوا سيوفهم الى الصدور؟ وفي تلك الفينة خرج من خلال الأشجار بعض الأشباح !

فالتفت ابو سفيان الى يساره فرأى ستة من الفرسان يتقدمهم فارس متلفع برداء اسود فضفاض يتدلى على قدميه ، فأدرك الفرسان الثلاثة انهم سقطوا في كمين ولكنهم لم يفقدوا رباطة الجأش فاستلوا سيوفهم وصاحوا :

— من القوم ؟

وكرر ابو سفيان هذا النداء :

— من القوم ؟

فلم تبد من المغيرين حركة ولكن زعيمهم صاحب الرداء الأسود ما لبث ان تقدم من ابي سفيان وقال له :

— احترس ايها السيد ان تخطو خطوة واحدة الى الأمام فأن رجالي يقيمون على حراسة الطرق والمنافذ ؟

من انت ؟

— ستعرفني بعد قليل .

ثم انحى ناحية رجاله وقال لهم : انطلقوا بهؤلاء الثلاثة الى البرج فأنهم غرضنا في هذه الليلة .

فاحمرت عيون الفرسان الثلاثة من الغضب وهزوا سيوفهم في لحمة الليل فأذا لها بريق يخطف الأبصار وصاح ابو سفيان :

— امهددي انت وانا فتى قريش ؟ واراد المغيرون ان يحدقوا بالفرسان الثلاثة فتراجعوا مذعورين لأن ابا سفيان عاجل احدهم بضربة على رأسه فهوى عن فرسه الى الأرض ، وانثالت دماؤه على الأديم ، فاستثار مشهدها حماسة زعيم المغيرين فصاح برجاله :

— ويلكم فيم هذا الخوف الذي عقل السنتكم وحطم ايديكم ؟

وفي تلك الأثناء سقط جريح آخر تحت طعنات حسان بن ثابت وكان امية بن ابي الصلت لايزال يفرق المغيرين الذين راحوا يتألبون عليه .

قال ابو سفيان لزعيم الرومان ! من انت ؟ فصاح هيباس :

— الم يطرق سمعك اسم هيباس ؟

— هيباس ، هيباس؟ أأنت هو بطل تلك الليلة الجاهمة ؟ بالك من لص ضم الى اعتدائه على النساء جريمة الاعتداء على عابري السبيل ؟

— لقد قفوت اثرك كثيراً حتى رأيتك في هذا الصباح وانت في طريقك الى الدير فأثارت سحنتك بغضي وغضبي . فهل لك ان تحسر عن معنى هذا الهذيان الذي حفزك الى الدفاع عن تلك الفتاة ؟

— ويحك ! أبلغ من صلفك وكبرك ان تحسب الدفاع عن امرأة ضعيفة والهة عبثاً وهذيانا ؟ الافاعلم انني لا احب لك موت الجبناء الأنذال ؛ حتى لا يقال في الغد ان ابا سفيان بن حرب اراق دم رجل عاثر الجد فجرد سيفك واستعد للمنالجة .

— ولكني قائد الجحفل الجرار ! ! !

— ضيعت فخرك ونبلك في اعتدائك على امرأة على حين ليس من شيم المغاوير الذين يسوقون الجيوش الى المعركة العابسة المكفهرة متلذذين بجنى النصر وروعة الشرف ان يخسروا رواء المجد في ساعة جنون وحمق !

— انك لتبالغ في العبث بكرامتي !

— ولكنك بالغت في الزراية بعفاف امرأة ، فهات سيفك ان شئت ، او انطلق في سبيلك ؟

— لن ابرح مكاني حتى ارد اليك اهانة لحقت بي !

— دافع اذن عن نفسك .

ثارت ثورة هيباس قائد الرومان فاستل سيفه وتراجع قليلا الى الوراء ثم تقدم مصوباً ذباب السيف الى صدر ابي سفيان ، فراحت طعنته في الهواء ، فمضى ابو سفيان يقهقه وانثنى قائلا :

— يخيل الي انك لاتحسن المقارعة !

كاد هيباس يجن من فرط الغضب فأستأنف مقارعة خصمه ولكن في غير جدوى فقد عرف ابو سفيان كيف يتقي الضربات التي انهالت عليه دراكا واخذ الأموي الكبير يقول :

ـ انك عاجز عن النيل مني ، وقد قلت لك منذ حين ان سيفي لاينال الرجل العاثر ، اذن فانطلق في سبيلك !. . . .

ـ لن ابرح مكاني قبل ان تطمئن نفسي الى موتك !

ـ لقد امتلأ الأديم بجثث رفاقك فهل لك ان تتقي هذه الريح التي عصفت بهم حتى جعلتهم كالهشيم ؟

فالتفت هيباس الى ناحية النهر فاذا طرفه يقع على الجرحى الذين اخذوا يصيحون من الألم ويلحون في البث وينادون :

ـ الماء الماء ! فقال ابو سفيان :

ـ يا للتعاسة انهم يموتون عطاشاً !

ـ الماء الماء ؟

وفي تلك الأثناء اشرق القمر لحسر عن تلك البطحاء ، وكشفت انواره جنبات النهر الفائر الثائر ، واخذ هدير الماء يعصف في سكون الغسق ثم راح مختلطاً بهزيم الرياح ! فحاول هيباس ان يجرب التجربة الأخيرة ، فطعن ابا سفيان طعنة رابعة ولكن هذه الطعنة ذهبت في الهواء لأن ابا سفيان تزحزح قليلا عن فرسه ثم عاد فاستوى وحمل على هيباس قائلا :

ـ احذر ان يمسك سيفي !

ثم طعنه طعنة خرقت صدره ، فانثال دمه على ردائه الأسود وخرجت من صدره زفرة عميقة ضاع لها صوابه ، فأطلق لجواده العنان الى ناحية النهر وهو ذاهل ، فوارته سدفة الليل وحجبته ظلاله الفاحمة .

انتهت تلك المعركة الحامية التي خاض غمارها امية وحسان بتراجع رجال

هيباس بعد ان خسروا ثلاثة من رفاقهم ، فأخذ هؤلآء الاشقياء يركضون في تلك البطحاء وهم لايدرون معاذهم ومعادهم بعد ان تملكهم الروع والخوف .

لقد كان طبيعياً ان تحرك هذه المشاهد المؤلمة من عواطف الفرسان الثلاثة وان توقظ فيهم شعور الرحمة والشفقة . فصاح ابو سفيان :

— لهم الله من تاعسين !

فصاح حسان : بالبؤس ! لقد راحوا الى ناحية النهر ! . . . الا ترون اليهم كيف خاضوا موجه الهادر ؟

وراح الفرسان الثلاثة في تلك الأثناء على ضوء القمر هيباس وقد همّ بألقاء نفسه الى اللجج المتدافعة الثائرة بينما كان رجاله يهيمون على وجوههم في تلك الأنحاء المقفرة . فصاح ابو سفيان :

يا للتعس ! الا ترون اليه وهو يحدق الى الماء كالمجنون ، انها لخاتمة فظيعة ، ما كنت احبها لهذا الرجل،وكان الألم قد افقد هيباس عقله وشعوره فرمى بنفسه الى النهر فاحتواه الماء، وغيبته اللجج الثائرة المتدافعة . فتقدم الفرسان الثلاثة من الضفة واخذوا ينظرون الى ذلك المشهد الحافز ، وجعل جواد هيباس يكافح المياه وهو لايستطيع افلاتاً من عناصر الماء الجائشة . .

يالهذا الحيوان المسكين . . لقد كان اربط جأشاً من فارسه على مكافحة التيار ، فلم يشأ ان يموت تلك الميتة المخجلة . فلج في الصياح حتى ترامى صوته الى الأنحاء البعيدة ، ثم خارت قواه ولم يعد قادراً على الكفاح فاستخذى لتلك العناصر المهتاجة واسلم نفسه لليل الغرق البهيم بعد ان ملأ الفضاء نشيجاً ولحاماً وصريراً . .

ولما احتواه الماء واشتملت عليه تلك الأزباد المغتلمة اخذ القمر يريق اشعتهعلى النهر الذي راح يسكن ويصفو بعد تلك المأساة . .

وكانت النظرة الأخيرة التي التي بها الفرسان الثلاثة الى النهر فياضة بالحزن والألم فلقد حدثت هذه المأساة الشجية على الرغم من ارادتهم ، وربما كان في هذه

الكلمة البليغة التي رثى بها ابو سفيان هؤلآء الصرعى علامة صادقة على ثوره من هذا المشهد الأليم فقد جعل السيد الأموي ينظر الى هـــذا المشهد الراعب وهـــو يهمس :

ــ لهم الله من مناكيد !

ثم التفت الى رفيقيه قائلا :

ــ لنلحق ببصرى قبل انبلاج الصبح .

والقى نظرة ثانية على النهر الذي سكنت ثورته وهدأت فورته وصاح :

ــ الى الملتقى ايها الربوع الجميلة .

واستأنف الفرسان سيرهم حتى بلغوا المرابض التي عرست فيها القوافـل وكان الليل شديد التعتيم ، والرياح سجواء ساكنة ، والناس غرقى احلام واوهام .

* * *

تحركت القوافل في مطالع فجر اليوم التالي فانبسطت خطاً ممتداً من باب دمشق الشرقي الى الغوطة ، وبينما كان رجال القوافل يلهون بأناشيـــد الصحراء الليلية التي الفوها في اسفارهم ورحلاتهم البعيدة اخذ الفرسان الثلاثة يتقدمون القوافل واجمين ملتاعين ؟

الفصل الرابع عشر

الملك المنذر

بعث يوستينوس الثاني صاحب القسطنطينية بكتاب الى الملك المنذر بن الحارث الغساني كتب له فيه « لقد صليت في كنيسة اياصوفيا من اجلك فسألت الله ان يعقد لك لواء النصر في المعارك القادمة ، وانا آمل في مضاء سيفك وقدرتك على طرد الفرس من بزنطية » .

« وليس هذا كل مارجوه . بل ان هنالك امنية عذبة طالما صبوت الى تحقيقها ، تلك هي امنيتي في الاجتماع اليك والى ولديك الغاليين » .

فكتب المنذر الى قيصر الرومان كتابا رقيقاً جدد له فيه عهود الصداقة التي وثقت في الماضي ما بين الحارث بن جبلة ويوستانيوس الأول وقال له فيه « وليس لي ان ازيد على كتابي هذا سوى مشاركتي لك في الصلاة والدعاء لأن عدونا قوي ومتكبر . »

« وقد يكون من اجمل اماني وارضاها الى نفسي ان تفسح لي الايام في المجيء الى القسطنطينية مع ولدي » .

لما تلقى المنذر كتاب قيصر كانت جيوش النعمان بن المنذر ملك العراق المعروف بأبي قابوس وصاحب النابغة الذبياني الشاعر ضاربة قبابها في الصحراء بين العراق الشام ، وكان بعض هذه الجيوش يرابط على اطراف تدمر تحت قيادة قابوس بن النعمان ، فما تردد ملك غسان حيال هذا الخطر في تجديد عهود الصداقة لقيصر وهو الذي لايجهل العوامل التي حملت النعمان ملك الحيرة على اجتياح البلاد المتاخمة حدود الشام ، ولبعض هذه العوامل صلة بقتل المنذر بن ماء السماء اللخمي في معركة عين اباغ التي انتصر فيها الغساسنة وحلفاؤهم الروم على ملك الحيرة .

وبينما كانت قوافل ابي سفيان تدخل الى بصرى في طريقها الى الحجاز اذا المنذر

يتأهب لدخول دمشق في موكب فخم لا يماثله في روائه وبهائه غير موكب قيصر وكان الملك المنذر يجري على سنن القياصرة في البذخ والترف واحاطة مواكبه بالفرسان والأمراء وهو على شجاعته وبسالته بر بذويه شديد الحدب على افراد اسرته لا يطمئن الى عيشه الا اذا خالطهم واجتمع اليهم وانصت الى احاديثهم وشاركهم سراءهم وضراءهم وكان احب ذويه اليه عمرو بن الحارث صاحب قصر البريص في دمشق وجبلة بن الأيهم (١) صاحب قصر « الشعراء » في الغوطة .

لما تلقى المنذر كتاب قيصر جمع اليه الجيوش وعقد الويتها على ابناء عمه ولكنه لم يشأ ان يغامر براحة جبلة بن الايهم وعمرو بن الحارث بل آثر ان يخلد هذان الشابان الى مراحهما وقصفهما في مراتع دمشق ومسارح الغوطة ثم قدم دمشق في موكبه الفخم فاجتاز اسواقها تحت ثلاثين قوساً من اقواس النصر ونزل في تلك الليلة ضيفاً على ابن عمه عمرو في قصر البريص .

وكانت مأساة هيباس ورفاقه في ذلك الليل حديث الناس في انديتهم وبيوتهم ومجتمعاتهم .

وحكاية ذلك ان مياه النهر رمت بجثة هيباس الى الضفاف فابصرها بعض القرويين الذين كانوا يزرعون في بساتينهم فحملوها الى قصره حيث عرضت في حجرته امام بطارقة الروم وفرسانهم .

وكان اثر هذه المأساة شديداً في نفوس الروم ولكن قيصر الذي كان مسوقا الى مصانعة المنذر الغساني لم يشأ ان يبحث في الاسباب التي ادت الى موت قائده مخافة ان يستثير عاصفة الأستياء في صدر الملك المنذر الذي عرف بكرهه هيباس ، وربما كان قيصر يرمي تبعة هذا الموت على المنذر او على رجال قصره ، ولكنه آثر الصمت والتغاضي استبقاء لصلات الود وحرصاً على اواصر الزلفى في زمن احدقت خطوبه بالروم ، ونزلت رزاياه بساحات ملكهم الضخم ، بل في زمن

(١) هو جبلة الخامس جد جبلة بن الايهم السادس آخر ملوك غسان .

الدعوة الى خلع الرق في بادية الشام .

وماذا يستطيع قيصر ان يفعل والفرس يتوغلون في صميم بلاده ، وملك الحيرة مشرف على منافذ الشام ومداخلها ، وقواده يختلفون على الغنائم في افريقيـــة وفي غيرها من اجزاء العالم ؟

ماذا يستطيع قيصر ان يفعل وهؤلاء الذين احتوتهم الشـام ، واشتملت عليهم حوران والبلقاء وبادية العرب يتبرمون بسلطان الرومان .

بل اي جداء يجنيه من التنكر للمنذر ، وارض الشام لاتقره على هذا التنكر ، ثم هو لايزال يشعر بحاجته الى سيوف الغساسنة واصطناعهـــا في محاربة الفرس وحلفائهم الحيريين .

كان قيصر يعلم كل ذلك فما وسعه الا ان يشيح بنظره عن العـاصفة مخافة ان تجرفه رياحها العاتية .

* * *

لما نزل المنذر بقصر البريص لم يسأل عن البواعث التي ادت الى مصرع هيباس وكان في حاجة الى الترفيه عن نفسه من عناء السياحة بين بصرى والشـام فاعتزل الضجيج في حجرته وفضل ان يفيء الى ظلالها ، وفي غضون ذلك كان عمرو بن الحارث عن كثب من الشرفة المطلة على جنة القصر بالقرب من الفتاتين مـارية وهند ، وقد طفق يتحدث الى الفتاتين عن مصرع هيباس وهو لايدري كيف مات على تلك الصورة البشعة ، فاخذت الفتاتان تنصتان اليه ، وهما في مثل حيرته وذهوله .

قالت مارية :

— اذن فانت ترى ان هيباس لم يمت غرقا ؟

— نعم ويخيل الي ان اعداءه القوا بجثته الى النهر بعد ان قتلوا ثلاثة من رجاله

— الم يعثروا على قاتليه ؟

— كلا والغريب ان قيصر الذي تلقى نبأ مصرع هيباس وهو في حمص لم يهتم

بهذا الحادث ، بل تغاضى عنه وكان الناس يأملون ان تثور ثائرته لهذه النهاية البشعة التي صارت اليها حياة هذا الخليع .

ـــ اتعلم السبب الذي حمل قاتليه على قتله ؟

ـــ لقد طوى هذا الرجل في دمشق حياة كلها لذاذة وحب وعبث فليس شك انه اراد العبث بكرامة فتاة طاهرة بريئة لم يطق ذووها سكوتا حيال عبثه فراحوا ينتقمون منه ، الا تعلمين ياماريه اي بغض يحسه الناس حيال هيباس واي نفرة تخالط نفوسهم منه ؟

لقد كنت واثقاً من هذه النهاية البشعة لأن البغي وخيم العاقبة ، قال عمرو ذلك وهو يواري عينيه بكفه كأنما قد عرض له مشهد لايحبه فسألته ماريه قائلة :

ـــ ماذا ؟ أفي نفسك شجن تخفيه ؟

ـــ لقد رأيت هيباس في حجرته وهو مسجى على فراشه ، فوقعت عيناي على مشهد فجيع غرس في نفسي كثيراً من الوجل والرعب فلقد شهدت خلقة هيباس المشوهة وعينيه المطفأتين وسحنته المنكمشة المنقبضة ، فرحت اسأل نفسي « اكان التشويه من عمل الانسان ام من عمل الديان ؟ » وفي الحقيقة ان امواج النهر الجائشة هي التي تركت آثار هذا المسخ في ذلك الوجه الجميل الذي كان موضع فخر صاحبه !

فابتسمت هند ابتسامة خالطها بعض الحزن وقالت :

ـــ الم اقل لك ان في السماء ربا عادلا ، وان القصاص مهما تباطأ فانه يسرع في ركضه في الساعات الأخيرة ، فلو لم يكن هيباس ظالما وعاتياً لما مات هذه الميتة البائسة ، بل لولا اسرافه في الظلم والبغي لكان خليقاً بميتة مجيدة فخمة ، لقد انتقم الله لي ، ولكنه ابى ان تصبغ يدك الرحيمة بنجيعه ، فسلط عليه اناسا لا يغتفرون اساءة مذنب ملحف في اجتراح الذنوب وكفاني الله بموته شر فتنة عمياء بين قومي قد تذهب بالصالح والطالح . .

فقالت ماريه :

— كنت خائفة من هيباس فان هذا الطاغية النذل مضى يفكر في ثلم كرامتي ، وامتهان عفافي ، ولقد شهدته اكثر من مرتين يروح ويغدو حول جنة القصر في كل العشيات التي كنت اطمئن فيها الى سراح النفس ومتعها فكنت اعود الى حجرتي جازعة مرورة . فيسألني عمرو في بعض الاحايين عن بواعث الألم الخفي الذي يقرض نفسي ، ويقوض صروح هنائها ومراحها ، فكنت اتحاشى ان اثير غمامه وشجونه حتى لايغامر براحته ورغد عيشه ، وحتى لايعرض نفسه لأسواء لااريدها له .

ولبث هيباس زمناً وهو يروح ويغدو حول القصر كأنما هو يريد ان يهتبل الفرص السوانح لاختطافي ، وفي بعض الاحايين كنت اخلو الى نفسي فاستمع الى خفق قلبي ونشيجه وانا ابدأ مروعة جازعة فكان عمرو يسألني « لماذا انت ذاهلة ؟ بل لماذا انت في هذا الغرق الذي يعريك من احساسك وشعورك ويمنعك ان تفكري في الهناء والراحة ؟

لقد استطعت ان أخنق في نفسي تياراتها العاصفة الى ذلك المساء الذي هاجمك هيباس تحت سدفته ، ثم ابى الله الا ان ينتقم لي ولك معاً في امدواحد

فبهت عمرو والتفت الى ماريه قائلا :

— اكان هيباس ينزع الى اختطافك ؟

— نعم نعم

— اذن فذلك الشجن البليغ الذي غطى آفاق الحياة امام عينيك منبعث عن هيباس ؟ لماذا كتمت عني هذه الحقيقة ؟ اكنت لاتثقين بقوتي وحمايتي لك ؟

— ما كنت أشك في قدرتك على حمايتي ، ولكني كنت ضنينة براحتك وراحة هؤلاء المغاوير من فرسان غسان ، وكنت عالمة بهذا الجفاء الذي يباعد بين الملك المنذر وقيصر ، فلم اشأ ان يمتد عهده والآن وقد انتقم الله من الطاغية فلا بأس من نسيان مآسي الماضي وتباريحه ، واحمد الله على ان الجفاء قد زال بين الملك المنذر

وقيصر ، بل احمد الله على انقراض اسباب الجفاء وكان هياس بعض هذه الاسباب

قالت ماريه ذلك وقد اشتد شجنها وانفعالها وتملكتها هزة كادت تقوض صروح عافيتها فاخذت تسعل سعالا ممضاً مذيباً فاحتبسها عمرو بين ذراعيه وهو جازع وقال لها

— انك لاتزالين عليلة كما كنت قبل ايام ، ويلوح لي ان رطوبة الصباح قد اثرت في صدرك كثيراً حتى اصبحت لاتستطيعين البقاء طويلا امام هذه الشرفة فخير لك اذن ان تدخلي حجرتك

— ولكني احب الازهار ، واحب الاطيار

— ومرضك هذا ؟ الا تخشين ان يفضي بك طول وقوفك حيال النافذة تحت الهواء الصارد الى خطر حقيق؟ اي هند ساعديني على اقناعها بالرجوع الى غرفتها، فما ترددت هند وهي الفتاة الرقيقة الحادبة التي وجدت في غسان ذلك الملجأ الوادع القرير في تلطيف كرب ماريه وتخفيف شجنها وحملها على ترك النافذة ولما عادت ماريه الى حجرتها بين ذراعي عمرو وهند ، كان الهواء الرطب قد ترك اثره في صدرها فجعلت تسعل سعالا كاد يقطع حشاشتها فكادت اكثر من مرة تقع على حضيض الحجرة لاتصطحب وعيا

لله هذا الذي في نفس عمرو ، فلقد كان ينظر اليها شاجناً والهاً ، دامع العينين ، وكان يحدثها في كثير من الرفق والدعة حتى يرد الى نفسها مراحها ورغدها ، وحتى لاترى في افق الحياة تجهما وعبوساً

ولم تعد للحياة في نظر عمرو تلك المظاهر الخالبة الفاتنة وكيف تكون للحياة مظاهر خالبة فاتنة ومارية مدنفة عليلة ! اليس الحب عالماً يمور بالانسة والفرحة !

الا يعيش المحبون في هذا العالم عيشاً لايخالطه تبريح وألم ، واذا اعتل عالم الحب ودب اليه الوهن ، افلا يعتل هؤلاء الذين يعيشون فيه مرحين وادعين !

يالله ! لقد كانت بضعة ايام من اسى بليغ كافية لامراع الحب بالصور البشعة والرسوم الكامدة التي تتضاءل فيها الوان الحياة ومفارحها

وتلك الفراشة الجميلة ذات الالوان الزاهية المتوردة ، لم تعدلها قدرة على الطواف حول لألاء الحياة لانها اصبحت تخاف الأحتراق كلما أرادت استشراقا بذلك اللألاء

ومن قبل كانت هذه الفراشة الملونة تنهد من وكرها في الصباح الباكر لتحوم حول انواره ونواره في الغياض والمنابت بين زهر ندي اختلفت الوانه وتقاصرت هنا وتطاولت هنالك افنانه .

ومن قبل كانت هذه الفراشة مرح الحديقة وانسها ونعيمها وكانت لاتعاف ان تفتح صدرها للهواء النقي يروح ويسري ا ولا تمل ان يلاعب شعرها المرسل نسيم معطر عابق الجنبات

ازدحمت هذه الخواطر المتوثبة في صدر عمرو فراح يهمس في نفسه :

— ليس في هذه الصورة التي استعرضتها روح الصحة ولا نضارة الشباب اواه ا لقد اطفأ الضنى نور عينيها ، ولكنه تخاذل عن اطفاء احساسها ! لك الله ايتها الحبيبة التي واريت في غسق احزانها واشجانها شمس سعادتي ا

وانثنى عمرو اليها وهو يتعمل الابتسام وقال لها :

— انك ستكونين اوفر هناء في القسطنطينية ياماريه !

فالتمع وجهها واشرق وهزتها كلمات عمرو فقالت له :

— اذن فسنترك دمشق ؟

— نعم نعم سنتركها وسنعيش طويلا على تلك الضفاف الساحرة التي انبثق بحرك في افقها المصحي ، اتحبين القسطنطينية كثيراً يا مارية

— احبها احبها

— هدئي روعك فسيكون طوافنا بها قريبا ؟

— وهند ؟

— انها لن تفارقنا ؟

فاشرقت اساريرها ، وتفتح في جبينها الناصل ذلك الزهر الذي كان علامة

الحياة في نفسها وامحى ذلك السعال الذي هدها فما عاد صدرها يرتفع ويهبط تحت وقره الأشد ثم التفتت الى هند التي اشجاها هذا المشهد الحافز وقالت لها :

— الا يغبطك ان تعيشي بيننا في القسطنطينية ؟

— لن افارقك وساكون لك اختاً بارة ورحيمة !...

— ثقي ان قيصر لا يضن عليك بدروع ابيك

— وانت ثقي بحبي وعطفي وشفقتي، اواه ! كلما خلوت الى نفسي وسألتها عن رغباتها وطمحاتها خيل الي ان بين هذه الرغبات ما يدفعني الى البقاء بجانبك لأن المي يماثل الملك ولأن خلقتي تشابه خلقتك ولأن بعض هذه الرغبات يدفعني الى اتمام واجبين خطيرين للاول صلة بتلك الدروع التي استبقاها السموأل بن عادياء لديه وللثاني صلة بحجي الى تلك الجبال المقرورة التي مات فيها امرؤ القيس نائيا عن الاحبة والاهل !

فقال عمرو

— سنذهب معا الى تلك الجبال التي لفظ امرؤ القيس روحه بين هضباتها الشوامخ

فصاحت هند

— قل لي ناشدتك الله اتعرف قبر ابي ؟

— كلا ولكني علمت حينما كنت في القسطنطينية ان اباك مات في انقرة من بلدان الروم فشجي يوستنايوس قيصر لهذا الموت كثيرا لانه كان يحب امرأ القيس ويعجب بفروسيته وشعره ، حتى بلغ من شجو قيصر وانفعاله ان دعا اليه النحات روزاس فامره بصنع تمثال للشاعر !

— ولكن هنالك احاديث كثيرة حول موت ابي فان بعض العرب الذين صحبوه الى القسطنطينية راحوا بعد عودتهم ينشرون في القبائل اخبار أمروعة عن موته ، فهم يؤكدون ان ابي لم يكد يستقر في القسطنطينية حتى لحق به

رجل من بني اسد يقال له الطماح كان امرؤ القيس قد قتل اخا له من بني أسد فاقام الطماح في القسطنطينية مستخفيا حتى تسنى له ان يصل الى قيصر فقال له ان امرأ القيس غوي عاهر ، وكان يراسل ابنتك ويواصلها وهو قائل في ذلك اشعاراً يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك فبعث قيصر الى امريء القيس بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له اني ارسلت لك بحلتي التي كنت البسها تكرمة لك فاذا وصلت اليك فالبسها باليمن والبركة واكتب الي ، فلما وصلت اليه لبسها واشتد سروره بها فاسرع فيه السم وسقط جلده (١) فهل صحيح هذا الذي يقوله الناس حول موت ابي؟

فاطرق عمرو وجعلت ماريه تنظر تارة الى وجه هند الممتقع وتارة الى وجه عمرو المتأمل ثم رفع عمرو رأسه واردف:

— لقد مات يوستانيوس صاحب امريء القيس وصديق الحارث بن جبلة فمات ومعه سر هذا الموت

— الا استطيع ان اجتمع في القسطنطينية الى تلك الاسرة التي كان امرؤ القيس يعيش بينها ؟ ....

— في قدرتك ان تجتمعي الى هذه الاسرة فتسأليها كيف كانت صلة امريء القيس بقيصر فاني اعرف عجوزاً شمطاء تدعى ليلى كانت مصطحبة الحارث بن جبلة الى القسطنطينية ومعه امرؤ القيس يومئذ ؛ فهذه العجوز التي كان الشاعر يتردد اليها في كثير من الاحايين تعرف عن حياته اشياء كثيرة واعتقد ان في قدرتها ان تكشف لك عن سر موته

فصاحت ماريه مشدوهة

— ماذا تقول ؟ اتعرف ليلى الساحرة ؟

— لقد كان يجب علي ان افطن الى هذه الاحزان التي كانت تساوركم منذ

---

(١) الاغاني الجزء الثامن

— نعم فماذا الذي يذهلك في هذا الامر فهل كنت تعرفينها انت ؟

— اواه ! انها المرأة الوحيدة التي عرفتها في هذا العالم وقد كنت اراها من حين الى اخر عند قيصر

— اهذا كل ماتعلمينه عنها ؟

فاطرقت ماريه ولم تنبس

— تكلمي !

— اي غنم لك في حديثي عن هذه الشمطاء التي تعرف الشيء الكثير من امر حياتي ثم تضن علي ببعض الحقيقة التي تعلمها ، وددت كثيراً لو اني استميلها الى حزني والتياعي لعلها ترق وتلين فلا تغرق في اخفاء ماتعلم ، ولكنها كانت كالليل في سكونه وصمته ، وكاللجة في ضؤولة اسرارها !

— اكنت واثقة من انها تعرف شيئا عنك ؟

— نعم فقد كانت ليلى الشمطاء امرأة خفايا واسرار وكان يوستانيوس يحترمها ويبالغ في ايثارها ويرجع اليها في بعض ماله صلة بحياته الخاصة ، وبعض ماله صلة بعرشه !

ولما مات يوستانيوس وخلفه يوستينوس لم تفقد ليلى شيئا من ذلك العطف الذي كانت تلاقيه في القصر لان قيصر الذي يحب الحياة كثيرا ويعبدها كثيرا كان يتحدث اليها في شؤون القلب والعاطفة فقالت هند

— الاتزال هذه العجوز صلبية قوية كما تعهدين؟

— هي ابهى شبابا من الشمس واقوى من الابد كأن الشيخوخة الذاهبة لم تمس تلك البقايا المقدسة الدالة على الشباب والقوة والعافية . . انها تتكلم ولصوتها عذوبة الماء وتجيد الكلام بلغة الروم حتى ليخيل الى سامعها انها رومية الاصل ، وان كان الناس يذهبون الى انها من صميم بلاد العرب فتنهدت هند كأنما هي وجدت عزاء في هذا الذي تقوله مارية وانثنت قائلة

ـ سأراها وسأجتهد كثيرا في الوصول الى اعماق نفسها بلى وساسألها ايضا عن امريء القيس وعن ايامه الاخيرة في القسطنطينية ، آه . . قولي لي ايعرف هذه الساحرة خلق كثير ؟

فقال ماريه

ـ انها متصلة بجميع البيوت الشريفة في عاصمة قيصر ويسميها الذين يختلفون الى زيارتها بائعة الحب لانها تهب الحب اولئك الذين عسر عليهم ان يجدوه في بيوتهم ومنازلهم فلم يروا ندحة عن الركون اليها

اما انا فلست في حاجة الى حب ولكني اريد ان اتحدث اليها في شؤون ما برحت مثاراً لحماستي

وقطعت هند حديثها فجأة واخذت تنظر الى ناحية الباب كأنها سمعت همسا ثم لم يعد ذاك الذي سمعته همسا بل اصبح صوتا عاصفـا ولكنه صوت حلو النغمة عذب المذاق، وخرق هذا الصوت سمع عمرو فالتفت الى ناحية الباب صائحا

ـ لقد استيقظ الملك

ـ ابن عمك ؟

ـ نعم ، فلقد وصل الملك امس الى دمشق مكدودا ناصبا فما وسعه الا ان يستريح ، وهم عمرو بالخروج من الحجرة ولكنه تراجع امـام المنذر الذي دخل الحجرة في تلك الفينة فنهضت ماريه احتراما للملك وجارتها هند في نهوضها وتقدمت الفتاتان من المنذر مطرقتين خاشعتين !

كان المنذر بن الحارث بن جبلة ملك غسان وسيدها في الثلاثين من عمره يروع الناظر اليه رأس بديع فوق نحر ابيض محبب ووجه مستدير تزينه ملاحة ناعمة ، وانف اقنى ، وفم رائع الابتسامة ، ساحرها ، واجمل مافي وجه المنذر عينان ساجيتان صافيتـان سوداوان تنضحان عذوبة ورحمة وحبا بل اجمل مافي هذه الصورة البديعة تلك الضفائر التي راحت تهدل على منكبيه

وكان لباسه الانيق الموشى ينم عن حياة رافهة راغدة ونعيم لا يخالطه بؤس وملك ضخم عزيز ، وصلف يزينه ادب النفس وتواضعها وحلمها

وكان يجري في بذخه على سنن الروم ويساوقهم في الاستعلاء والفخر حتى راح الذين عرفوه ينعتونه بقيصر الشام

***

لما وقعت عينا المنذر على هند ضحك لها وقال

— ماذا أأنت هنا منذ زمن طويل ؟

لحنت رأسها مستحيية وقالت

— لقد تركت بصرى منذ اجتمعت اليك في القصر الابيض

— اذكر ذلك جيداً ، واذكر انك كنت تتحمسين في حكاياتك التي جئت تقصينها علي وانا في بصرى وكنت تتكلمين على امريء القيس بمثل تلك اللهجة العالية الفخمة التي تكلم بها امرؤ القيس على ابيه حجر يوم نهض مطالبا بدمه ، وددت كثيرا لو اني استطيع ان ارد اليك دروع ابيك ولكن قيصر استبقاها لديه على انني موقن بان قيصر لا يأباها عليك ، فاني سأتحدث اليه في امرها حتى ترد الى اسرة امريء القيس الذي احبه الحارث بن جبلة

ثم التفت الى ماريه وقال لها

— لا تزالين منذ تركت القسطنطينية مكفهرة السحنة ، كأن عيشك المخضل الأملس في هذا القصر لا يروقك

— مولاي ...

— يخيل الي انك مدنفة عليلة فهل يزعجك جو دمشق الى هذا الحد ؟ لا بأس ان ترافقي عمراً في رحلته القادمة الى القسطنطينية فلعل جوها البديع يرد اليك مرحك ونشاطك

ثم شخص الى عمرو قائلا

ـــ اي عمرو الوديع ، لقد الهتك ماريه عن الاحبـة والصحب والاهـل حتى نسيت المنذر، فخنت ماريه رأسها وهي اشد ماتكون خجلا وتابع المنذر حديثه قائلا

ـــ قل لي الا يزال جبلة ابن عمنا في غوطة دمشق

فقال عمرو :

ـــ لم اره منذ عودتي الأخيرة من القسطنطينية ويخيل الي انه لايحب فراق هذه المغاني الوادعة التي يفضلها على غيرها من مغاني الشام

ـــ ان الحياة في قصر « الشعراء » جميلة ماتعة لاسيما اذا كانت زاخرة بشعر حسان قل لي الا يزال هذا الشاعر الفذ في دمشق ؟

ـــ لقد برحها منذ ليلتين

ـــ لعله قد شخص الى قصر الشعراء في داريا ؟

ـــ لاأدري

ـــ ايبرح حسان دمشق ولا يقصد الى قصر الشعراء ؟! اكاد لااصدق هذا الذي تقصه علي ، فلعل الشاعر مل صحبتنا فكره المغاني التي اترع شعره بصورها

ـــ قضى حسان ليلة واحدة في قصر البريص مع ابي سفيان بن حرب والشاعر امية بن ابي الصلت فما طلع الصبح حتى فارق الثلاثة القصر

ـــ كانت ليلتك اذن خصبة بالشعر جياشة بالغناء اللذيذ ، ليت شعري كيف لا تكون ليلتك خصبة بالشعر والغناء ولديك شاعران نابهان

ومضى المنذر يضحك ضحكة رنانة مجلجلة فخنى عمرو رأسه واستغرق في تأملاته

ـــ يخيل الي ان ليلتك كانت مليئة بالشجون فاني اقرأ هذه الشجون في عينيك الذابلتين الحائرتين : لماذا لا تجيب ؟

فسكت عمرو وانتفضت ماريه من الذعر وخيل الى هند ان الارض تمور وجعل المنذر يحدق الى سحنة عمرو تحديقا طويلا ، ثم راح ينظر الى ماريه تارة والى هند تارة اخرى

ـ لقد كان يجب علي ان افطن الى هذه الأحزان التي كانت تساوركم منذ هنيهة حينما دخلت الحجرة ، حقا لقد كنت مشدوها حينما وقع بصري على جوي ماريه واحزان هند ، وقلق عمرو ! فماذا حدث ؟ ناشدتك الله يا ابن عمي ان تحسر عن هذا الشجن الاليم الذي يقرض نفسك

فرفع عمرو عينيه الى المنذر وقال :

ـ صدقت فلقد كانت تلك الليلة عاطلة من صفاء الشعر وبهجته وروائه ؛ خلية من نتاج الذاكرة وحصادها ، وكانت كذلك ممرعة بالصور القاتمة وكان الشاعران قيثارة محطمة لاتخرج صوتا ، ولا تبعث نغما . . .

ـ هل حدث حادث حطم قيثارة الشاعرين ؟

ـ نعم ، ولكنه حادث بشع كنت احب ان يظل ذكره حبيسا في اعماق نفسي

ـ قل لي افي ارض غسان ، وفي ايام المنذر بن الحارث يقع حادث مكدر لشاعرين كريمين ثم يسكت عنه؟

وكان المنذر في حنقه كاللجة الثائرة فجعلت ماريه تنظر اليه وجلة خائفة ؛ وهند في مثل موقفها المضطرب فتابع المنذر حديثه قائلا

ـ اي عمرو احترس ان تحجب عني الحقيقة

ورأى عمرو ان لا مندحة له عن كشف الغامض فقص على المنذر حكاية الاعتداء على هند وهي في طريقها الى قصر البريص وذكر تفاصيل ذلك العمل النبيل الذي قام به الفرسان الثلاثة حيال هذه الفتاة الضعيفة التي تناست مرح الحياة ورغدها في سبيل دروع امرئ القيس ثم وصف ذلك الشجن البليغ الذي قوض نفسها واورثها اليأس والقهر ولم يذكر اسم المعتدي فاثرت القصة في نفس المنذر وجعلته ينتفض فصاح

ـ واخجلتاه !... ماذا يقول النعمان بن المنذر غداً اذا خرق سمعه هذا النبأ الحافز؟ افلا يضحك شامتاً ساخراً ! الا يطعن على كرامة غسان وهو الرجل الذي لا ينفك

يطعن كرامتها ، بل اي ميراث مخجل نتركه لغسان التي اهينت في شرفها وكبريائها سيقول النعمان غداً للذين يلتفون به من عيون العرب وعيون الفرس « لقد كان جاري امنع من جار المنذر ، على انني لست الومه ان لج في عتبه وتقريعه فان جار غسان في هذه المرة عاد خائباً يائساً لان غسان لم تدفع عنه ضيما نزل به واخجلتاه من النعمان ؛ ذلك العدو الالد الذي عرف كيف يقي ارض الحيرة من العار، قل لي من يكون ذلك المعتدي ؟ بل قل لي لماذا قعدت عن استنفار قومك وهم احرياء بان ينصفوك؟

— ولكن المعتدي لقي حتفه

— امات المعتدي حقا ؟ لعلك قد قتلته؟

— لم اقتله ولكن الله قتله ؟

— من الرجل ؟

— هيباس

— هيباس. هيباس، لقد كان الرجل الوحيد الذي لايعرف حداً للمطامع الخاملة الوضيعة وكنت اعرفه سفاحا ومغامراً وعاهراً فاما وقد لقي جزاءه فهل تعرف قاتله

— كلا

فسكت المنذر سكوتا طويلا مهيباً ثم مضى الى ناحية هند وتناول يديها الراعشتين وقال لها :

— يأبى الله ايتها الفتاة الا ان يرعى الفضيلة بعينيه الساهرتين واني لجد مطمئن الى حياتك مادمت في كنف غسان ، فحنت رأسها وغامت عيناها بدمع ولكنها لم تتكلم فكان صمتها صورة لتلك العاطفة الحلوة النبيلة التي شعرت بها حيال المنذر وحيال اسرته ثم رفعت عينيها الى الملك الشاب وقالت له :

— ابيت اللعن ايها الملك ! ليس للنعمان بن المنذر ملك الحيرة ان يساويك في الشرف او يجاريك في حماية الجار بعد هذا الذي لقيته في مراتع غسان من كرم

وشمم وحماية باقية اطمأنت نفسي في ظلها الظليل الى عيش لا يعلق بنواحيه غيم ماطر

— ستعيشين بيننا وادعة راغدة حتى ترد اليك دروع ابيك، ثم التفت الى عمرو وقال له :

— ابعث برجل من رجالك الى جبلة فلعل ابن عمك لا يبطئ في مجيئه الى دمشق ثم رفع صوته قائلا : سأذهب في هذا المساء الى تدمر لألتحق بجيوش غسان التي بدأت تزحف الى جيوش النعمان وفي هذه المرة لن اقفل الى دمشق قبل ختام المعركة التي اسأل الله ان لا يمنع غسان قطف رياحينها الباسمة ، ثم ارتد الى مارية وقال لهـا :

اي ماريه ستحسين فرحا ونشاطا حينما تعرض لك جنات القسطنطينية الخضلة وافياؤها المرسلة . . .

— متى نذهب الى القسطنطينية ؟

— بعد ختام المعركة

فضمت ماريه يديها الى صدرها ورفعت عينيها الى الافق ، فاذا هما تشعان بريقا واذا هي تصلي صلاة خافتة شجية ارادت فيها النصر لجيوش المنذر بينما راحت هند تصلي صلاة ليس لها معنى صلاة مارية ثم جعلت تهمس في نفسها قائلة:

« اللهم اصلح بين قومي » فخرق همسها الضعيف سمع المنذر فقال لها :

— لقد اثرت صلاتك القصيرة في نفسي فعسى ان يبلغ ترجيعها السماء فلا تراق دماء العرب في الصحراء العارية المجدبة

* * *

في اصيل اليوم التالي سار موكب المنذر الغساني في طريق تدمر تلتف به عصابة كريمة من فتيان غسان فخرجت دمشق كلها الى وداع الملك تنثر على اقدامه ابهى ازهار الغوطة واجملها ، وكان رسول عمرو بن الحارث الى جبلة بن الايهم في غضون ذلك يخترق بجواده تلك الارض الظليلة المؤدية الى داريا

الفصل الخامس عشر

جبلة بن الايهم

اطفلت الشمس في تلك الجنة الحادرة التي افتتن بها شعراء العرب في الجاهلية حتى راحوا يسمون ظلالها الوارفة عالم الجن والسحرة وحتى ابتكرت مخيلاتهم صورة بارعة لم تعرض لاذهانهم في صحرائهم المشبوبة

وليس يخطيء من يقول « الشعر والسحر يجتمعان في غوطة دمشق ، ويلتقيان على ضفاف انهارها ، وحوافي سواقيها ، بل ليس يخطيء هؤلاء الذين حسبوها جنة الاحياء قبل ان تتحدث الديانات عن جنة الاموات

زارها من شعراء العرب في الجاهلية امرؤ القيس بن حجر سيد كندة وكان معه الحارث بن جبلة الغساني فنزل منها بناحية سكاء الجبلة حيث قصور آل جفنة وكرماتهم وافتتن بها وسحره ماؤها وعشبها وزهرها ؛ واحتوى شعره على افق جديد ما كان له به سابق عهد ثم زارها النابغة الذبياني فنزل بداريا واستهواه زخرف الطبيعة فيها واحب الانزواء تحت افيائها ولم يعد في قدرته ان يترك مغانيها الحافلة بملاذ الحياة وصورها المنمقة البديعة بعد ان وجد في الطبيعة المرحة الضاحكة خصباً مقدساً لم يجده لا في العراق ولا في الجزيرة وكان النابغة يفد سنة على المناذرة في العراق وسنة على الغساسنة في الشام فاصبح لا يستمريء غير افناء حياته كلها في عبق الازهار ووسوسة الانهار

وزارها حسان بن ثابت فاتسق لشعره في ضواحيها ذلك الجمال الذي لم يتسق لشعر غيره من شعراء الجاهلية فلست تقرأ بيتنا لحسان الا استهوتك عذوبة مقتبسة من عذوبة ذلك الماء الذي يجري متطامنا في سهول الغوطة وجناتها والا اشجتك تلك الصور الفاتنة التي لا يقع بصرك عليها في الشعر الجاهلي

بل لقد يستهويك في شعر حسـان ذلك النغم اللذ الذي هو بعض ضحك الطبيعة ومرحها وتوثبها !

تعيش الطبيعة في شعر حسان في شباب متجدد ، وتجد في هذا الشعر الصافي جميع عناصرها المستبشرة الوادعة. فالحب ولياليه الصائفة القمراء ، والقبل المطبوعة على الشفاه الحمراء ، واعياد الفصح الحالية بالمفارح والمغابط ، والطواف بالمقـاصير والجنات والأصغاء الى الأنشاد الساجي المطمئن ؛ ثم مشهد الغروب السـاجي ، جميع هذه العناصر التي تشتمل الطبيعة عليها لاتبرح الوانا زاهية متوردة يصبغ حسان بها شعره وشعوره .

اطفلت الشمس في تلك المرائع الهائئة ، فاذا اشعتها تذوب وتفنى في خضرة الحقول ، واذا انوارها المتواريه تطبع آخر قبلات الوادع على جبين الورد والبنفسج والتفاح والادواح الرخية الظل كأن الشمس سكرى تعبة ملولة من طوافها في النهار فوق جبال دمشق فجاءت تستريح في احضان الطفل قبل ان يحتبسها المساء بـين ذراعيه ،

وكانت خطوط اشعتها الملونة منتشرة على صفحات الأفق كأنها آثار حريق مشبوب في حقل من حقول الحنطة .

اي شاعر يراك ايتها الشمس وانت تودعين المروج والغابات والأنهار والجبال والقصور والمعابد والظلال الرخية الساجية ولا يفتتن باحتضارك المجيد بين وردة مفتحة وبنفسجة متأرجة ، ونسرينة ضاحكة ، بل اي شاعر يمر بك وانت تتخلين عن ملكك لأسداف الليل المعتمة ولا يهزه سبحك اللذيذ .

في تلك الأثناء كان الفرسان الثلاثة الذين تركناهم يسيرون في طليعة القوافل يجتازون اراضي الغوطة ويقفون على ابواب داريا وكان حسان بن ثابت الشاعر يعتزل القوافل مودعا رفيقيه اللذين كانا يلحان عليه في العـودة معهما الى الحجاز وقد اخذ ابو سفيان يحاول أن يمضي به عن فكرته فابى وقال له :

ــ ماذا ، اتريد الي ان اهجر دمشق ولا ارى جبلة ؟ ناشدتك الله ايها السيد ان تتركني هنا فاني اخشى ان يعلم جبلة بمروري فيحفظه صدوفي عن مغنـاه ، وانا بعد معترف بجميله وفضله علي، وداعا ايها الرفيقان بل الى لقاء قريب فيمغاني الحجاز .

وبينما كانت القوافل تجتاز نواحي الغوطة في طريقها الى بصرى اخترق حسان ابن ثابت داريا متجها الى ناحية « قصر الشعراء » فتنة هذهالضاحيةومعجزتهاالباقية

وكان وهو في طريقه الى القصر ينشد ويغني وقد فاضت روحه بجمال المشاهد الريفية البديعة ، ثم ترسل في سيره متأملا في تلك الحقول الفيحاء التي عرضت له تحت الأفق ، واخذ يردد الفينة بعد الفينة ، هذه الكلماتالتي تنم عن شجونه

ــ اي اغاني العذاب ، انك ستجدين غذاءك علىموائد الملوك الصيد ، وسترين في وجه جبلة الصبيح اروع اوزانك والحانك . . من ذا الذي يراك ايتها الجنـات الخالبة وينسى هذا الالهام الخفي الذي يحركازهارك ورياحينك ويترعك بالالوان الجميلة المستحبة ، بل اي نفس تبصر غروب شمسك ايتها الجنات ولا يغمرها هـذا السحر الذي يبعثه ائتلاق مغانيك وربواتك .

لقد كنت ايتها المراتع الهانئة عبق الدائم العطر وكنت نغما لقصائدي .

احتجبت الشمس ، فترجل حسان عن جواده ومشى به الى ربوة زاهية يغشاها النوار ويزينها الريحان ، فجلس اليها محدقا الى القصر القائم على ذرى هضبة محاذية ، ثم اخذ يتأمل كأنه يصلي ، وكأن الطبيعة وحدهـا محرابه ومصـــلاه ، ولم يستفق من هذه الغشية اللذيذة الا على صوت غناء شجي ترسلهالغابة الملتفة بالقصر الى اذنيه فانصت الى الغناء كأنما قد استهواه جرسه العذب ثم تنهد قائلا :

ــ افاء الله عليك نعمه السوابغ ياقصر جبلة فلقد رددت الى نفسي الحـــائرة بعض العزاء ، فانانشادك فيهذا المساء قد فتحامامي عالما جديداً يمور باللذةوالفرحة

وكان القصر مضيئاً في كل ناحية من نواحيه ، فترك حسان الرابية وتدفق اليه حتى وقف على بابه واخذ ينصت الى الغناء ، فخرقت سمعه اصوات ناعمة فلم يشك

في انها اصوات فتيات حسان اشتمل عليهن القصر في هذا المساء فطفرت نفسه الى دخول القصر ، واحتبس منطقه ، وراح احساسه يخفق للحسان وهو بعد لم يبصرهن ثم مضى يتمثل مجلس جبلة بن الايهم بينهن ، فخيل اليه انه حافل بالجمال والحب ورغد العيش ولكن شيئاً واحداً ظل ينقص هذا المجلس وذلك هو شعره .

لقد راح حسان هامساً :

— ساغرق نفسي في غمار هذه الأصوات الشجية فلعلها تغيب في سحرها .

ثم ترك جواده في الغابة الصغيرة واقبل يصعد القصر سائراً بين اعمدة ضخمة من المرمر والبرفير .

ومضت فترة من الزمن ظل خلالها يذكر هذا النعيم المقيم وهو يتنقل بين الأعمدة [illegible] من [illegible] ولكنه بقي حائراً لايدري معاذاً يعوذ به ويرتاح اليه وكلما اراد ان يمنع قلبه الخفوق اشجاه لذيذ النغم وهزته الأعراف الذكية ، فاصبح لاغناء له عن التوغل في اعماق القصر حتى يصل الى ذلك المكان الذي يصدر الغناء عن نواحيه ، ويالها من مباغتة لذيذة يحملها الى جبلة امير قصر الشعراء في هذا المساء الساجي وهو في مجلس حافل بنزوات العيش ومجاناته ، بل يالها من مباغتة تحمل الى هذا المجلس الضاحك المستبشر نوعا جديداً من الطرب والمرح لايجده جبلة في غير شعر حسان وقريضه .

ومرت بخاطره ذكريات قديمة ؛ ذكريات مقدسة وفورة حملته في حاضره الى سنوات بعيدة ماضية ، كان يتردد فيها الى جبلة في داريا وفي ضاحية بلاس ، وكان على عرش غسان في ذلك العهد الملك الحارث بن جبلة فملأت هذه الذكريات خواطره فاستعرض خروجه من يثرب حتى قدم على الحارث وقد هيأ له مديحا فقال له حاجبه ان الملك قد سر بقدومك عليه وهو لايدعك حتى تذكر جبلة فاياك ان تقع فيه فانه انما يختبرك وان رأيك قد وقعت فيه زهد فيك وان رآك تذكر محاسنه ثقل عليه فلا تبتديء بذكره وان سألك عنه

فلا تطنب في الثناء عليه ، بل امسح ذكره مسحاً وجاوزه الى غيره فان صاحبك جبلة اشد اغضاء من هذا واقل حفلا به ، وذلك ان صاحبك اعقل من هذا وابين وليس لهذا بيان فاذا دخلت عليه فسوف يدعوك الى الطعام وهو رجل يثقل عليه ان يؤكل طعامه ولا يبالي الدرهم والدينار ، ويثقل عليه ان يشرب شرابه فاذا وضع طعامه فأصب منه بعض الأصابة فشكر حسان يومئذ للحاجب ، ثم دخل على الحارث فسأله عن البلاد وعن الناس وعن عيشه بالحجاز حتى انتهى الى ذكر جبلة فقال : كيف تجد جبلة فقد انقطعت اليه وتركتنا فقال حسان : انما جبلة منك وانت منه ، ولم يجر الى مدح ولا عيب وجاز ذلك الى غيره ، ثم قال الحارث الي بالغذاء ووضع الطعام ودعا الحارث اصحاب برابط من الروم فاجلسهم ، وشرب القوم ، وقام الساقي على رأس حسان فقال اشرب فأبى الشاعر حتى قال الحارث له اشرب فشرب ، فلما اخذه الشراب انشده شعراً فأعجبه فقال حسان للحارث أن رأى الملك ان يأذن لي بالأنصراف الى اهلي فعل ، قال الحارث قد اذنت لك وامرت لك بخمسمائه دينار فاخذها حسان وخرج الى اهله (١)

مرت هذه الذكرى الماضية بخاطر الشاعر فاصطبغ محياه بأرجوان وغامت عيناه بدمع فراح متكئاً على العمد القائمة وهو اشد ما يكون شجناً وانفعالا .

ثم تقدم من باب الحجرة والغناء ينبعث من اعماقها فأخذ يهمس :

— لا ادري كيف يستقبلني جبلة في هذا المساء !

وحاول ان يخفق الباب فتردد ، واخذ يجمع خواطره المبعثرة فما استطاع لها جمعاً فقال :

« ترى اين هو جبله ؟ انه بين الخليلات والحبيبات ولا ريب »

ثم تشجع وتشجع كثيراً وراح الى المصابيح التي تنير الأروقة فأطفأها ، وكان ذلك علامة على قدوم ضيف الى قصر الشعراء ، ثم وقف ينتظر وينصت حتى انقطع

---

(١) الاغاني ج ١٤

غناء المغنين وسكنت رنات العازفين ثم فتح الباب من الداخل على مصراعيه فاذا مجلس جبلة ينحسر امام عينيه فوقف الشاعر على عتبة الباب وقد تملكه الحياء فما عاد يتقدم خطوة ولكنه ظل يطيل النظر الى مجاس جبلة صامتاً كالتمثال!

وكان جبلة جالساً على عرش من الذهب وقد جلس الى يمينه رجل له ضفيرتان وعن يساره رجل آخر، فلما فتح الباب واطل حسان نهض جبلة عن عرشه صائحاً «من الضيف؟

فسكت حسان ولم ينبس فكرر جبلة صياحه.

— من الضيف؟

فتهلل وجه حسان واقبل الى ناحية جبلة مفعم النفس جــذلا وطفق يصيح راعش الصوت من فرط الفرح:

— لعلك لم ترتقب معادي في مثل هذا المساء؟

فوثب جبله صائحاً:

— ابن الفريعة؟

— نعم حسان بن ثابت!

فترك جبلة عرشه واقبل الى ناحية حسان متهللا باسما.

«لقد كنت اتحدث عنك الى هذين، ثم اشار بيده الى الرجلين الجالسين الى يمينه ويساره واردف: قدمت اهلا ونزلت سهلا، ثم اجلسه بين يديه واستتلى قائلا

— يخيل الي انك جد تعب! فهل قطعت الينا مسافة طويلة؟

— كنت في دمشق، فلم اشــأ فراقا لمغناها قبل ان استروح الى حديثك

— اي حسان لقد جاءت زيارتك المباغتة حلوة في هذا المساء! قل لي اتعرف هذين

فحدق حسان الى الرجلين طويلا وراح ضاحكا.

— اما هذا فاعرفه وهو النابغة واما هذا فلا اعرفه (١)

---

(١) الاغاني ج ١٤

فقال جبلة : لقد ظننتك تعرف علقمة بن عبدة ، فاذا بي ارى الايام قد احدثت اثرها في نفسك حتى باعدت بينك وبين الذين يحبونك .

ـــ ياخير الفتيان ان صورتك لتطفو في نفسي حتى تمنعها ان ترى غيرها من الصور ! ثم التفت حسان الى ناحية النابغة وقال له :

ـــ اي زياد كيف انت ؟ واي ريح عاصفة حملتك على متونها الى هذه الضواحي؟

فحنى النابغة رأسه كأنه يفكر ثم رفع عينيه الى الشاعر قائلا :

ـــ اتيت الهمام ـــ يريد جبلة بن الايهم ـــ لأكلمه في اسرى بني اسد وبني فزارة فقاطعه جبلة قائلا :

ـــ لقد اصاب حصن بن حذيفة في غسان قبل ذلك بعام (١) وبلغني انه لا يزال يجمع الجموع ليغير على ارضنا ، فانت ترى ان حصنا عظيم الذنب الينا فقال النابغة ابيت اللعن ان الذي بلغك باطل .

ـــ دعنا من هذا ، ثم التفت الى حسان وقال له مازحا :

ـــ يا ابن الفريعة قد عرفت عيصك ونسبك في غسان (٢) فارجع فاني باعث اليك بصلة سنية ولا احتاج الى الشعر فاني اخاف عليك هذين السبعين النابغة وعلقمة ان يفضحاك وفضيحتك فضيحتي وانت والله لا تحسن ان تقول :

لا يبعد الله جيرانا تركتهم ... مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم
لا يبرمون اذا ما الأفق جلله ... برد الشتاء من الامحال كالأدم
هم الملوك وابناء الملوك لهم ... فضل على الناس في اللأواء والنعم
احلام عاد واجسام مطهرة ... من المعقة والآفات والاثم (٣)

اني اريد شعرا كهذا يرافق الأبد في خلوده وما احسبك قادرا على مجاراة

---

(١) شعراء النصرانية ج ٥
(٢) الاغاني
(٣) الشعر للنابغة الذبياني قاله في زيارته لغسان

زياد في شعره وهو اشعر شعرائكم بل هو اشعر العرب (١)

فامتقع وجه حسان واخذ الألم الصامت الممض يطل من عينيه، وفطن جبلة للوعته وحسرته فحاول ان يلطف من كربه فقال له:

— سلهما ان كانا يأذنان لك بالشعر!

فالتفت حسان الى الشاعرين النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة وقال لهما:

— بحق جبلة الاقدمتماني عليكما فقالا قد فعلنا فقال جبلة هات يا ابن الفريعة فقال حسان:

لمن الدار اقفرت بمعان بين شاطي اليرموك فالصمان
فحمى جاسم فابنية الصفر مغنى قنابل وهجان
فالقريات(٢) من بلاس فداريا فسكاء فالقصور الدواني
ذاك مغنى لآل جفنة في الدهر وحق تصرف الأزمان
قد دنا الفصح فالولائد ينظمن سراعا اكلة المرجان
يتبارين في الدعاء الى الله وليس الدعاء للشيطان
صلوات المسيح في ذلك الدير دعاء القسيس والرهبان
قد اراني هناك حقاً مكيناً عند ذي التاج مقعدي ومكاني

فصاح جبلة « هذا وابيك الشعر لا مايعللاني به منذ اليوم هذه هي والله البتارة التي بترت المدائح ، احسنت يا ابن الفريعة ؛ هات له ياغلام الف دينار ثم التفت الى حسان قائلا : لك علي في كل سنة مثلها » ثم اقبل على النابغة الذبياني فقال له قم يازياد فهات الثناء المسجوع ، فقام النابغة وقال خطبة ماتعة طرب لها جبلة وصفق

ثم رفع جبلة عينيه الى جارية كانت قائمة على رأسه وقال:

« بمثل هذا فليثن على الملوك ومثل ابن الفريعة فليمدحهم ثم امر باطلاق

---

(١) شعراء النصرانية ج ٥

(٢) القريات وداريا وبلاس وسكاء من قرى الغوطة وكانت كلها للغساسنة

أسرى النابغة فتهلل وجه الشاعر وراح ينشد:

ونبئت ان ابا منذر يساميك للحدث الاكبر
فذالك احسن من وجهه وامك خير من المنذر
ويسراك اجود من كفه — اليمين فقولا له اجر (١)

فكاد جبلة يثب من الطرب، ثم اومأ الى غلام على رأسه فولى يحضر فما كان الا هنيهة حتى اقبلت الاخونة يحملها الرجال فوضعت وجيء بخوان من ذهب فوضع امام حسان فاستعفى منه فوضع امامه خوان خليج وجامات قوارير وادير الخمر فاستعفى حسان منها، ثم دعا جبلة بكأس من ذهب فشرب منها خمسا عدداً ثم اومأ الى غلام فولى يحضر فما شعر حسان الا بعشر جوار يتكسرن في الحلى فقعد خمس عن يمين جبلة وخمس عن شماله فالتفت حسان الى ورائه وقد سمع وسوسة فاذا بصره يقع على عشر افضل من الاول عليهن الوشي والحلي فقعد خمس عن يمينه وخمس عن يساره واقبلت جارية على رأسها طائر ابيض كأنه لؤلؤة مؤدب وفي يده اليمنى جام فيه مسك وعنبر وقد خلطا وانعم سحقهما وفي اليسرى جام فيه ماء الورد فتمعك بين جناحيه وبطنه وظهره ثم اخرجته فالقته في جام المسك والعنبر فتمعك فيها حتى لم يدع فيها شيئاً ثم نفرته فطار فسقط على تاج جبلة ثم رفرف ونفض ريشه فما بقي عليه شيء الا سقط على رأس جبلة ثم قال للجواري اطربنني فخفقن بعيدانهن يغنين شعر حسان (٢)

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الاول
ابناء جفنة حول قبر ابيهم قبر ابن مارية الكريم الافضل
بيض الوجوه نقية احسابهم شم الانوف من الطراز الاول

فاستبشر وطرب وقال زدنني فاندفعن يغنين ؟

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

---

(١) — (٢) الاغاني

فراح جبلة ثملا منزوفا حتى نسي وقار المجلس وحتى كاد يثب اكثر من مرة الى حسان لولا ان هزته كبرياؤه فاعتدل ثم التفت الى حسان وقال :

— انك في ضيافتي فلن يقدر لك ان تبرح هذه المغاني ، ولم يشأ السيد الغساني ان يدخل اليأس على نفس النابغة فمضى يسأله :

— هل اعددت موسم العام في عكاظ يازياد ؟

فاطرق الشاعر يفكر ، وبعد قليل رفع عينيه الى جبلة وقال :

— سيكون موسم هذا العام في عكاظ احفل بالخصب من المواسم الماضية .

— وكيف ؟ ..

— كانت مواسم الأعوام الماضية مقصورة على شعراء اليمن ؛ ولكن موسم هذا العام سيحتشد فيه شعراء من اليمن ونجد والحجاز والعراق وبين هؤلاء فتيان جمعوا اليهم الشرفين ، شرف الشعر ، وشرف الفروسية ، ولما علم ملوك العرب بخبر هذا الموسم أراودني على اهداء منحهم السنيه الى المجيدين من الشعراء .

— هل اعطاك ملك الحيرة مالا ؟

— نعم لقد اعطاني خمسة آلاف دينار !

فاستوى جبلة على عرشه وهو اشد ما يكون اعتزازاً بمجلسه ثم قال : لن يكون ملك الحيرة اكثر سخاء من ملوك غسان فامض الى عكاظ ، فلقد حبوناك عشرة آلاف دينار تنفقها على شعراء الموسم ، قل لي : أيسرك هذا العطاء ؟ فقال الشاعر : انه عطاء ملك فكيف لا يسرني ، قال جبلة : لقد ابهجني انك تكرم عدوي امامي

— ثم امر للنابغة بخمسمائة دينار ، ومثلها لعلقمة وفي تلك اللحظة تقدم حاجبه منه وهمس في اذنيه همساً ضعيفاً ارعشه فارتد وجهه شاحباً والتفت الى ناحية الباب ، فاذا هنالك على عتبته رجل قد حنى رأسه الى الارض فاشار اليه ان يقترب فتقدم حتى حاذاه وهمس في اذنه :

— ارادني الملك المنذر ان اكون رسوله اليك قبل ان يمضي الى قتال عدوه

النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي يرابط بجيوشه في مكان لايبعد كثيراً عن تدمر .

فنهض جبلة وقد اشتعلت حميته وقال :

— أمضى بن عمي اذن الى قتال عدوه ؟

— نعم ، وكان خروجه من دمشق في الليلة الماضية ؟

فالتفت جبلة الى النابغة الذبياني واردف :

— ما لأبناء عمنا في العراق لايقلعون عن هذه الاحقاد التي تحصد الفضيلة في النفوس ، ناشدتك الله ان تنصح صاحبك الا يمضي في التمرغ فوق الرمال المصبوغة بدماء الابرياء فان من البر ان ينعم ملك الحيرة بغير الدماء المطلولة في غير اثم ! واني لاحس شجناً كلما رحت اذكر فعل هذه المأساة الحاصدة في هـــذه النفوس الفتية التي تذبل في سعير الرمال المتأجج، ثم ضحك جبلة ضحكة متشنجة واستلقى قائلا :

— لقد انجبت مارية ذات القرطين (١) الشعث المغاوير من فتيان غسان فلعل النعمان بن المنذر الذي يلحف في الثأر بابيه لم ينس بعد كبرياء هؤلاء الفتيان وشمم نفوسهم ! ثم انحنى ناحية الرسول وقال :

— اهذا كل ماتحمله الي ؟ . . .

— لقد اراد الملك ان تخرج الى موافاته في قصر البريص عند عودته من تدمر قبل سفره الى القسطنطينية وقد قال لي ابن عمك عمرو بن الحارث ان الملك سيصطحب معه في هذه الرحلة ولديه وابناء عمه .

— سأكون في دمشق غدا ؟

---

(١) في المثل خذه ولو بقرطي ماريه ، وماريه هذه هي بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندي ام الحارث بن جبلة الغساني وجدة جبلة بن الأيهم وهي اول عربية تقرطت وسار ذكر قرطيها في العرب ، وكانا نفيسي القيمة قيـــل انهما قوما باربعين الف دينار وقيل كانت فيهما درتان كبيض الحمـــام لم ير مثلهما « بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب »

ثم التفت جبلة الى ضيوفه قائلا :

— ان هذه الحرب الضروس التي تستأصل الخصب في ارحام الامهات لا تستطيع ان تستأصل خصب هذه الحياة المرحة الفرحة التي نمضيها في هذه الخمائل الوارفة الظل وما دامت الحياة تتألف من عنصرين لا يفترقان عنصر اللذة وعنصر الألم فلا يضيرنا ان نمزج غناء القلب بغناء الحرب ، ثم قال للغانيات انشدنني قول النابغة في عمرو الاكبر فخفقن بعيدانهن وانشدن :

وصدر اراح الليل عازب همه	تضاعف فيه الحزن من كل جانب
علي لعمرو (١) نعمة بعد نعمة	لوالده ليست بذات عقارب
حلفت يمينا غير ذي مثنوية	ولا علم الا حسن ظن بصاحب
لئن كان للقبرين قبر بجلق (٢)	وقبر بصيداء (٣) الذي عند حارب
وللحارث (٤) الجفني سيد قومه	ليلتمسن بالجيش دار المحارب
وثقت له بالنصر اذ قيل قد غزت	كتائب من غسان غير اشائب
بنو عمه دنيا وعمرو بن عامر	اولئك قوم بأسهم غير كاذب
اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم	عصائب طير تهتدي بعصائب
ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم	بهن فلول من قراع الكتائب
تورثن من ازمان يوم حليمة (٥)	الى اليوم قد جربن كل التجارب
رقاق النعال طيب حجزاتهم	يحيون بالريحان يوم السباسب

(١) عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الاعرج احد ملوك غسان

(٢) جلق ارض بالشام دفن فيها الملك عمرو بن يزيد بن الحارث بن مارية الغساني

(٣) صيداء ارض بالشام دفن فيها يزيد بن الحارث الاعرج الغساني

(٤) هو الحارث بن جبلة الاكبر

(٥) يوم حليمة هو احد ايام العرب المشهورة انتصر فيه الغساسنة على المنذر ملك العراق وحليمة هي بنت الحارث بن جبلة .

ــ كفى كفى فان مثل هذا الشعر لن يبلى ...

ثم التفت الى ناحية حسان واردف :

ــ لعلك لاتفارقنا بعد هذه الليلة ؟

ــ ناشدتك الله ان تسرحني فان اهلي ينتظرون اوبتي !

ــ ولكن الصيف الذي تحب افناءه في غياض دمشق وجناتها لم يغرب بعد .

ــ تركت في بيتي ابا شفيقاً واما رؤوما مازلت انصت الى خفق فوأديهما برغم هذا الفضاء الأفيح الذي يفصل مابين الحجاز والشام !

ــ عدني برجعة قريبة الى هذه الربوع .

ــ لك هذا الذي اردت !

ــ وانت يازياد ؟

ــ ان موسم عكاظ قريب فليس في طاقتي ان اطيل مكثي في الشام .

ــ اذن فانت عائد الينا في العام المقبل لتحدثنا عن الموسم ؟

ــ نعم ، ولكني أحب ان افيء الى هذه الديار وهي غنية بالهناء والمرح

ــ سيرافقك رجالي الى حدود البادية !

* * *

قضى جبلة بن الايهم مع ضيوفه زلفاً من الليل في غناء وطرب وفي صباح اليوم التالي ودع النابغة الذبياني مغاني داريا ومضى في الطريق التي تدفع الى بادية العرب يرافقه حرس جبلة واسرى بني فزارة وبني اسد الذين نعموا بحريتهم .

وفي الصباح نفسه انحى حسان ناحية بصرى تواكبه رجال من غسان ارادهم جبلة ان يصحبوا الشاعر الذي احبه الى مشارف البلقاء .

وفي اصيل ذلك اليوم تحرك موكب جبلة الفخم الى دمشق ليلحق بقصر عمرو ابن الحـــارث ؟

الفصل السادس عشر

ابو قابوس النعمان ابن المنذر

كانت النصرانية في الشام وفي بعض اليمن ، وبعض الحجاز ولكنها لم تتسرب الى العراق الا في اواخر القرن السادس وقيل ان النصرانيةاجتاحت العراق فيعهد المنذر الثالث من ملوك بني لخم الحيريين وكانمنمعاصريالحارث بن جبلة الغساني ملك الشام ويوستانيوس قيصر صاحب القسطنطينية ، ولكن بعض مؤرخي العرب ومؤرخي الروم لايقرون هذا القول بل يذهبون الى ان النصرانية دخلت العراق في الثلث الاخير من القرن السادس اي في عصر الملك النعمان بن المنذر المعروف بابي قابوس وصاحب الغارات الكثيرة على غسان

وتفصيل هذه الحادثة الكبرى ان النعمان بن المنذر كان له رجلان من العرب ينادمانه احدهما خالد بن المضلل والثاني عمرو بن مسعود وكلاهما من بني اسد ، فحدث ذات عشية ان شرب النعمان مع النديمين فراجعاه الكلام فاغضباه فامر بهما فقتلا وجعلا في تابوتين ودفنا بظاهر الكوفة فلما اصبح وصحا سأل عنهما فاخبر بذلك فندم وركب حتى وقف عليهما وامر ببناء الغريين (١) وجعل لنفسه في كل سنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم فكان يضع سريره بينهما فاذا كان في يوم نعيم اتى باول من يطلع عليه فحباه وكساه ونادمه يومه وحمله فاذا كان في يوم بؤسه اتى باول من يطلع عليه فقتله وطلى بدمه الغريين ، فلم يزل كذلكحتى خرج في غداة يتصيد على فرسه اليحموم فاجراه على اثر عير فذهب بهالفرسفي الارض

---

(١) الغريان بناآن مشهوران بالكوفة يقالهما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة بن الابرش وسميا غريين لان النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله اذاخرج في يوم بؤسه

ولم يقدر عليه وانفرد عن اصحابه واخذته السماء بالمطر فطلب ملجأ يتقي به حتى دفع الى خباء فاذا فيه رجل من طي يقال له حنظلة بن ابي عفراء ومعه امرأة له فقال لهما هل من مأوى قال حنظلة نعم فخرج اليه فانزله وهو لايعرفه ولم يكن للطائي غير شاة فقال لامرأته ارى رجلا ذا هيئة وما اخلقه ان يكون شريفاً خطيراً فماذا نقريه ؟

قالت عندي شيء من طحين كنت ادخرته فاذبح الشاة لاتخذ من الطحين خبزاً فاخرجت المرأة الدقيق فصنعت منه خبزاً وقام الطائي الى شاته فاحتلبها ثم ذبحها واطعمه من لحمها وسقاه من لبنها واحتال له شرابا فسقاه وجعل يحدثه بقية ليلته فلما اصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال له ياأخا طي انا الملك النعمان فاطلب ثوابك ، قال أفعل ان شاء الله ثم لحقته الخيل فمضى نحو الحيرة ومكث الطائي بعد ذلك زمانا حتى اصابته نكبة وجهد وساءت حاله فقالت امرأته : لو اتيت الملك لاحسن اليك فاقبل حتى انتهى الى الحيرة فوافق يوم بؤس النعمان فلما نظر اليه النعمان عرفه وساءه مكانه . وقال له يا حنظلة هلا اتيت في غير هـذا اليوم ؟ والله لو سنح لي في هذا اليوم قابوس ابني لم اجد بدأً من قتله ، فاطلب حاجتك من الدنيا وسل مابدالك فانك مقتول قال ابيت اللعن وما اصنع بالدنيا بعد نفسي قال النعمان لا بد من ذلك قال : فـان كان لا بد فاجلني حتى الم باهلي واحكم من امرهم ما اريد ثم اصير اليك فتنفذ في حكمك قال النعمان فاقم لي كفيلا بموافاتك فالتفت الطائي الى شريك بن عمرو بن قيس من بني شيبان وكان الى جانب النعمان فقال له :

ياشريك يا ابن عمرو	مامن الموت محاله
يااخا كل مصاب	يااخا من لااخاله
يااخا شيبان فك	اليوم رهناً قد اناله
طالما عالج كرب	الموت لاينعم باله

فابى شريك ان يتكفل به فوثب اليه رجل من كلب يقال له قراد بن أجدع فقال للنعمان ابيت اللعن هو علي، يدي بيده ، ودمي بدمه . فقال النعمان افعلت قال نعم فضمنه اياه ثم امر للطائي بخمسمائة وقد جعل الأجل عاماً كاملا من ذلك اليوم الى مثله من القابل فمشى الطائي الى اهله فلما حال الحول وبقي من الأجل يوم واحد قال النعمان لقراد ماأراك الا هالكا غداً فقال قراد

فان يك صدر هذا اليوم ولى فان غداً لناظره قريب

فذهب قوله مثلا ، فلما اصبح النعمان ركب في خيله ورجله متسلحاً كما كان يفعل حتى اتى الغريين فوقف بينهما واخرج معه قراداً وامر بقتله فقال له وزراؤه ليس لك ان تقتله حتى يستوفي يومه فتركه وكان النعمان يشتهي ان يقتل قراداً ليفلت الطائي من القتل فلما كادت الشمس تجب (١) وقراد مجرد قائم في ازار على النطع والسياف الى جانبه رفع لهم شخص من بعيد وقد امر النعمان بقتل قراد فقيل له ليس لك ان تقتله حتى يأتيك الشخص فتعلم من هو فكف حتى انتهى اليهم الرجل فاذا هو الطائي قد تكفن وتحنط وجاء بنادبته

فلما نظر اليه النعمان شق عليه مجيئه فقال له ماحملك على الرجوع بعد افلاتك من القتل؟ قال : الوفاء قال : وما دعاك الى الوفاء قال : ديني قال النعمان وما دينك؟ قال النصرانية ، قال النعمان فاعرضها علي فعرضها عليه فتنصر النعمان واهل الحيرة اجمعون وكان على دين العرب فترك القتل منذ ذلك اليوم وابطل تلك السنة وامر بهدم الغريين وعفا عن قراد والطائي وقال : والله ماادري ايهما اوفى واكرم اهذا الذي نجا من القتل فعاد ام هذا الذي ضمنه والله لا أكون ألأم الثلاثة ! (٢)

اما حنظلة فانه نسك بعد ذلك وفارق بلاد قومه ونزل الجزيرة وباع ماله وبنى ديراً بالقرب من شاطئ الفرات في الجانب الشرقي بين الدالية والبهنسة

---

(١) اي تغيب

(٢) الاغاني ، بلوغ الأرب

انقطع النعمان منذ ذلك اليوم الى الانشاء والاعمار فبنى في بلاده الكنائس والاديرة والقصور المشيدة الضخمة والمدن والقرى وشجع الفنون والعاكفين عليها من الفرس والرومان وعلبها قومه ووضع الجوائز السنية للشعراء البارعين كحسان بن ثابت ؛ او حاتم الطائي ، والنابغة الذبياني ، وكان النابغة الذبياني يأكل ويشرب في آنية من الفضة والذهب من عطايا النعمان وابيه وجده (١) بل لقد كان النابغة يعيش في حمى النعمان اللخمي عيشا حالياً بالنعيم فلا يرقد الا على الخز ولا يرتدي غير اللباس الانيق الوثير (٢) بينما كان شعراء عصره يغالبون الحياة ويكافحونها فلا يطل هذا الكفاح الا على آفاق تعصف فيها رياح البؤس والفاقة ...

وبلغ العراق في عهد النعمان اسمى درجات الحضارة و الترف فامتلأت خزائنه بالذهب واصبح في وسع ملكه ان ينافس اكاسرة الفرس وقياصرة الروم في بهاء الملك وروائه وصار في قدرته ان يمضي بالعراق الى الخلاص من رقابة الفرس ، وفي ايام النعمان ذهبت وفود العرب الى كسرى تنافسه في الفخر والاستعلاء ومن هذه الوفود وفد مؤلف من عيون العرب وفرسانهم امثال الحارث بن ظالم المري وقيس بن مسعود البكري وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل وعمرو بن معدي كرب ، فوفد هؤلاء على كسرى فاسمعوه من سحر بيانهم ماحبب اليه احاديثهم عن العرب وفضائلهم ثم عاد الوفد وهو مثقل بهدايا كسرى وعطاياه

وفي ايام النعمان امتدت علاقة العراق الى الهند والصين وبلاد الروم واتسعت تجارته ونمت وعاش الناس في رخاء لم يألفوه في عهد ملوكه التنوخيين واللخميين ولكن هذا الرخاء الذي انقطع الناس الى مناعمه وملذاته كانت تشوبه حروب دائمة بين العراق والشام وكان اروع العوامل في اذكاء ضرام هذه الحروب ناشئاً عن

(١) الاغاني

(٢) شعراء النصرانية

التنافس القائم بين ملوك الفرس وملوك الروم وهو تنافس ضنك جعل فجاج الشام والعراق ميدانا لمعارك لاهبة حمراء عطلت الاذهان والافهام ومنعتها ان تنصرف الى الخلق والابتكار

وقدنشأت عن هذه الحروب ضغائن واحقاد في صدور الغسانيين واللخميين على السواء فاصبح العدو يهتبل الفرص للانقضاض على عدوه والتشنيع به حتى حدثت معركة يوم حليمة التي قتل فيها المنذر اللخمي والد النعمان فاستنفر الابن اقوامه رجاة الثأر بابيه ورأى في النفور القائم بين المنذر الغساني ويوستينوس صاحب القسطنطينية فرصة مواتية لضرب عدوه ضربة لاينهض بعدها فزحف الى حدود الشام بجيشه ، بينما شرع الفرس يتوغلون من ناحية اخرى في حدود الروم

وفي تلك الاثناء كانت جيوش النعمان بقيادة ابنه قابوس قد بلغت في زحفها ضواحي تدمر فصالح قيصر المنذر الغساني بعد جفاء استغرق زمنا طويلا واراده على الزحف الى جيوش الحيرة ووضع لبنان وفينيقية وفلسطين تحت رقابته وسلطانه

وفي نهاية سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة زحف جيش غساني من حمص الى تدمر بقيادة امرئ القيس بن عمرو الغساني ابن عم الملك المنذر لقطع الطريق على قابوس بن النعمان وزحف جيش آخر من بصرى الى البادية لحماية طرقها ومنع الحيريين من التسرب الى اراضي غسان ووضع هذا الجيش تحت قيادة لبيد بن عمرو الغساني بطل يوم حليمة وقاتل المنذر اللخمي والد النعمان وهو زوج حليمة بنت الملك الحارث وخرج من دمشق جيش ثالث بقيادة الملك المنذر الغساني وكان هذا الجيش اقوى الجيوش ، وقد ابى الملك المنذر يومئذ ان يكون على رأس جيشه قواد من الرومان

والقراء يذكرون زيارة الملك المنذر قصر البريص في دمشق بعد حادثة قتل هيباس واجتماعه الى عمرو بن الحارث والى الفتاتين هند وماريه ثم خروجه الى قتال النعمان اللخمي ؟

الفصل السابع عشر

معركة تدمر

واصلت جنود المنذر الغساني زحفها في طرق واعرة ضيقة تلتف بها جبال جرداء عارية تظللها شمس مشبوبة وافق مضطرم ثم نصبت خيامها في ضاحية جيرود على كتف الطريق المؤدية الى تدمر

ولما استراح المنذر في دير قديم مع حاشيته وابناء عمه دعا اليه رؤساء الجيش وقواده فأرادهم على رقابة الطرق والمعابر في الصحراء حتى لا تتسرب اخبار الجيش الى العدو المرابط على مسافة ليلة من تدمر

وكان النهار قائظا لفاح الاوار فانقطع القواد والرؤساء الى انشاء المحارس على الحدود برغم ذلك الهجير الذي يهد القوى ويذيب النفوس وفي صباح اليوم التالي وصل الى جيرود قواد الغساسنة في حمص وبصرى فتحدث المنذر اليهم عن الخطر الراعب الذي يتهدد اطراف بلادهم واستنفرهم الى الاستماتة في سبيل انقاذ الارض التي دفن فيها عيون غسان ملوكهم وفلذات اكبادهم وقال لهم :

— لقد اردنا الخلاص من الروم فما وفقنا اليه ولا يزال قيصر يأبى علينا تلك الحرية التي اردناها لبلادنا ، وانتم تعلمون انكماشنا عن قيصر وامتناعنا عن اصراخه في الحرب التي اثارها الفرس خلال ثلاث سنوات عاثت فيها البلاد طائفة من المناكد حفزت الفرس وحلفاءهم المناذرة الى استصفاء الحدود واجتياح الاراضي والعبث بالجنات والحقول ، حيال هذه الكوارث الشجية رأيتني مسوقا الى مصانعة قيصر بعد ذلك الجفاء ولكنني احببت ان احسن الى قومي فلا تراق دماؤهم فدعوت النعمان الى طرح السلاح ورجوته ان تكون بيننا موادعة طويلة نستريح اليها ، ولكن النعمان تمادى في استهتاره وعبثه بكرامتنا فراح

بحشد الجيوش على اطراف بلادنا ، يا للعار ! يا للعار اردنا الى الروم حرية بلادنا فابى الفرس ومن والاهم من المناذرة الا ان يتداعى بناء الحرية ، فاذا اريق في هذا اليوم دم بريء في هذه الصحراء فان اثم ذلك يقع على من في العراق من ابناء عمنا الذين جعلوا انفسهم خولا للفرس وعبداناً لرؤسائهم

وحينما اراد النعمان ان يمضي في الثأر بأبيه الذي قتل في يوم حليمة عرضت عليه صلحاً فابى وبعث الي قائلا : « ليس لدم ابي كفؤ غير دمك » فانتم ترون من ذلك ان النعمان ماض في سبيله حتى يقتلني بدم ابيه

وسكت المنذر كأنه يريد ان يستوثق من تأثير حديثه في نفوس القواد والرؤساء فكان له ما اراده فان الذين اجتمعوا اليه لم ينبسوا ولكنهم خرجوا من مجلسه الى جيادهم فركبوها ومضوا يلتحقون بالجنود فجاء سكوتهم دليلا على انهم يصانعون المنذر ويسايرونه في اغراضه ومقاصده ولم ينقض اسبوع حتى طفرت جيوش غسان من اماكنها للوثوب على جيوش النعمان بن المنذر ملك الحيرة

* * *

خيم الغسق على تلك الضواحي الدانية من تدمر واخذ القمر يريق اشعته على الرمال التي شهدت الوف المآسي والفجائع منذ نشبت اول حرب بين ملوك العراق وملوك الشام واخذت نسمات الليل اللينة الرطبة تحمل الي خيام المناذرة القائمة على جداول متفرقة مبعثرة بعض العزاء فيجد الغزاة في الرطوبة صبابة نفس يرح بها قيظ النهار وحره

يا للبؤس ! لقد قطع الغزاة المراحل واختلف عليهم ليل ضرير النجم ، ونهار قائظ ثم مروا بالاودية والصحاري والقرى وعرضت لهم آثار العمران في الاماكن الخصبة الممرعة فقوضوا صروحها ودكوا معالمها كأنهم يحاربون في ارض اجنبية.

رقد بعض الغزاة في الخيام ، وجعل بعضهم يروح ويغدو حول مسيل

الماء ولأصواتهم في هذا القفر الأفيح عصف الرياح ! بل لقد كان بعضهم يغلو في ضحكه ومجونه واستهتاره بالموت !

ثم تعالى هذا الضحك حتى اكتظ جوف الليل بعصفه فتنـــاسى الجميع انهم يقيمون مأدبة سخية من لحومهم وجسومهم للطيور الجوابة المتنقلة في فضاءالبادية

وفي تلك الفينة حملت اليهم الرياح صدى بوق بعيد ، فانتبهوا له وراحوا ينصتون الى رعوده وقد تقلصت شفاههم الضاحكة ونصلت وجوههم المتوردة فما عادت تضيء وخالط نفوسهم الرعب

تجلجل صوت البوق كرة اخرى فاستفاق الرقود في الخيام وقاموا الى اسلحتهم وفي اقل من القليل تحولت تلك الاماكن الوادعة المطمئنة الى ارض جائشة ثائرة

وتبارى قواد الجيش من كل فج عميق ، وهم يصيحون :

العدو ، العدو !

وانتشر الخبر في مثل خفة الوميض في خيام الحيريين فاخذ قوادهم يتطلعون الى الافق البعيد فاذا ابصارهم تقع على اشباح زاحفة تحت ظلال الليل الفاحمة

وبعد قليل اطل قابوس بن النعمان بن المنذر فتعالت الاصوات بالهتاف له حتى غص الأفق بالصدى

ــ لقد هاجمنا ملك غسان على حين غرة !...

فهزت هذه الكلمة البسيطة نفوس الحيريين وفجرت حماستها فاخذوا يصيحون

ــ يالثارات المنذر ، يالثارات المنذر ،

لم تمض ساعات قليلة من الليل حتى اشتبك العدوان في معركة لاهبة ، كان الليل الساجي وكواكبه من شهودها ، وكان صليل السيوف الصدى الوحيد الذي يملأ الفضاء ويعطل سكونه ! ؟

لها الله من ليلة اختلطت فيها روعة الغسق بروعة الدم المراق !

قاتل الحيريون قتال اليأس ، حيال عدو ضخم اخذ يلتف بهم من كل ناحية

حتى سد عليهم المذاهب .

حمي وطيس المعركة وحالت الارض الى لجج موارة . يتدافع في هزيمها القاصف صليل الصفاح ، وصدى تكسر الرماح ، وجلبة العجلات ، واصوات الابواق ، ونشيج الجرحى ، ولخام القتلى !

لم يفقد الحيريون رباطة جأشهم بل كانوا يصدقون الحملة على اعدائهم حتى كادوا اكثر من مرة يشقون صفوفهم !

ياللهول ، ياللرعب !

اصطبغت الجداول التي كانت تسقي تلك البطحاء بالنجيع الاحمر وتهافت العدو على خيام عدوه يضرم فيها النار الحاصدة في غير رحمة ولا شفقة .

وحجب الأفق دخان النار التي كانت تحمل في لهبها المتصاعد الى السماء المتوارية صورة حمراء لكبرياء الأنسان وصلفه وجبروته !

وتلك السهول التي امرعت في الماضي وازهرت وكانت مظهراً فتانا لجهد الانسان وكدحه حالت الى هشيم .

وذلك الفضاء الذي كانت تنيره شمس دافئة تريق انوارها على العشب فتكسبه الحياة والنماء والخصب تنكرت معالمه وخبت انواره فهو محاط بلهب احمر يشق مداه الأفيح وله رنين العواصف في ليالي الشتاء !

وفي النهاية تمكن الحيريون من اقصاء خصومهم على الرغم من كثرة الخصوم ثم فتحوا طريقاً اطلوا منه على الفضاء فاذا هم قد نجوا من الحصار فراحوا يؤلفون شملهم الصديع وابواقهم تعصف وتجلجل في كل ناحية حتى غاب في صخبها وارعاذها ذلك النشيج الأليم الطافر من صدور الجرحى ، وتبارى فريق منهم في اطفاء النار التي اضرمها الغساسنة في الخيام .

وكانت النار تحتضن فرائسها في غير رفق فاخذت الخيول والجمال تهيم في تلك النواحي سادرة ذاهلة لاتبصر طريقها !

اللهم ان هذه النفوس التي توافت الى الموت حتى حصدتها سيوله العارمة لم تزهق في الدفاع عن ارض الوطن ، ولكنها استساغت الفناء في سبيل الاجنبي !

لقد كان مقدراً لهذه النفوس الهالكة ان تحفر في هذه البطحاء رموساً كريمة لو انها ارتضت الموت في سبيل الفكرة المحسنة الى وطنها ، ولكن النسيان الممقوت سيطوي في غياهبه هذه الشموس الخابية لأن انوارها لم تشأ السطوع في آفاق العرب بل فضلت ان تنير آفاق الفرس والرومان !

قتل من الغساسنة في هذه المعركة الحمراء خلق كثير بينهم لبيد بن عمرو صاحب يوم حليمة وقاتل المنذر اللخمي فقطع الحيريون رأسه ومضوا به الى سرادق قابوس ناعمين وادعين مغتبطين كأنهم خرجوا من مأدبة حالية بالمفارح والمغابط !

وشد ما كانت دهشتهم حينما رأوا السرادق خاليا من ربه فروعهم الحادث واشجاهم فمضوا يبحثون عن قابوس بين الجرحى والقتلى ولكن طوافهم الشجي لم يبلغ بهم صبابة نفوسهم المكدودة !

ثارت ثائرة الحيريين فتعالت اصواتهم حتى اشبهت صياح حيوان جريح فاستأنفوا المعركة في عنف وشدة وقد صيرهم اليأس في ذهلة وجنة وجعلهم غلاظا في البأس ، نعم لقد ضيع الحيريون الأمل ، ولكنهم استبقوا في نفوسهم تلك الشجاعة النادرة التي قادتهم اكثر من مرة الى اسوار القسطنطينية يوم مشى بهم ملوكهم الى قتال قيصر .

انهم لم ينسوا وهم في مواطن اليأس تلك المعارك اللاهبة الحمراء التي ادنتهم من عاصمة قيصر ولكن هذه الذكرى الهائتة التي كانت توقظ حماستهم في الساحة الحمراء لم تنفعهم ولم تمنعهم الفشل على ابواب تدمر .

ثم اعتورهم اليأس واشتملت عليهم سحبه ودجناته فاعترفوا بعجزهم عن المضي الى النهاية في الدفاع وارادوا الى عدوهم الهدنة ! ؟

وفي تلك الفينة كان المنذر الغساني الذي خسر ثلث جيشه يستقبل قواده الذين

حملوا اليه حصاد هذه المعركة الحمراء في تلك الليلة الظلماء

لقد كان حصاد تلك الليلة طائفة كريمة من اسرى الحيريين بينهم قابوس بن النعمان ملك الحيرة .

وكان المنذر الغساني في سرادقه فلما دخل عليه قابوس غشيته رعدة شديدة ففاضت عيناه بدمع والتفت الى قابوس قائلا :

— واخيراً يا ابن عمي لقد تلاقينا !

فلم ينبس قابوس !

ولما اراد بعض قواد الغساسنة جز ناصية الاسير الكبير صاح المنذر :

— ان الملوك لاتجز نواصيها ! واقبل على قابوس يريد ان يرفه عنه وقال له :

— لقد قتل منا ومنكم خلق كثير ، فما احرانا بسلم طويل ؟ !

فاطرق قابوس يفكر ، ثم رفع رأسه قائلا :

— دعني اولا اطريك على مروءتك وشممك فلقد ابيت ان تجز ناصيتي فصنت بعملك كرامة الملوك من ابناء عمك ولم تعرضهم لعبث السوقة ، وستظل ذكرى هذا العمل النبيل في نفسي ! ؟

ثم سكت ولج به جواه وحزنه فوارى المنذر عينيه بكفه استحياء من هذا الحزن البليغ وفي تلك اللحظة وفد بعض الغساسنة على المنذر وقصوا عليه نبأ مقتل لبيد بن عمرو الغساني فاطرق المنذر وراح يفكر ثم رفع عينيه الى قابوس قائلا :

— لقد ثأرت بجدك القتيل من قاتله في يوم حليمة ، واحسب دم لبيد كفؤا لدم المنذر .

فتأوه قابوس وانثنى قائلا :

— يشجيني كثيراً ان يموت لبيد هذه الميتة ، ولكن اي قيمة لحياة البطل اذا لم يختتم ايامه في رونق المعارك المجيدة ! البطولة ايها الهمام كالزهرة تحتاج دائما الى طل يسقيها ويفعمها اريجا وحياة ، والدم هو الندى الذي يسق البطولة وينعشها

ويترعها بالحياة والنماء والتوثب .

لقد بدأ لبيد حياته في يوم حليمه ، ولكنه اختتمها في يوم تدمر .

فقال المنذر : صدقت ولكني ارجو ان يطوى الماضي بسخائمه واحقاده ، وان يفتح امامنا مستقبل جديد يحمل الى غسان والى الحيرة مرح حياة نقية لايخالطها شيء من عنت الماضي وتباريحه ، لقد كانت قلوبنا مطوية على مشاعر ونزوات مرة يائسة ارتنا العالم كله داجيا قاتما حتى لم نعد نعترف للحياة بغير فضيلة واحدة ! فضيلة الحزن والأسى وحتى تناسينا الفضائل الاخرى التي تسمو بالنفوس الى الحب والبر والعطف .

قل لابيك يا ابن عمي ان غسان دفنت ثاراتها في صحراء تدمر ، فلعله يدفن ثاراته في صحراء العراق ! عد الى ابيك في هذه العشية وقص عليه كيف غسلت غسان حوباء النفس في دم شبابها المسفوح ودم شيبها المنضوح .

وتقدم من قابوس مترفقاً شاجناً حتى احتواه بين ذراعيه فلم يتجلد قابوس لنظرته ثم رفع يديه فمر بهما على عينيه كأنما يريد ان لا تعلق بذهنه صورة هذا المشهد الشجي وقد خيل اليه ان قلبه عاد هشيما محطما فمضى يذرف الدمع المدرار وراح هاماً :

ـ سأذكر لابي هذا الذي شهدته ؟

ـ عد الى قومك قبل ان يعتصرهم اليأس من ابطائك عليهم ! . . . اي غسان لقد طوينا النفوس على حب في هذه الساحة الحمراء .

واطلق المنذر سراح قابوس فمضى الى جنده المحطم اليائس والصبح لم يتنفس بعد فاستقبله رجاله بالهتاف وحملوه الى سرادقه على المناكب .

وشخص المنذر الغساني الى رجاله قائلا :

ـ لها الله امي الرحيمة البارة ، لقد اتيت اليها قبل خروجي الى الملحمة وقلت لها « بركتك يا اماه فان بي اليها لحاجة فروعها صوتي المتهدج وراحت ترفع

الي عينيها الذابلتين ثم سألتني ملحفة واجمة « الي اين ؟ فقلت لهـا ان ابا قابوس صدف عن الحلم وابى الا ان يثأر بابيه من غسان فقالت لي « اي بني ، ان الصلح خير وابق : فاذا مضيت الى عدوك فلا توقظ في نفسه روح البغض ولا ، تنافسه في العصبية فانها الاصل في تفرق العرب ! وهي كذلك الأصل في هـذا البؤس الذي يخالط عيشهم .

ثم ابت علي بركتها قبل ان اسمعها وعداً تطمئن به الى ان تصحهااثر في نفسي ، فكان لها مني الوعد ، فمضيت الى قتال عدوي وبركتها تهزني الى تلك الفضيلة الباقية التي تستأصل البغض والصلف .

وحينما دخل قابوس علي كان خيال امي يمر بنفسي وكانت كلماتهـا تثب في جوارحي ، فما وسعني غير الصفح فصفحت واقبلت على عدوي اواسيه واعزيه .

فاه المنذر بهذه الكلمات الأخيرة في رفقوتؤدة وراح ينظر الى ذلكالسهل الذي تغطيه جثث القتلى والجرحى ، فخيل اليه انه يسمع حشرجـة الصدور في النزع الأخير فوجم قليلا ثم اعتوره انكماش لحزن فالتاع ثم لاحت في عينيـه دموع ساكنة خرساء اودعها هذا الذي يحتويه قلبه من الم وجوى ويأس ! .

وظلت نظراته عالقة بالسهل حتى عرض له آخر مشهد من مشاهد هذه المأساة الشجية فرأى الحيريين يتوارون عن الأرض التي سقوهـا بدمائهم وقد حملوا الجرحى على عجلاتهم المحطمة !

وكان الصبح قد تنفس ، فظللت انواره هذا الموكب الشـاحب الذي يحمل الى العراق بقايا قبلة حمراء رسمها الموت على وجوه فتيانه القتلى

وبينما كان هذا الموكب الحزين يتوارى خلفسحبالصباح الغائمة الندية اخذت الطيور والعقبان تتهافت على تلك الجثث الهامدة النائمة في حضن الموت .

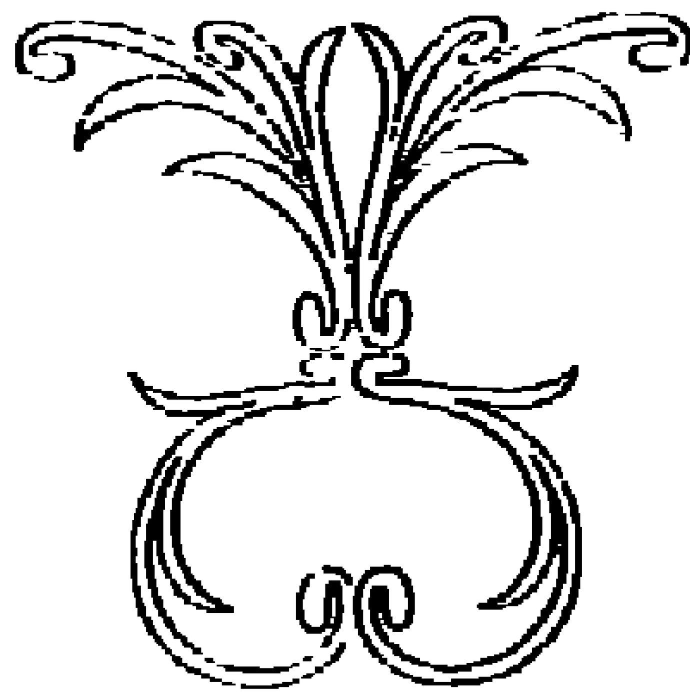
عرض هذا المشهد المؤلم للمنذر فاكفهرت سحنته وتفجرت عينـاه بدمع ، ولكنه لم يستطع التحديق الى هذه البقايا المتناثرة فوارى عينيه بكفه وقال لرفاقه :

« لنبتعد عن هذه الأرض الجاهمة فان مشهد الجثث يؤذيني ويرمض نفسي .

وفي خفة الوميض تجمعت جيوش غسان وتأهبت للسير في طريق دمشق بعد ان تركت طائفة غالية من القتلى

وظهرت الشمس في افق بديع بهي لاغيم فيه واخذت اشعتها تظلل الأحياء كما ظللت الأموات .

وكان صوت البلبل في تلك الساحات التي يغشاها الفنـــاء الرثاء البديع الذي حملته الطبيعة الى الموتى ؟



الفصل الثامن عشر

دمعه في ابتسامة



— ما اجمل شمس هذا الصباح المائع ؟

— ايروقك طلوع الشمس في الحقول والجنات ياماريه ؟

— نعم نعم ويلذني كثيراً ان تلثم اشعة الشمس هذه الأزهار الضاحكة التي حناها الندى البليل ، انظر الى هذه الوردة الحمراء ، انها لاتبرح في كمها وتكاد تنبثق وهذه الوردةالصفراء ! لها الله ما ابهاها ؛ لقد تفتحت وازهرت ، انها كفكرةالشاعر التي تنمو وتزهر وتأخذ الوانها من تباشير الصباح .

— ما اجمل وصفك هذا الزهر الموتق البديع ولكن في صوتك نغمة يأس وحزن وزفرات نفسك تطفو على صوتك حتى اصبحت احس ضرامها فهل صرت تخشين شيئاً ؟

— كلا كلا : ولكني جزعة على هذه الأزهار ، ويكاد يغمرني حزن شديد كلما رحت افكر في الأثر الذي يتركه منجل الحاصد في هذه الرياحين الباسمة المطمئنة الى الشمس والى الندى ، اواه ما اقسى الفلاح ، بل ياله غبياً اذ يطوف على العشب الخبيث فيستأصله ، ثم هو يدوس هذه الأزهار بقدميه غير متبرم بعمله ولا مشفق على نضارة الخمائل ! بل انه ليقتلع العشب الخبيث ، كما يقتلع العشب الطيب متناسياً ما اراده الله في خلق هذه الازاهر ، وجاهلا ان الطبيعة خلقت الرياحين من عنصر كريم حتى يجد المحبون في اريجها بعض العزاء .

— ولكني اشم عبق اليأس في كلماتك ! فهل روعك عيشك هنا ؟

— الحاصد القاسي يستأصل العشب الأخضر ، ويحطم الأزهار في غضارتها وزوائها ، والذئب يأكل الحمل الوديع المطمئن ، والليل يحجب النهار ، والحب يحصد

شباب المرأة ويتأكل نضارته ! ليس هذا الذي يلوح لك في حديثي يأسا ولكنه الأسف يترع نفسي ويفعمها الما .

— باليأسك الشديد !

— ما انا بيائسة ولكن جزعي شديد عنيف .

— مم تجزعين يامارية وانت في حمى عمرو ؟

— لقد بكيت ماضي لاني لم املك شيئاً منه ، وبكيت حاضري لاني مريضة ومدنفة وقد منعني مرضي ان اتذوق لذاذاته وسيكون بكائي على المستقبل غزيراً لاني اجهله ولا اعرف صورته ! بل اني لجازعة لأن المستقبل لن يكون ارأف بي من ذلك الفلاح الذي يحصد الاوراق الخضراء .

— من اين تسللت اليك هذه الصور الربداء ؟

— من حديث القلب الى النفس ! فلشد ما فزعت في خلواتي الى قلبي ورحت اناجيه واتحدث اليه ، فكان همس نفسي ينقل الي احلاما مروعة تحمل الي صوراً بشعة لا استروح اليها .

— ولكنك شابة وفتية وقد يتغلب شبابك على مرضك وهو ظل زائل وبرق خالب يضمحل ويفنى ! الهذا جئت بي الى هذه الجنات ؟ اكان الموت هو الذي حملك على الطواف معي في هذا الصباح ؟

— كاد الموت يغشاني ، واكاد المح خياله حتى ليخيل اني المسه لمساً . . . ناشدتك الله ياعمرو الا تكون في غلظة الحاصد ، وقسوة الفلاح ، فاذا اغمض الموت عيني الى الأبد فضع رفاتي في بقعة بعيدة عن الناس ، فاني لا احب ان يطأ قبري اولئك القساة الذين يتلذذون في عبثهم بالقبور بل لا بأس ان تظلل قبري خميلة منفردة وان يكتب على غرفتي الأخيرة التي اعوذ بسكينتها « هذا قبر فتاة عاشت في هذه الدنيا بلا امل وفي غير رجاء ، وقد تخطفها الداء في ربيعها السابع عشر »

— ولكنك فتية وشابة والموت بعيد عنك فليس في قدرته ان يدهمك وانت

تضحكين لرواء العمر وبهائه . . . اللبوت جئت بي الى هذه الجنات ؟ الم نخرج سحراً لنقطف اجمل الرياحين وابدعها ولنصنع منها مجموعة ساحرة تحملها يداك البضتان الناعمتان الى ذلك الرجل الذي عاد من المعركة ظافراً مرتفع الجبين ؟ انسيت اي عيد هذا الذي تحتفل به دمشق ؟ لقد عاد المنذر من تدمر وهو يحمل الى غسان النصر والمجد ، ازهارك يامارية ازهارك ؟ اتمنى ان لايذهلك هذا الشجن العارض عن قطف هذه الأزهار .

فوضعت مارية يدها على خدها وانثنت قائلة :

— لقد اذكرتني المنذر ساعة نسيت هذا البطل الذي رد الى غسان شرفها ووقارهـا . . .

— اذن فليس لك ان تيأسي بينما الناس يمضون الى الامل وبينما الحياة الضاحكة المستبشرة تتوافى اليك برياحينها وازهارها ؟

ومضت مارية الى الزهر تجتنيه ثم عادت الى عمرو باسمة متهللة وقد فارقها شجنها البليغ ، ورأها عمرو تطفر اليه فاحتبسها بين ذراعيه وغمرها بقبلاته هامساً .

— لقد مست شفتي شفتيك واقسم ان النحل لن يتذوق من اية زهرة مثل هذا الشهد الذي تذوقته من شفتيك .

* * *

خرج عمرو بن الحارث في صباح اليوم الخامس عشر من شهر حزيران سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة الى حديقة القصر ترافقه مارية تلك الفتاة التي احبها واحبته واحاديث النصر الذي لم يفت غسان في تدمر تفعم دمشق مبسوطها وحالقها وقد خرج النـاس الى الضواحي للاستمتاع بطلعة ذلك البطل الذي انتصر على جنود الحيرة .

وكانت مارية في ذلك الصباح عليلة مدنفة وقد اشتد بها السعال حتى كاد يمزق حشاشتها ، فلما مرت بالحديقة وحاولت تطف بعض الازهـار عرتها رعشة هزت جسمها فانكمشت وامتنعت عن قطفها ! فلم يفت حبيبها هذا الشجن فتهـافت

عليها يحدثها باطيب الاحاديث وهي معرضة عن احاديثه لان الداء الذي يغالبها باعد بينها وبين مسارح الحياة فما استطاع عمرو ان ينزع من مخيلتها تلك الصور المعتمة التي تعرض لها ، وكانت تسعل سعالا مضنياً يكاد صدرها الشاجن يطفر تحت عصفه .

لقد خرج الحبيبان من القصر الى جناته لغرض نبيل وجليل ، فما عتمت صورة هذا الغرض النبيل الجليل ان فنيت في صدر ماريه فامتنعت عن قطف الرياحين ورأت في حياة الزهر ما يتماثل مع حياتها فقد كانت تحسب نفسها ضعيفة واهنة ، وكانت ترى الازهار ضعيفة واهنة

وطفقت تروح وتغدو بين الاوراق والافنان ، سادرة حائرة كأنها خيال يضرب في نواحي الارض مثلها مروراً ! ولكنها كانت تتحاشى ان تهبط بيدها على ريحانة من تلك الرياحين المتضوعة .

ثم سقطت عيناها على خميلة منعزلة ،كما تسقط النحلة على زهرة مفتحة فتريثت في مشيها ووقفت تنظر مبهوتة واجمة الى الازهار والى المياه والى الشمس فتهافت عمرو عليها وجعل يلطف هذا الشجن الذي يخامرها ويريها الطبيعة الباسمة المتوردة ويعرض امامها مشاهدها وهو عالم بالاثر الحسن الذي قد تحدثه هذه المشاهد في روحها وعواطفها ، ولما طلعت الشمس التفت اليها قائلا : « انظري اليها فأنها في مثل روائك وبهائك ولكن انوارها لاتلبث ان تذوب في خضاب الشفق بينما تسبح انوارك في روعة باقية وبينما تغشى الناس عشية وبكورا ؟

فلم تجد مارية في ائتلاق الشمس ما يشحذ حواسها ويرهف مشاعرها ، فقد احالها المرض الى دمية خرساء فعاد عمرو يهدهد آلامها وجعل يريها النهر دافقاً موارا تتدافع لججه على العشب وكان يقول لها « الا تسرين بهذا الماء وهو يشتد ويصطخب ! انه كعواطفي تمرداً وتوثباً ، ثم اقبل عليها يصور لها هذا الذي احتوته الطبيعة من صور فتانة ومشاهد خالبة ولم يتردد في ان يشرح لها الحياة ومنحها

المحسنة كالشباب والصحة والحب والأمل الباسم ولذاذة القبل المعطرة فصدفت عن احاديثه كلها وقطبت حاجبيها من تململ وانثنت واجفة من يأس .

وكان السعال يضنيها ويؤلمها فما عادت ترى في هـــذه الطرف التي اشتملت الطبيعة عليها مسلاة نفسها الحائرة الهائمة وهي التي وجدت في الماضي لذاذة الحيـاة ومرحهـا ونشاطهـا .

وبغتةرفعت مارية عينيها الى الأفق وراحت تضحك ضحكة حلوة ساذجة ؛ ثم تابعت طوافها حتى انتهى بها الى سرادق منعزل في جنة القصر فتسربت اليه وجلست حيال مقعد حجري في ناحية تشرف على الينابيع الهادرة ، وكانت اشعة الشمس لاتبرح خفيفة فلذت هذه المشـــاهد البارعة التي عرضت لهـا وتفتح ذهنهـا والتمع وحال قطوبها الى ابتسام ! ؟

وكان عمرو يلاحظ هذا التحول الفجائي الذي طرأ على شعورها فتهلل وجهه واشرق ورجا ان تجد هذه الحبيبة الغالية في الطبيعة تلك العناصر التي تحتاج اليهـا لامراع حياتها بالفرح والصحة والشباب ، ولما تكلمت خيل اليه انه يسمع ذلك الغناء العذب الذي انصت اليه قبل ايام وهي يومئذ عن كثب منه .

طفقت مارية تتحدث الى عمرو عن الشمس والحياة والحب والألم وعمرو يعي احاديثها واحزانها المرة تجذبه اليها ، فاذا امالها الحديث الى ذكر المغابط والمفارح عاد مراحا ضاحكا وكان يشعر بجوى شديد حينما تتحدث اليه عن الألم والسهد والاغتراب .

عاشت مارية في القسطنطينية تحت جو بديع يزخر بالوان فتـــانة ، وقضت طفولتها في قصر غصت جنباته بخمائل زاهية تشرف عـلى بحر ازرق وادع مطمئن لم تلمحه ثائراً جائشاً ، ولا ابصرته عاصفا صاخباً فاثرت هذه المشـاهد الجذابة في خلقها وسلائقها فاذا هي رقيقة ناعمة واذا هي ترث من الطبيعة البهية خيالا سـاميا وروحا متطامنا وادعا يستأنس بالجمال والكمال ، ولما قص عليهـا عمرو حديثه عن المنذر انتبهت في نفسها هذه السلائق الطيبة الكريمة فعكفت على جمع الأزهار المختلفة

حتى انتظمت في يدها مجموعة بديعة من الاوراد الحمراء والبيضاء ثم راحت تدنيها من فمها فرحة قريرة منزوفة لامن خمر ولكن من اريج .

ولما اطمأنت الى جمع الازهار سألت حبيبها الفتى ؟

— متى يفيء الملك الى سربه ؟

— انه غير بعيد من القصر ، افلا تسمعين هذه الاهازيج العذبة التي يحملها الهواء الرطب الينا في هذا الصباح ؟ انها اصوات هؤلاء الفرحين الذين راحوا يستقبلون الملك على ابواب المدينة !

— مازلت اذكر كلماته الرقيقة حينما ارادني رفيقة له في رحلته الى القسطنطينية ! وفي تلك اللحظة خيل الى ماريه انها تسمع صوتا يناديها فالتفتت الى ناحية الصوت فاذا هي تلمح هندا على شرفة القصر المطلة على الحديقة وقد راحت هند تضحك وتصفق بيديها قائلة :

— ألى هذا الحد الهتك مناعمك عن هند ؟

— عمي صباحا ياهند !

— ماذا كنت تفعلين في هذا الصباح الباكر ؟

— كنت اجمع ازهاراً . . .

— لمن تجمعين ازهارك ؟

— للرجل المنتصر في تدمر !

— ليتك كنت بجانبي على الشرفة اذن لرأيت معي موكب الملك

— اتتكلمين جداً ؟

— اسرعي ، اسرعي . . . فان الموكب يكاد يدخل القصر ! .

فضحكت مارية والتفتت الى عمرو قائلة :

— وانت ما ذا تفعل ؟ اتظل في مكانك فلا تستمتع برؤية الملك ؟

— سألحق بموكب الملك منذ هذه اللحظة .

ـ كنت اظنك تمكث هنا الى جانبي ؟

ـ اذا الحفت علي في البقاء حيالك فعلت .

ـ هلم معي الى الشرفة

وعاد عمرو ومارية الى القصر فانضما الى هند ...

* * *

دمشق مجنونة عابثة ! دمشق منزوفة نشوى !

تسكر المدن كما يسكر الانسان ! وللمدن خمرة ولكنها ابلغ اثراً من خمرة تذهب بلب الانسان !

لقد وثبت دمشق في اليوم الخامس عشر من حزيران الى لقاء المنذر الغساني فاحتشد في طرقاتها النساء والاطفال والشيوخ وطفق جميع هؤلاء يغنون ويتصايحون ويرقصون ويعزفون حتى ضاع ضجيج رقصهم في ضجيج المعازف ثم دخل موكب الملك الى المدينة فكان لاندحة له لبلوغ قصر البريص عن المرور تحت ثلاثين قوساً ضربت في الطرقات والازقة تكريما لذكرى معركة تدمر ولما عرض الموكب للجماهير صدفت هذه عن هداها وضيعت وقارها فتدافعت تشق الصفوف لتطلع على الموكب .

يفعل النصر في الجماعات ماتفعله الخمرة في رأس شاربها ولكن للخمرة التي تستسيغها الجماعات نشوة خاصة فبينما تعقل بنت الحان لسان شاربها وتطفيء جذوة تفكيره وتخمد احساسه وتنقله الى عالم يعج بالصور الرديئة اذا لهذه الخمرة الناشئة عن النصر نشوة في الجماهير توقظ اذهانها وتفتح عواطفها وتكشف لها عالما يعج بالصور الجميلة المونقة .

نعم ان الجماهير لا تلبث ان تضيع وقارها وتعقلها تحت تأثير الاحساس الجديد الذي يبعثه الانتصار فيها ولكن صدوفها عن رزانتها لايغطي فضائلها .

لقد توسط الموكب المدينة واطل الملك المنذر على الجماهير راكبا جواده

الابيض فتدافع الناس الى صوبه مغرقين في الهتاف والدعاء وكان لباسه الارجواني المذهب فتنة لناظريه .

يا للروعة المشهد ! لقد كان تاج المنذر شمس هذا المهرجان وكان الصليب الذهبي الذي يعلوه موضع حديث الناس !

وقفت امرأة في شرفة منزلها تتطلع الى الموكب فلما عرض لها الملك في لباسه وتاجه وصليبه صاحت ما اجمل هذا الذي تقع عليه العين في هذا الصباح ، له الله من ملك كريم جميل فتان .

وهنالك في ناحية اخرى فتيات ساحرات بالغن في الهتاف وصحن :

— ياله فتانا . . . لها الله امه التي ارادته ساحراً كما يشاء السحر .

واخذت الازهار والرياحين تتساقط على الملك وقواده كالآتي المنهمر ، حتى حال الموكب الى ربيع ضاحك وحتى توارت الارض خلف غمامة من ريحان واقحوان

ولكن هذه الافراح والمغابط ، وتلك الذكريات الطافحة نبلا وشرفا ومجداً لم توقظ في المنذر غير شعور واحد هو شعور الالم الذي صافحه في ميدان تدمر فظلت عيناه شاخصتين الى الجماهير ولكنه لم يكن يرى شيئاً ، لان غمامة كثيفة كانت تمنعه ان يتبين الناس .

وكان يلوح شاجناً حزيناً في وسط هذا الفرح الصارخ ففطن الناس لأساه وجواه فراحوا يتهامسون وقال بعضهم لبعض :

— ليس في سحنته ما يروق ، انه جميل ولكن جمال وجهه تغطيه سحابة حزن عميق ، وقال فريق من الناس :

— ولكنه ناصب مكدود ! وهو لم يسترح بعد .

وهنالك امرأة جعلت تصفق بيديها ، فلما اخذ بصرها الملك ورأت وجهه الجاهم راحت هامسة !

— يخيل الي ان الشجن قد نزع من نفسه ما يبهجها ويسعدها واراق على

سنوات شبابه جميع احزان الشيخوخة .

وهنالك امرأة اخرى كانت عن كثب من الاولى فلما سمعت كلماتها الاخيرة صاحت قائلة :

— اترين في هذه الطلعة الذابلة الغارقة في سحب التفكير طلعة الرجل الظافر الذي يعود من المعركة ضاحكا مراحا ؟ اكاد لا اصدق هذا الذي يقال عن بلائه في اعدائه .

كاد هؤلاء الذين نهدوا من بيوتهم للاستمتاع بمشهد الموكب الظافر يشكون في النصر ولكن مشهد الرايات الخافقة ماعتم ان ابادما علق بنفوسهم من ريب وسوء ظن.

ثم ابتسم الملك للذين يحيونه ابتسامة عذبة حلوة نسخت من قلوبهم آيات الشك فعادوا يؤمنون بفوزه وطفق فريق يعتب على فريق ايغاله في الشك وقال بعضهم

— انه تعب وفي حاجة الى ظل ظليل .

وهكذا بدلت الجماهير عقيدتها في الملك فاصبحت تلتمس لحزنه اكثر من عذر بعد ان لجت في وهمها وحدسها !

* * *

دخل الملك قصر البريص يلتف به ولداه النعمان وامرؤ القيس وابن عمه جبلة ابن الايهم ، فاستقبله رجال القصر وفي طليعتهم عمرو بن الحارث ومارية وهند ، وكان اللقاء مؤثراً شجياً فقد اخذ المنذر عمراً بين ذراعيه وغمره بقبلاته كأنه لم يره منذ سنوات وجعل عمرو يوغل في بكائه كأنه لم يتوقع ان يؤوب الملك مثل هذه الأوبة السعيدة الهانئة ، ولما هدأت النفوس قال الملك المنذر :

— اي عمرو قل لي كيف انت ؟

— لقد عشت آمنا تحت فيئك ، وسأظل آمنا . . .

ولم يقل عمرو اكثر من ذلك فالتفت المنذر الى ماريه واردف :

— كيف كانت صلاتك يامارية ؟

فحنت رأسها وقالت مستحيبه :

— كانت صلاة النفس المحطمة الضارعة ؟

ثم رفعت عينيها اليه وقدمت له مجموعة ازهارها المتضوعة وقالت :

— هذه الازاهر ؛ هذه الازاهر ، هي لك وقد جمعتها في هذا الصباح الباكر لانثرها على قدميك ايها المنتصر في تدمر ؟

فقبل المنذر هديتها ، ومضى يلثم الرياحين قائلا :

— لقد خيل الي وانا اشم عبق ازهارك انني اجد صلاة نفسك البريئة في الوان هذه الازهار ، ثم التفت الى هند واردف :

— وصلاتك انت ؟ كيف كانت صلاتك ؟ فقالت متخافتة :

— لقد دعوت الله ان يكون سلم بينك وبين عدوك ؟

— لا اكذبك الحقيقة فقد ظللت صلاتك الغالبين والمغلوبين فما انتهت المعركة حتى طوينا النفوس على حب ! . . . ثم هز يديها قائلا :

— لن انساك في صلاتي فلعل الله الذي اطل علينا في تدمر من خلال دعائك يرد اليك دروع ابيك ؟

دخل الملك قاعة فسيحة ازينت بالنقوش البديعة فجلس الى مقعد وجمع اليه ولديه فاجلسهما الى يمينه ، ثم دعا عمراً وجبلة فاجلسهما الى يساره بينما كانت هند ومارية جالستين في الوسط وكانت الجماهير الحاشدة حول القصر قد بدأت تتفرق وتعود الى مساكنها وبيوتها فجعل المنذر يقص على ذويه نبأ تلك المعركة الحمراء بلهجة حزينة يائسة توقظ العواطف الراكدة ، ولما وصف فلول اللخميين المتناثرة في البادية في ذلك المساء الحافل بالمخاوف ضحك ضحكة جشاء مرهوبة ومضى قائلا :

— غفر الله لي فلقد قسوت على قومي وكانوا احرياء بالرحمة ، ولم يقل شيئاً غير هذا ثم راح يقبل ولديه اسوان باكياً . . .

وبعد قليل نهض الملك الى حجرة منفردة اعدت لنومه ، وكان التعب الشديد

لايبرح يضنيه ، فاستلقى على سريره واطبق عينيه فلم يستطع رقاداً ، وظلت تلك الاحلام البشعة التي ازدحمت في خاطره في مساء المعركة تغالبه وتتراءى له في الوقت الذي اراده لعزلة هادئة ينقطع فيها الى احلام لاتخالطها هواجس مرة .

كذلك بقيت عيناه مفتوحتين للصور البشعة التي مثلت له ، فروعه من هاته الصور الربداء مشهد اللهب يطفو ثم يمتد ، ويظل على امتداده وانتشاره حتى يتصل بخيام الحيريين والارض يومئذ تستقبل ابناءها الهالكين بين ذراعيها .

ثم عرضت له تلك البقايا المحطمة وهي راجعـــة الى بلادها تنقل موتاهـــا وجرحاها الى بيوت يغشاها الترمل والحزن والآياس العابس ! فخيل اليه انه يسمع نشيج الاموات ، وبين هؤلاء الذين خمدت في نفوسهم بروق الحياة واشعتها المقدسة اب لطفل وليد ، وزوج لفتاة راغدة ، وابن كريم لامرأة يائسة ؛ ثم تزاحم هذا النشيج في صدره وروحه ، حتى عادت كل جارحة من جوارحه لحاماً مريراً مؤلما وحتى خيل اليه ان حياته لاتجد غذاءها الا في هذه الانغام الحزينة الشجية .

ولم يستطع رقاداً فنهض الى النافذة المطلة على النهر ففتحهـــا رجاة الابتراد بالهواء وهو يرجو ان تلطف النسمات المعطرة شجوه وبكاءه بل لقد كان يود لو ان الطبيعة الفاتنة تنسيه بعض هذا الالم .

ثم عاد الى سريره وقد استأنس بالنسمات العذاب ففتح لها صدره ولـكن هذا الهناء الذي خالطه مالبث ان تناثر كحلم فاذا الحزن الممض الموجع يطرق نواحي نفسه ويستقر فيها ثم حملت اليه النسمات تسجيع الطيور المتنقلة الجوابة في فضـــاء الحديقة فمضى ينصت اليها من غير ان يبصر طوافها وتنقلها ، فبدأ تسجيعها بديعاً فتانا ولـكن نغماته جاءت مترعة بالاسى والحزن فلم يسترح اليها وهو الواله الشاجن المحتاج الى النغم المفراح الذي يرقق العواطف والمشاعر .

ولما سجا الليل اخذت هذه الانغام الجاهمه تذوب وتفنى في ذوائب الغسق فلم يسمع شيئاً من اجراسها وكان الهواء الرطب قد اسكر نفسه الوالهة فاغمض عينيه

ونام نوما عميقاً نقله من يقظة راعبة الى حلم ربما كان في مشاهده اروع من اليقظة

وفي صباح اليوم التالي بكر في النهوض من فراشه فدعا اليه جبلة بن الايهم ولم يشأ ان يشرك في مجلسه احداً من ابناء عمه ولما دخل جبلة على المنذر الفاه شديد السبح فلم يفته قلقه وجزاه فجلس عن كثب منه، واراد ان يتحدث اليه فابى وقال له:

— لاتسألني عن هذا الذي اعانيه، فان مرضي روحي وانا في حاجة الى علاج من نوعه، ولقد دعوتك الي لا كاشفك بالأمر الذي ازمعت عمله، وانا مطمئن الى حبك وعطفك!؟

— يخيل الي انك تتوقع مكاره جديدة تخشى اسواءها.

— لست مخطئاً في هذا الذي تقوله فان قلبي ينذرني بحوادث قد لاتحمل الينا شيئاً من السعد.

— اتخشى ان يعود النعمان الى حشد جنوده بعد تلك الهزيمة الشنعاء التي لحقت بولده؟

— كلا، فاني ماعدت اخشى النعمان بن المنذر ولكني اخشى شخصاً آخر

فاجفل جبلة واردف:

— اذن فانت تخاف كسرى حليف النعمان؟

كلا، كلا، يخيل الي انك مازلت بعيداً عن الحوادث الماضية، وقد يكون هنالك مايبرر جهلك هذه الحوادث لان حياتك المنعزلة حالت بينك وبين شجون مروعة تجاذبت غسان في ثلاث سنوات! ..

— اذن فهنالك اشياء لم افهمها بعد ...

— نعم هنالك اشياء مضنية ومذيبة يعسر على من كان شابا مثلك ان يفهمها!

— من الرجل الذي تخافه هذا الخوف الشديد؟

— يوستينوس!

فوثب جبلة صائحاً:

— اتخشى قيصر ؟

— نعم ، فلقد اشتدت المنافسة بين غسان والقسطنطينية خلال ثلاث سنوات لبثت فيها منقطعاً عن قيصر ، وكان هو من ناحية اخرى يغري بعض اصدقائه ورجالاته بقتلي ، فما استطاع سبيلا الى النجح ، ثم رأيتني مسوقا الى مصانعته بعد ان تغلغل الفرس في اراضيه وبعد ان قتل قائده هيباس عدوي الألد فصالحته على ان تكون فلسطين ولبنان من اراضي غسان وعلى ان تكون علاقة غسان بالقسطنطينية كعلاقة ملوك العراق بحلفائهم الفرس ، فلم يرفض هذا الذي اردته منه ، وهو يعلم ان خلفه يوستانيوس كان صديق ابي الملك الحارث ؛ وقد اقطعه في مقابل هذه الصداقة فلسطين ولبنان وتدمر وحمص (١)

لقد دعاني يوستينوس الى زيارته في القسطنطينية فما رفضت هذه الدعوة وعما قليل الحق به ؛ ولكني لا ارى في هذه الزيارة خيراً وقد بت اخشى ان تحمل الى غسان بعض مالا يروق .

— ومذا يستطيع قيصر ان يفعل وهو مروع بالفرس والحيريين ؟ وليس في قدرته ان يستغني عن سيوف الغساسنة ! وهو بعد لايجهل مضاء هذه السيوف التي عرف اصحابها في كثير من المعارك والملاحم وهل في وسع قيصر ان ينسى فضل ابيك الحارث بن جبلة على يوستانيوس قيصر ؟

— ولكن الروم اصحاب دهاء ومكر !

— اذن فانت تخشى ان يمكر قيصر بك ؟

— نعم نعم !

فهز جبلة كتفيه ضاحكا وقال :

— لن يستطيع يوستينوس ان يغدر بك وانا اراهن على انه لايفعل !

— ولكنك لا تعرف هؤلاء الروم .

(١) رينه دوسو في كتابه « تاريخ العرب في سورية قبل الاسلام »

ـــ قد يكون هذا الذي تقوله صحيحاً لو كان يوستينوس رجـــل دهاء وحزم ولكن الرجل ضعيف حتى اصبح يماثل النساء في ضعفه. ثم انت سيد غسان وفتاها المغوار فليس في وسع هذا الرجل ان يفكر في العبث بودادك . . . ماذا أفاتك ان قيصر محاط بدسائس قواده ورجال قصره ؟ انسيت خيبته في قمع فتنة لازاريناس قائده في افريقيه ؟

ـــ اذن فانت لاترى ضيراً في زيارتي القسطنطينية . (١)

ـــ غسان من ورائك ، وربيعة تحت لوائك . وطي من جملة حلفائك . ماذا ايكون لك الربيع المونق في غسان، والمجد الذي لايبلى في ربيعة وطي ثم تخاف قيصر؟

ـــ لقد اذكرتني غسان ، وحببت الى نفسي فتية ربيعة وطي ؛ حقا ان جيادنا لاتعرف كبواً في ملحمة من الملاحم ! سأذهب الى قيصر في الغد .

ـــ اتذهب في الغد ؟

ـــ نعم .

ـــ اهذا كل ما تفعل ؟

ـــ لقد اراد قيصر ان اصحب ولدي في هذه الرحلة ! فقال جبلة :

لا بأس ان يمضي احد بنيك معك ولكني افضل ان يبقى ولدك النعمان في الشام فانه فتى ابيه مروءة ووفاء وبسالة ونبلا وهو فوق ذلك شجاع صليب ؛ وغسان تحبه وترى في شبابه وميض لا ينطفىء ؛ انه سيد فرسان الشام وفي قدرته ان يبقي شرف ابيه .

ـــ الا تذهب معي انت ؟

ـــ دعني هنا عن كثب من ولدك ! . . .

ـــ لقد ادركت ما يجول في خاطرك فانت تحب البقاء في الشام لتكون عن كثب

---

(١) روى سديو في كتابه تاريخ العرب ان الخلاف ظل عـــلى شدته بين يوستنيوس والملك المنذر خلال سبع سنوات .

من آل ربيعة اخوالي واخوالك . . .

— نعم حتى اذا وقعت الواقعة رحت الى ربيعة استصرخها واستنفرها فلا يتردد شيبها وشبابها في اصراخ غسان .

— اذن فابق انت هنا على حراسة مشارف الشام وليقم ولدي النعمان بقسطه في حمايه حوران والبلقاء وفلسطين ، اواه ! وددت لو ظل لبيد بن عمرو حياً ولم تشتمل عليه سهول تدمر اذن لجعلته سيداً في بعلبك وحمص وحماه ! لقد حلق كالنسر في يوم حليمة ولكن جناحيه لم يحملاه في يوم تدمر ، فما هي الا لمحة قصيرة حتى انحدر من عليائه فاستقبلته الأسنة والرماح . .

انها لذكرى مؤلمة هذه التي يثيرها مصرع لبيد في نفسي ، على ان الشيء الوحيد الذي يعزيني هو ان دمه الغالي اريق في الحومة لاطفاء جذوة البغض في صدر ابي قابوس الملك فلعل ملك العراق بعد موته لا يلحف في الثأر بابيه . .

— النعمان صاحب ثأر ومن حقه ان لايغمض جفنيه ولو اريق في كل صباح دم كدم لبيد بن عمرو ، ولكن النعمان نبيل وعظيم ، وجدته غسانية فلا اظنه يحالف قيصر الرومان عليك مهما حميت نزوات الحقد في صدره !

— لو تناسى ابو قابوس حقده ، ونام عن ثأره وفتح لغسان صدراً حالياً بالصفاء لكان ثمة عناق بين الشام والعراق ؟

— اراهن على انه ينسى ! . .

— اي جبلة الطيب القلب لقد كاشفتك بهواجس النفس وآلامها ولم اكتمك شيئاً من هذا الذي يخالجني فهل انت على استعداد للعمل الذي يشرف غسان !

— هاك يدي وقلبي وشرفي . .

— حسبي كل هذا منك ! ادع ولدي الي ، نعم انطلق اليه ، وقل له ان اباه يزهي بكبريائه وبسالته ؟

برح جبلة الغرفة ثم عاد اليها بعد قليل مع النعمان الفتى الصبيح الجميل فاحتبسه

المنذر بين ذراعيه وطفق يقبله في لهفة وحب وكان الذكاء بعض آيات وجه هذا الفتى الصبيح فلم يفته هذا الحزن الذي يتأكل نفس ابيه ، فجلس عن كثب منه ومضى يحدق اليه كأنه يريد ان ينتزع الكلمات من فمه ثم قال له :

ــ ابي لقد دعوتني اليك فحضرت !

ــ قل لي أأنت شجاع يابني ؟

ــ ابي ان في سؤالك هذا لنغمة غريبة تضطرب لها نفسي فهل اصبحت تخشى عدواً وقد هزمت اعداءك في بطاح تدمر ؟

ــ ولكن اجبني ، هل انت شجاع ؟

ــ ابي ! الا يكون شجاعاً من كان جده لأبيه الحارث بن جبلة ، وجده لأمه الحارث بن عباد البكري ؟ (١)

فتهلل وجه المنذر وقال مترفقاً شاجناً :

---

(١) تزوج المنذر الغساني ليلى العفراء ابنة الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة البكري من اهل العراق وكانت امرأة جميلة فولدت له النعمان وامرأ القيس ، والحارث بن عباد هذا من فحول شعراء الطبقة الثانية في الجاهلية ، كان من سادات العرب وحكامها وشجعانها الموصوفين ، ولما كانت حرب البسوس بين تغلب وآل شيبان اعتزل هو القتال واستعظم قتل كليب لسؤدده في ناقة وقبع في بيته مع قبائل من بكر منها يشكر وعجل وقيس بن ثعلبه وكان رأسها وشاعرها في زمانه فنزع سنان رمحه ووتر قوسه وقال لبني شيبان : لقد ظلمتم قومكم وقتلتم سيدكم وهدمتم عزكم ونزعتم ملككم فوالله لا نساعدكم فانصرفوا خائبين حتى اسرف المهلهل شقيق كليب في القتل وقتل بجيرا بن الحارث : قيل ان المهلهل لقيه يوم واردات فقال من خالك ياغلام وبوأ نحوه الرمح فقال له امرؤ القيس بن ابان التغلبي وكان على مقدمتهم في حروبهم ، مهلا يامهلهل فان عم هذا واهل بيته قد اعتزلوا حربنا فلئن قتلته ليقتلن به رجل لا يسأل عن نسبه فلم يلتفت المهلهل الى قوله وشد عليه فقتله فقال عند قتله : بؤ بشسع نعل كليب فثارت الحمية بالحارث ونادى في قومه بالحرب

— ما شككت في شجاعتك ولكني اردت ان استوثق منها فقد كان ابي الحارث يفعل فعلتي ويمتحن شجاعة بنيه ، وطفق يعيد عليه هذا الذي افضى به الى جبلة حتى اذا فرغ من قصته التفت الى الفتى فاذا هو يراه يتلظى حماساً وقد لاحت في عينيه الجميلتين ومضات خالها المنذر لهباً فتناول يديه وقال له :

— انها لومضات مقدسة شهدتها في عيني ابي وفي عيني جدك الحارث بن عباد ! اي بني لقد جعلت غسان تحت ظلك خلال غيبتي . فكن لها ذلك الأب الشفيق الذي يهدهد آلامها ، ويلطف كربها ، ويمشي بها الى الانوار لا الى العار . ياعلق النفيس ! اياك ونزوات الشباب فانها كالجواد العاثر يكبو بصاحبه حتى لا يستطيع نهوضا . احترس ان تصطنع الأعاجم في امور دنياك فانهم يفسدون عليك الأمر ، ويحولون بينك وبين فضيلة تتمتع بها . قل لي اوعيت نصحي !

— ابي انا من علمت امس ، ومن ستعلم غداً ؛ انطلق الى قيصر فأنه لن يستطيع ان يبلغ منك ما يبلغ العدو من عدوه .

وقال قصيدته المشهورة التي كرر فيها قوله « قربا مربط النعامة مني » اكثر من عشرين مرة ؛

وكانت النعامة فرسه لم يكن في زمانها مثلها فجاءوه بها فجز ناصيتها وقطع ذنبها وكان اول من فعل ذلك في العرب فاتخذته العرب سنة اذا قتل لاحدهم عزيز

وولي الحارث امر بكر وشهد حربهم وكان اول يوم شهده يوم قضة وهو يوم تحلاق اللمم لأن بكراً حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضاً وقيل انهم التقوا بمكان اسمه « عويرض » وصافح الحارث القتال بنفسه وكانت الدائرة على تغلب فانهزمت اقبح هزيمة وفيها اسر المهلهل وهو لا يعرفه فقال له دلني على عدي « اسم المهلهل » وانا اخلي عنك فقال له المهلهل عليك عهد الله بذلك ان دللتك عليه؟ قال نعم قال فانا عدي فجز ناصيته وتركه « ولد الحارث بن عباد سنة ٥٢٢ للمسيح ومات سنة ٥٧٩ ؟

الاغاني وكتب الادب .

ـــ تعال الى صدري وبرد بقبلاتك الندية سعير نفسي المتأجج ، تعال يابني تعال!

وراح الأب يحتضن ابنه ؛ وفي العين دمع : وفي النفس صرير ؛ ثم هـــدأت ثورته وردت اليه قوته ؛ فنهض واقبل على ملابسه يخلعها عليه ؛ وجبلة والنعمان ينظران اليه ثم مضى جاثياً بالقرب من سريره واخذ يصلي صلاة حارة اودعها كل مافي جانحتيه من رجاء وامل والم وبث ونجوى ؛ وكان صوته ينبعث في فضـــاء الغرفة كجرجرة السيل ؛ وكانت صلاته مزيجا من صلاة الجندي وصلاة الأب فما انتهى منها حتى كان لها اثر كبير في نفس ابنه فقال له راعشاً :

ـــ لقد روعني تضرعك كما روعني حنوك ! فلعلك مازلت تخشى الا يكون معاد من هذه الرحلة : ابي ! ابي ! فقال المنذر هامساً :

ـــ صه ، فأن صلاتي لم تكن صلاة خوف وضراعة ولـكنها صـــلاة الجندي الذي يدخل الحومة ، الى الغد يابني الى الغد ، واقبل عليه فشد يده مصافحاً فأهوى النعمان على يديه بقبلاته الحارة وهو يجمجم ابي ! ابي !

وكان جبلة ينظر اليهما اسوان حزيناً وهو يحاول ان يواري بكفه دموع عينيـه الواكفة الساجمة ، ثم انقلب المنذر الى حجرة عمرو بن الحارث مع ولده النعمان وابن عمه جبلة بن الايهم وعمرو يلهو بقص الأحاديث الممتعة عـــلى مارية وهند وهما صامتتان وادعتان متلذذتان بحديثه عن القسطنطينية ســـاكرتان بالأقاصيص التي يرويها عن ليلى الساحرة .

ولما اطل المنذر على عمرو اوغلت مارية في ضحكها وصفقت هند بيديها وصاحت الفتاتان :

ـــ يالها من امرأة غريبة . . سنراها معا اليس كذلك ؟ !

فاستعذب المنذر هذا المشهد وتقدم من مارية متحببا وقال لها :

ـــ يخيل الي ان الحديث ذو شجون ، آه انك لاتحاولين الانكار في هـذه المرة يامارية ؟ فاطرقت حياء ولم تجب .

فضحك المنذر واردف : يالك من فتانة ! ثم انحى ناحية هند .

— وانت ؟ اتخجلين مثلها ؟

— مولاي ! . .

— اراهن على ان للحديث علاقه بنجوى القلب ؟ . . فاصطبغ وجه هند بلون الورد وارادت ان تتكلم فما استطاعت كلامـــا فالتفت المنذر الى عمرو وقال له وهـــو يضحك :

اكانت احاديثك مثيرة الى هذا الحد ؟

— كنت احدثهما عن القسطنطينية وعن ليلى الساحرة ؛ فصاح المنذر :

— ليلى الساحرة ؟ وكأن طيفاً مر بذهنه على حين غرة في هذه اللحظة فوضع يده على جبينه كمن يفكر واخذ جبلة والنعمان وامرؤ القيس الصغير وعمرو ينظرون اليه وهم يهمسون :

— ليلى الساحرة ؟ ليلى الساحرة ؟

لقد راح المنذر الى الزمن القصي البعيد فاستعرض صوره وذكرياته واشخاصه وجعل يبحث عن خيال ليلى ، فاثارت حيرته هذه جبلة فسأله قائلا :

— اكنت تعرف هذه المرأة العجيبة ؟

— رويدك ياجبلة فان ذكريات الماضي قد عادت تملأ نفسي في هـذه الساعة ، كنت في سن خمس عشرة سنة حينما هبطت ليلى حوران وكانت الأحاديث عن ليلى كثيرة وقد ازدحم الناس حولها وهي لذلك العهد في اطهار بالية ، ثم رأيتها كرة اخرى تتردد على امرىء القيس بن حجر ملك كندة وكان في ضيـافة السموأل بن عادياء اليهودي ، ثم رأيتها مرة اخرى في قصر النمارة وكان معهـــا امرؤ القيس ورأيتها كذلك تخلو بأبي الحارث بن جبلة ، ثم لم ارها وانقطعت عني اخبارها منذ ذلك العهد حتى حسبتها مائتة . . فهل هي في القسطنطينية ؛ ؟

— نعم ؟

ـــ وماذا تفعل هذه المرأة في بلاد الرومان !

ـــ تعرض الحب على الناس فتبيعه بالثمن الباهظ .

فضحك المنذر وقال : انها لتجارة رابحة عمالها الرجال والنساء على السواء سنسافر في الغد الى القسطنطينية فهل يسرك ان تسافري معي يامارية ؟ ناشدتك الله الا تقطعي الحديث على الملك فانه يعلم هذا الذي يجول في نفسك ؛ ويعلم كذلك ان هنداً ستلجأ الى هذه الساحرة ولكن ليس من اجل الحب ؛ بل من اجل دروع ابيها . . لقد تذكرت ، بلى لقد تذكرت اشياء كثيرة فان هذه الساحرة لم تكن تفارق امرأ القيس ولو لحظة قصيرة ، وكان ابي يعرف الشيء الكثير من امر هذه المرأة وكان كذلك متصلا بماضي حياتها . . .

وسكت الجميع فلا همس هناك ولا ترجيع وكان الحديث عن هذه الساحرة قد اثار خواطر الجميع فجعلت هند تفكر في هذه المرأة المحاطة بالمعميات والأسرار واخذت تقول في نفسها هامسة :

ـــ لقد قيل لي انها تعرف الشيء الكثير عن حياة ابي ، وقيل لي انها شهدت آلامه وشيعته الى حفرته الأخيرة ، اذن فسأسألها معنى هذه الأحاجي التي اكتنفت حياة ابي في القسطنطينية .

وكان المنذر عن كثب منها فما فاته همسها فقال لها :

ـــ سنبرح دمشق في الغد الى القسطنطينية ، قالت :

ـــ افي الغد ؟

ـــ نعم في الغد أفيلذك يامارية ان ترافقك هند في هذه الرحلة ؟ فقالت مارية :

ـــ اني احبها كما لو كانت اختي . .

وانت ياهند اتحبين مارية ؟

ـــ احبها كما لو كانت اختي !

فضحك المنذر ومضى قائلا :

— ما اسرع نمو هذا الحب في روحيكما ! . .

وبينما كان رجال الحاشية يعدون معدات هذه الرحلة الشاقة الجاهدة اذا عمرو ابن الحارث يعود الى الفتاتين مارية وهند ليتابع حديثه عن الساحرة ليلى، قال عمرو :

— لقد وصلت في حكايتي الى ذكر العيشة الراغدة التي تعيشها ليلى في القسطنطينية ولكن الملك قطع علي الحديث فلا بأس الآن من المضي فيه الى النهاية . .

هند ! اني وسعك ان تبتكري وصفاً صحيحاً لمنزل هذه المرأة ؟ اشحذي ذكاءك قليلا فلعله يخلق في مخيلتك صورة حقيقية لذلك المثوى !

فقالت هند :

— لعلها تسكن كوخا ؛

— ماذا تقولين ، أليلى تسكن كوخا ؟

— اذن . .

— فكري جيداً . .

— الها منسك تفيء اليه ؟

— ليست ليلى الساحرة من العابدات الراكعات حتى تفيء الى المناسك .

— اذن فهي تسكن قصراً . .

— ماذا تقولين ؟ أدار في خلدك ان امرأة تصطنع السحر تحب حياة القصور؟

فضحكت مارية وقالت : ما اغرب اقوالك هذه ، ناشدتك الله ان تشرح لي هذا الغامض، اذا كانت الساحرة لا تفيء الى المناسك، وكانت لا تحب عيشة القصور فهل يعني ذلك انها تعيش في الجبال ؟

— فتبسم عمرو وقال : دعي هندا تبتدع لنا الصورة الحقيقية لمنزل الساحرة .

فقالت هند :

— اذا كانت ليلى لا تسكن كوخاً ، وكان منزلها بعيداً ان يكون ديراً او قصراً فليس شك في انها . . .

ـــ ماذا ؟

فتابعت هند حديثها قائلة :

ـــ فليس شك في انها تسكن قبراً !

فضحك عمرو حتى انفرجت شفتاه من فرط الضحك ، وجعلت مارية تصفق يديها عبثاً ولهواً فكادت هند تفقد وعيها ، ورأى عمرو آثار الدهشة والألم البادية على وجه هند فحاول ان يزيل بعض كدها فقال لها :

ـــ انها تسكن في اطلال عرضها عرض الفضاء وعمقها عمق الدأما . . ثم انثنى ضاحكا فأبهج ضحكه هندا ، ولذها في ضحكه جرس ساذج غير متخابث فلم يسعها وهي المراح الطفارة الا ان تسترد مرحها وزهوها فقالت له :

ـــ لقد امللتني وحقا ان اسئلتك كانت مضنية مؤلمة .

فضحكت مارية وقالت لها :

ـــ لاسبيل الي عذله فأنه يحب المزاح كثيراً ثم تواثبت على ركبتي عمرو واخذت تعبث بشعره المستفيض على كتفيه قائلة :

ـــ اذن فسنسافر في الغد ؟

ـــ نعم في الغد ياحبيبة البنفسج والورد ؛ وتلامست ايديهما ؛ فكان من هذا اللبس هزة الى روحيهما جعلتهما في اطار بديع من قبل وعناق ؛ فنسيا العالم كله ، والماضي كله ، والمستقبل كله ، ولم يأبها لهند التي وارت عينيها بكفها حتى لاتشهد هذا هذا الحب الصحيح الصريح .

وفي صباح اليوم التالي برح المنذر وحاشيته مدينة دمشق يحوطه موكب فخم من عيون الغساسنة وبطارقة الروم ، وقد خرج جميع هؤلاء الى وداعه

واتجه هذا الموكب في طريق حمص ليستأنف سيره منها الى القسطنطينية عن طريق حلب وكانت هند ومارية في تلك الأثناء تفكران في السعادة التي تنتظرهما في القسطنطينية ؟

الفصل التاسع عشر

مجنونة

تركنا في الفصول السابقة حسان بن ثابت يشخص الى بصرى تلتف به عصابة كريمة من فرسان غسان ارادهم جبلة بن الايهم حراساً للشاعر وتركنا قوافل ابي سفيان بن حرب ترتاد قرى الغوطة وضواحيها في طريقها الى بادية العرب

فاما حسان فقد بلغت به هذه الرحلة مدينة بصرى فنزل بدير هند وقضى ليله في ضيافة الراهب بحيرا وفي صباح اليوم التالي استأنف الشاعر سيره الى ضواحي شاطيء الأردن لزيارة سطيح الكاهن في صومعته وكان قد اعتزم هذه الزيارة حينما انصت الى حديث الفتاة هند عن سطيح وقد ظل هذا الحديث شغله الشاغل خلال الأيام التي سلخها في دمشق فلم يشأ ان يتحدث الى صاحبيه ابي سفيان واميه بن ابي الصلت عن هذه الهواجس التي ظلت تتنازعه الأيام والليالي بل لقد ابى ان يكشف لهما ذلك الأثر الرائع الذي تركه في نفسه حديث سطيح عن ظهور نبي في العرب فكان من الذ امانيه ان يجتمع الى سطيح فيخلو به وينصت الى كلمه ويسأله الشيء الكثير عن ذلك النبي الذي حسر عنه قبل مولده وظهوره .

ولم يكن قد رأى سطيحاً في حياته ، ولا انصت الى احاديثه ولكن الحكايات الغريبة الممتعة التي ينقلها الناس في الحجاز عن سطيح حببت الى نفسه القيام برحلة الى شواطيء الاردن حيث يعتزل سطيح الناس وحيث يعيش في كهف تلتف به الأعشاب والأعناب .

وبعد ليلتين وصل حسان الى ضاحية منعزلة في سفح جبل حيال شاطيء الأردن وكانت في اراضي آل جفنة الغسانيين وعلى مسافة قصيرة من كهف سطيح ويكاد المسافر يبلغ منها الى الكهف من غير ان يحمل نفسه تعباً .

امضى حسان ليله في الضاحية ، وفي غداة اليوم التالي استأنف سيره الى كهف سطيح ، ولما طرق بابه خرجت اليه عجوز كر عليها الجديدان واختلفت عليها صروفهما واحداثهما فارتاع لمشهدها البالي واجفل ؛ وبعث منظرها في نفسه شيئاً من الامتعاض فكاد ينقلب على عقبيه ولكنه تشجع واقبل يسألها عن سطيح فراحت تنظر اليه مليا كأنها تريد ان تتعرف اليه ، ولما لم تر في سحنته مايخيفها قالت له :

ـ اذا شئت ان تجتمع الى سطيح فامض اليه فانه الآن في خرائب النبط !

ـ ولكن سطيحاً كان هنا في الليلة الفائتة :

ـ هذا صحيح ولكن الرجل كالطائر لا يحلق في افق حتى يستروح الى التحليق في افق آخر !

ـ لابأس فسأنطلق اليه ، عمي صباحا ياامرأة .

ولما ابتعد حسان قليلا عن الكهف وو ارته الاشجار الباسقة ضحكت العجوز ضحكة كان لها زفيف ورنين في تلك الضواحي ثم انثنت قائلة :

ـ اذا جاء الرجل الآخر الذي انذر سطيح بهبوطه على الكهف فاني سأعطيه امثولة لايعود بعدها الى زيارة هذه الأماكن فلقد وصف لي سطيح الرجل الآخر وصفاً دقيقاً فقال لي ان وجهه مجتاح بقروح . ثم رفعت صوتها عالياً واردفت : الويل له ان هو تقدم الى هذه النواحي .

قالت العجوز ذلك ثم اغلقت الباب ومضت متغلغلة في اعماق الكهف وبينما كان حسان يجتاز اودية الاردن الظليلة اخذت قوافل ابي سفيان بن حرب تتوغل في اطراف بصرى تحت اشعة الشمس المحتضرة الذائبة في خضاب الشفق وكان السير في هذا الفصل القائظ قد افنى قوى رجالها فمضوا ينشرون خيامهم في تلك الاطراف ليرفهوا عن انفسهم الناصبة المكدودة وفي تلك الأثناء التفت اميه بن ابي الصلت الى ابي سفيان الذي كان مضطجعاً على فراش في خيمته وقال له :

— لعلك لا تزال مصراً على ترك بصرى ؟

فضحك ابو سفيان ضحكة مجلجلة واجابه مازحا :

— نعم ، اما انت ففي وسعك ان تنطلق اليها فان في كنائسها وبيعها ما يستهويك اما انا فلا اجد في هذه البيع وتلك الكنائس ما يستهويني . . ولكن احترس ان تعود الينا بلا عقل . حقا لقد امللتني بطوافك بين الكنائس والبيع حتى لقد خيل الي انني وقعت في هذه الرحلة على رفيق كان ينبغي لي ان اصدف عنه لولا تلك الأحاديث اللذة التي جعل حسان يزحف بها الي ، ولج ابو سفيان في ضحكه وعبثه ثم اردف :

— اذاكر انت لياليك الماضية في بصرى ؟ اذا كنت نسيت احداث هذه الليالي في نفسك فاني معيدها على سمعك فلقد تركتني ذات عشية نائما في القصر الأبيض ورحت تقرع ابواب الدير ثم عدت الي كاسفاً متغير اللون (١) فرميت بنفسك على الحضيض واقبل صحبك يلطفون شجوك وبرحاءك ، اذاكر انت ايضــا تلك الليلة العابسة التي خرجت فيها كرة اخرى الى بصرى وكان معك جماعة من قريش فلما بدت لك كنيسة بصرى قلت لجماعتك ان لي حاجة في هذه الكنيسة فانتظروني ثم دخلت الكنيسة وابطأت في رجعتك ثم خرجت اليهم اسوأ من حالك الاولى (٢)

وفي دمشق فعلت هذه الفعلة ولم تحفل بهـذا الضنى الوجيع الذي ينهب نفسك ويغالها ، ولما اجتمعت الى بحيرا وحدثك عن النبي رحت مرتث الصدر حافــل النفس بالآلام ، ولما عتبت عليك ايغالك في الانقطاع الى الاديرة والصوامع قلت لي ولصحبك متبرما بهذا الذي رحت تسمعه منهم « خلوني فاني ارتاد على نفسي لمعادي فان ههنا راهباً اخبرني انه تكون بعد عيسى ست رجعــات وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة وانا اطمع في النبوة واخاف ان تخطئني فاصابني مارأيت فلما رجعت ثانية اتيته فقال قد كانت الرجعــة وقد ولد نبي في العرب فيئست من النبوة فاصابني ما رأيت اذ فاتني ماكنت اطمع فيه (٣) »

(١) و (٢) و (٣) الاغاني ج ٣ ص ١٨١

هذه هي كلماتك اعدتها على اذنيك ، وانا مشفق ان ينزل بك في هـــذه المرة ما نزل بك في المرة الأولى ، ماذا أتود ان انقلك الى الماضي فتتصل بشجونه ومآسيه؟ اذا كان في الماضي ما يستهويك فاني لن اتردد في عرض صوره عليك ، اذاكر انت انبعاثك الى الشام في ليلة عمياء طخياء وكان معك بعض قريش فلمـــا انحسر الليل صعدت في كثيب فرفعت لك كنيسة فانتهيت اليها فاذا شيخ جالس فقال لك حـين رآك انك لمتبوع فمن اين يأتيك رئيك فقلت له من شق الايسر قال فاي الثيـاب احب اليك ان يلقاك فيها؟ فقلت له السواد فقال كدت تكون نبي العرب ولست به وان نبي العرب صاحب هذا الأمر يأتيه من شقه الأيمن واحب الثياب ان يلقـاه فيها البياض (١)

ناشدتك الله ان تعدل عن الرواح الى بصرى فلعل نفسك تطمئن الى الهنـاءة واللذاذة ولست ادري اي جدى يعود عليك اذا انت ارهقت نفسك باحلام اقل ما يقال عنها انها مطايا الم وضنى ويأس !

ـــ اذن فلتعدل عن زيارة بصرى الى زيارة سطيح ؟

ـــ وماذا تريد ان نصنع عند سطيح ؟

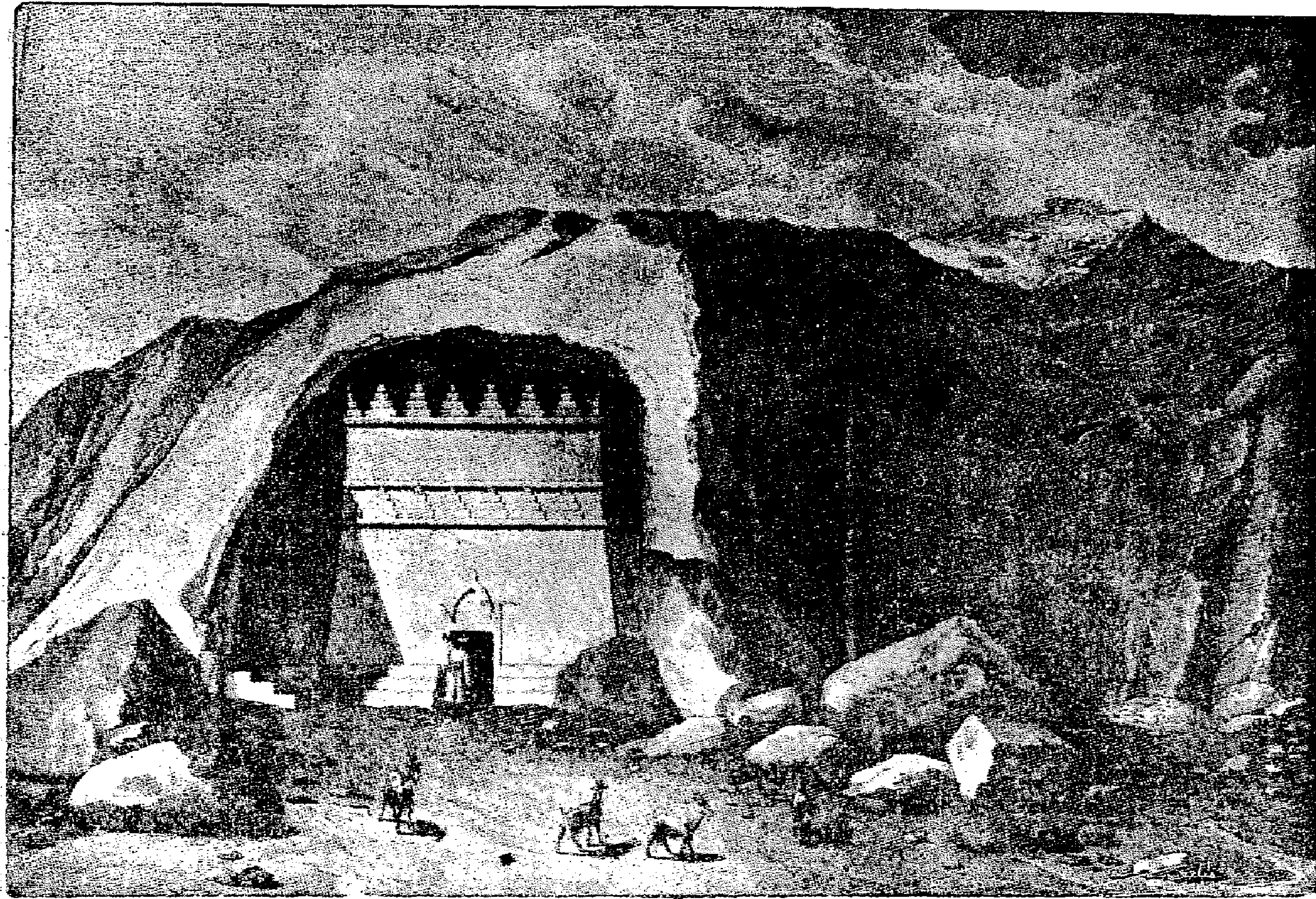
ـــ لقد علمت وانا في دمشق ان سطيحاً يخطب العرب في شـؤون غريبة وانه يحضهم على ترك هذا العيش المبرح الذي يخالطهم ثم هو يبشرهم بظهور رجـــل يسوقهم الى غايات شريفه سامية .

ـــ أمن اجل هذه الغايات السامية التي يشرحها سطيح للغادين والرائحـين من العرب تريد حملنا على المضي اليه ؟ الا تذكر ذلك الشجن البليغ الذي صوح نفسك واذبلها يوم قص عليك بحيرا حديث سطيح عن النبي المنتظر ؟

ـــ ولكني لم ار سطيحاً بعد ، وقد قيل لي انه مخلوق غريب له وجه وعينـان ورأس ويدان وليس له صدر يخفق وقدمان تحملانه .

---

(١) الاغاني ج ٣ ص ٨١- وروى هذه الرواية ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد



فلما عسس الليل استأنفت القوافل سيرها في الطريق التي تدفع الى الاردن فبلغت كهف سطيح «ج ١ ص ١٧٣»

ـ اذن فانت تحب لقاء هذا المسيخ ؟

ـ نعم نعم

ـ لا بأس فسنطلق اليه ، ولكن قل لي اتعرف مأواه .

ـ اعتاد سطيح في فصل الصيف القائظ ان يفيء الى الاردن او الى اطلال النبط

ـ اذن فانت لاتعرف مكانه الحقيقي ؟

ـ لعله في الأردن !

ـ بيننا وبين الأردن مراحل قصيرة ، فاذا طويناها ليلا بلغناها في الصباح فاذا لم نره واصلنا سيرنا الى الاطلال :

ولم يطل تمكث القوافل في اطراف بصرى ، فلما عسعس الليل استأنفت سيرها في الطريق التي تدفع الى الاردن ، فبلغت كهف سطيح في صباح اليوم التالي ، ولكن ابا سفيان تحاشى ان يطرق باب الكهف وآثر ان يتكفل امية بهذا الأمر فراح اميه الى ناحية الكهف ومعه جماعة من راكبي الأبل حتى اذا اصبح عن كثب من بابه جعل ينادي سطيحاً في غير جدوى وزفيف الرياح ينقل صدى صوته الى المسافات البعيدة خافتا ضئيلا ثم كرر الصياح بلا طائل فلما استيقن من ضياع صوته في صخب الرياح انثنى الى الباب فقرعه راعش الصوت راجف البدن

ـ اي سطيح اين انت ؟

واخذت الرياح العاصفة التي ثارت في تلك النواحي تحتدم من حين الى آخر حتى نثرت الأوراق وحطمت الأغصان ؛ نخيل الى اميه ان زفيفها العاصف يماثل قصف الرعود فهم اكثر من مرة برجعة وكاد يهيب بجماعته الى ترك هذه الاماكن ولكن رغبته في التعرف الى اقوال سطيح ثنته عن رجعته فمضى يقرع الباب في شيء من العنف وفي تلك الأثناء خرق سمعه صوت عاصف

ـ من الطارق ؟

ـ افتح ايها الرجل المحتجب وراء ظلمات هذا الكهف الراعب !

وفتح الباب فاذا على عتبته عجوز تتوكأ على عصاها فلما صافح نظرها اميه مضت تضحك ضحكة مرهوبة خشنة ؛ ثم جعلت تنظر الى ملامح الزائر الجديد الذي طفق ينتفض من الرعب وكانت ثمة قروح في وجه اميه ، فلما تبينتها العجوز صاحت ،

— أأنت هو ذو القروح ؟

— من تكونين ؟

— انا رجيمة الجارية اليتيمة اما ورب العباد لتفترقن في البلاد ، وضربت بعصاها الارض فوثبت الابل كأن على ذروة كل بعير شيطانا حتى افترقت في الوادي فتهافت اصحاب الابل على اميه وهم يتصايحون (١)

— اين ما كنت تخبرنا به عن نفسك ؟

فقال لهم :

— اذهبوا انتم في طلب الابل ودعوني !

وجعلت العجوز في خلال ذلك توغل في ضحكها وعبثها فكرر اميةسوأله قائلا :

— اين هو سطيح ايتها الشمطاء ؟

فطفرت العجوز اليه وقالت له عد من حيث اتيت فانك لن تبلغ سؤلك ؟

— ويلك الا تعلمين من هو محدثك ؟

— اعلم من انت ! الست الرجل الكاذب الذي طمع في النبوة وهو لن يبلغ مداها ؟ فاجفل اميه مذعوراً وراح ينظر الى العجوز وهو صامت فتابعت العجوز حديثها قائلة :

— اذهب ؛ اذهب ، فلن يكون لك هذا الذي تطمع فيه ، وان سنا النبوة لبعيد ان يغشى من كان على شاكلتك قبيحاً سمجاً !

— يالك من مجنونة ! . .

---

(١) الاغاني ج ٣ ص ١٨٢

— يالك من كذاب ! . .

— تباً لك من ساحرة ! . .

— تباً لك من مضلل مفتون ؟ ثم قالت :

— اعلم من انت ، واعلم اي روح هذا الذي يزخر في نفسك ؛ كذلك اعلم انك رجل تلتمس النبوة وتطمع فيها ولكنك لن تطالها ولن تبلغ مداها ، لانها ارفع من السماء ؛ ولانك انت في الحضيض الاوهد من الارض . .

— من ادراك انني طامع في النبوة ؟

— حديث الناس عنك ، ثم حديث سطيح .

— ماذا قال لك سطيح ؟

— اتسألني عما قاله سطيح ؟ وتأبى ان تسألني عما يقوله الناس ؟

— ماذا يقول الناس ايها الشمطاء ؟

— يقولون عنك انك مذهوب اللب مجنون !

— بل انت المجنونة ايتها الرعناء . .

— ويقول سطيح « اذا جاءك الطامح الى النبوة فانظري الى وجهه فان به بعض اثر من قروح وقد ارادني سطيح على نصحك وان اردك الى رشدك لأن فجر النبوة الصبيح لن يلتمع في وجهك الدميم القبيح ؛ على حين انه يضيء في ذلك الوجه الجميل الأسنى .

— يالك من بلهاء . .

— وانت يالك من دجال ، لقد قال لي سطيح اذا جاءك ذو القروح فخذي يديه وانظري اليهما فان رأيت ثمة خطوطاً كابية خامدة فثقي انه الرجل الذي يتبوأ مقعده من النار ويروح من دنياه هذه الى اخراه تلك وهو مثقل بالاوزار .

— كذبت فليس لسطيح ان يعلم المستقبل ويكشف خوافيه وهو من علمت وعلم الناس .

— والآن في قدرتك ان تزحف الى الأرض التي صدرت عنها لأن سطيحاً قد برح هذه الاماكن الخضراء الى اطلال النبط ، هيا رح في سبيلك والا حملتك من اللواذع القوارع مالا تطمئن اليه نفسك .

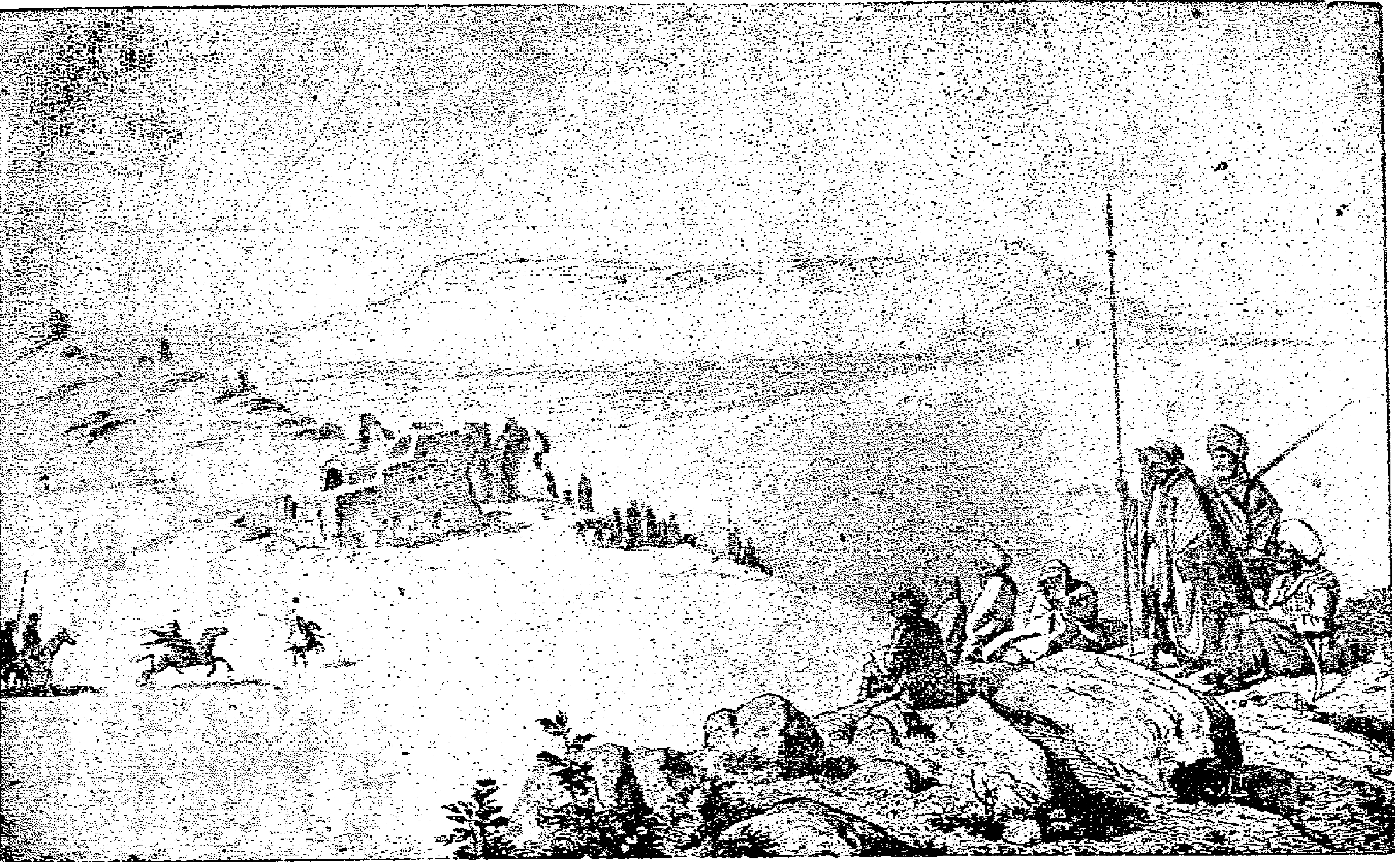
وكانت تقول ذلك محتدمة مضطربة وفي عينيها وميض ارتاع له جنان اميه ، فراح مبهوتا واجماً كأنه بقايا دمى محطمة في ارض قفراء وفي خفةالوميض تهافتت تلك المرأة على الارض وجمعت بعض الحجارة ، ثم راحت تقذف بها وجه اميه فشجته فعاد دامياً وارتدت هي الى الكهف فاحتوتها ظلماته ودجناته .

رأى صحب اميه هذا المشهد فحاولوا ان يقتحموا الكهف فثناهم عن عمامهم بابه الحجري المكين ، وكان اميه في غشية مؤلمة وقد سالت دماؤه على جبينه حتىبللت لحيته وحتى ضرجت لباسه الاسود فاحتمله صحبه على المناكب وعادوا به الى ابي سفيان وقصوا عليه خلاصة الحادث الرائع فقال :

— نصحت اليه ان يتنكب هذه النبوة التي يطمع فيها فابى فكان حصاده هذا الضرب الاليم الوجيع ، ولكن من تكون هذه الماكرة التي فجرت دمه ؟ ولم يكن احد من صحب اميه يعرف شيئاً عن هذه المرأة فقصوا على ابي سفيان كيف صاحت في الابل حتى تفرقت في كل ناحية ، ووصفوا حركاتها الغريبة وصوتها العاصف المرنان وتأثيره في روع امية ، وعجز اميه عن مكافحة هذا التأثير فصاح ابو سفيان واجدا صاخباً :

— انقلوا اميه الى خيمته فلعله لا يستفيق من هذه الغشية المبرحة الا وقد انتزع من قلبه ذلك الخيال ألذي يروعه ويضنيه .

ولما استفاق اميه في المساء من حلمه الراعب ، عرضت له هذه الحادثة في ابشع صورها فاذا هو يستعيدها في خاطره فبدا له ذلك الكهف القائم على السفحوالغارق في خضرة الطبيعة ، ثم بدت له حجارته الدكناء وجدره العابسة المعتمة والعشب الذي يغطيها حتى يكاد يحجبها ، ثم تمثل صيحته بسطيح وضياع هذه الصيحة في



القوافل في طريقها الى مأوى سطيح

الرياح ولحامها وانه ليفكر ويستعرض هذه المشاهد اذ طافت بعينيه طلعة العجوز العافية البالية ، وعليها من السنين والليالي بعض التعب وبعض البؤس وبعض الشجن فتمثل زحفها اليه وصياحها في الأبل ، وتفرق هذه في مختلف النواحي ، وشرودها في شتى الأرجاء ؛ فروعته هذه الخيالات الراكضة الى عينيه الزاحفة الى قلبه ، فود لو انه يستطيع ابعادها واقصاءها ؛ ولكن هذه الخيالات ظلت ترتفع في عينيه والى قلبه حتى اخذت تزحف الى كل جارحة من جوارحه ، فخيل اليه انها تفعم حياته كلها وانها تعيش في تفكيره وهواجسه ، فارتفع من صدره لحام مؤلم كان له ترجيع وترديد في الخيام المجاورة ، وفي تلك الاثناء استفاق ابو سفيان واقبل الى ناحيته فالفاه يتضاغى من فرط الألم فمضى يواسيه ويعزيه وطفق يقص عليه القصص الطريفة المبهجة حتى استرفه واستراح !

وفي المساء استأنفت قوافل ابي سفيان سيرها في طريق الحجاز واخذت تمر في طريقها بقرى خرج منها الفلاحون والقرويون الى الفضاء مغردين هاتفين وادعين كأنهم يتسابقون الى وليمة او الى مهرجان ولما سأل بعض رجال القوافل هؤلاء المرحين عن باعث مرحهم اجابوا :

— لقد مر سطيح بديارنا ودعانا الى استماع اقواله في اطلال النبط ، وبشرنا بخصب عميم .

— اذن فهذه المواكب المغردة المنشدة ستأتي سطيحاً في الاطلال .

فهتف القرويون بالحياة الخالدة لسطيح ، ثم ساروا في طريقهم يمرحون ويهزجون ومرت القوافل بعد لحظات بضاحية منعزلة فاذا اهلها يخرجون منها شيباً وشبانا نساء ورجالا وقد اتجهوا الى الاطلال فصاح ابو سفيان متسائلا .

— الى اين ايها المماريح ؟

فاجابه اكبرهم سناً :

— الى مملكة سطيح . .

ـ وماذا تفعلون ؟

ـ نسمع منه خطبة هذا العام ، ثم نعي نصحه ! . .

ثم انزرف القوم ومضى ابو سفيان حائراً مشدوها .

ولما عسعس الليل وانتشرت ذوائبه الفاحمة تابعت القوافل سيرها حتى انتهت الى عين جارية في سهل ممرع امتدت ظلاله وافياؤه ، فاذا على العين اعراب يسقون ابلهم وخيولهم وهم لا يبالون بفحمة الغسق ، ولا يكترثون لبرده اللاذع فزرف ابو سفيان اليهم متسائلا :

ـ الى اين تمضون بهذه الأبل التي ابتل ظمأوها بالماء ؟

فصاحوا :

ـ الى خرائب البلقاء ! . . .

ـ افي هذه الليلة الظلماء ؟

ـ لقد ارادنا سطيح على زيارته في خلال مروره بنواحينا ، ووعدنا بخصب الأيام المقبـــلة .

وكان البرد شديداً فتزمل ابو سفيان بردائه والقى نظرة رحيمة عـلى امية الذي شرع ينصت الى هذه الأحاديث وهو حائر سادر ثم واصلت القوافل سيرها الليل كله ، وخلفت وراءها المراحل الطويلة وظلت على سيرها المجهد الشاق اياما حتى انحسرت امامها اراضي وادي موسى المعروفة بوادي الانبـــاط فدخلتها في ليلة مصحية يتألق فيها البدر بين جماعة الـكواكب ؟

الفصل العشرون

شاعر الطلول

في اواخر حزيران سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة للمسيح خرج من معان على الحدود الشامية فارس افاءت الطبيعة عليه الصحة ، والشباب والأمل الزاهر ، وكان الفارس يتجه في سيره الى ناحية الأطلال النبطية وهو يتلهى بنغم عذب فاتحاً صدره للهواء وللظلال .

وكانت النسمات المنبعثة سحراً تحمل صوته عذبا سائغاً الى تلك المراعي والجبال والجداول والى تلك الجنات الوارفة الظليلة التي خلفها وارتحل عنها بعد ان ترك في خضرة العشب وفي زرقة البنفسج وحمرة الورد ذكريات شباب مرح قرير نما واورق في نزوات الحب ، وعواطفه الجائشة المتوثبة ، ولما اختفى ظل تلك الأرض السعيدة التي صب في نضرتها وخضرتها رواء شبابه وبهاء ايامه وبدت له اطراف ارض النبط راح يعتب على ايامه الهانئة ان تختفي وان تسرع في فرارها وهو لايبرح في حاجة الى عناصرها الطيبة .

لقد ودع افقاً مشعشعاً رطباً ليستقبل افقاً معتما مضطرما ، وخلف في ذلك الأفق نجمة اسمها الرجاء ليستقبل في الأفق الجديد غيمة اسمها اليأس! وترك في دمشق وجناتها الخادرة ابهى صور الحب التي صنعتها فكرة شاعر فنان يصبغ الحب بصباغ الطبيعة والوانها الزاهية ليرسم في الصحراء صور العيش المحتجز البائس الذي لا يعيش فيه الحب ولا ينمو .

وللمرة الأولى بعد خروجه من معان الى اطراف الارض النبطية جعل يحس في نفسه تلك الآلام التي تنشأ في نفس الشاعر اذ يفارق مراكض الحب والامل ومراتع الشهرة والمجد فيبدل نغمته الانيسة بنغمة يخالطها اليأس والحزن !

ما زال الطمع النبيل والمجد والشهرة والحب والامل في جملة الاغراض العليا التي يخفق لها قلب الشاعر ، ولا يزال هؤلاء الشعراء الذين هم بحق قيثارة الطبيعة المنشدة المغردة يحومون حول هذه الاغراض ولكن لهؤلاء الشعراء نفوساً شفافة سريعة التأثر فاذا ماخالطها اليأس في الحصول على الشهرة والحب والحياة الرخية الظل حالت اناشيد الشعراء المبهجة الطروبة الى رثاء شجي يخلع على الطبيعة مظاهر التعبيس والاظلام !

يلتمس الشعراء دعة وامنا في الارض التي يزهر فيها الحب ويورق ، ويطلبون الشهرة في العالم الذي يموج باصداء الوقائع والمآسي والصروف ، ويبحثون عن المجد في الملاحم الحمراء ، ثم يجدون في طاب الحياة المعسولة في الارض التي يغمرها السلم بنداه البليل ، ولكنهم يفتحون صدورهم للصور العابسة الجاهمة ولشتى الرياح والاعصار حينما لايجدون ارضا ينبت فيها الحب ويورق ، وحينما تتراخى عنهم تلك الحياة المعسولة التي ارادوها في ارض مغمورة بالسلام .

ولقد كان فارسنا شاعراً يأنس بالحب ويستروح الى الشهرة والمجد ويحب الوقائع والملاحم كما يحب الحياة الوادعة !

لقد كان في دمشق قبل ايام وكانت عيناه مفتوحتين للحب وللشهرة ولكن هذا الشاعر الذي اطمأنت نفسه في الامس الى جميع هذه العناصر الطيبة اغمض عينيه منذ وطئت قدماه ارض البلقاء حتى لا يرى الحياة الجديدة التي لا تحمل اليه في جانحتيها شيئاً من هذه العناصر المحسنة الى تفكيره وعواطفه .

انه ليذكر وهو في مطافه الجديد بقية من رجاء حلو ، وحب عزيز ، وشهرة مقدسة فلا يمنع نفسه وهو تحت تأثير هذه الذكرى الهائثة ان تحزن وان تمضي مهتاجة

ولقد كان شأنه في هذا التحول الذي نشأ في نفسه شأن الشعراء الذين تطلع عليهم الحياة باسمة متوردة في البلدان التي تظللها آفاق جميلة وتلتف بها الحدائق والاعناب والمياه والجبال والاودية حتى اذا مشت بهم حظوظهم واقدارهم الى

صحراء جرداء تغشاها سحب قائظة وتلتف بها رمال محرقة وميـــاه آسنة طلعت عليهم حياة كابية ناصلة ! . .

فالذكاء الذي يعيش وينمو في خصب الطبيعة وامراعهـــا والذي يقبس ضحكه وعبثه ومرحه ومجونه من وسوسة المياه وهينمة الجداول وحفيف الورق يموت في قطوب الصحراء ويذوب في سكونها وركودها .

وكذلك كان شأن شاعرنا حسان بن ثابت ، الذي رأيناه في دمشق وفي غوطتها مفعم النفس بالامل والحب والشهرة .

استقبل الشاعر معاذه الجديد بالأنشاد ، فما لبثت نغماته القريرة ان تحولت الى بكاء فاستيقن ان لارجعى الى تلك الارض التي ازهر فيها الآس والنارنج والزنبق، ولـكن هذا الكمد المضني الذي ظلل جبينه اخذ يتبدد شيئاً فشيئاً حينما طلعت عليه ارض النبط فخيل اليه انه عن كثب من مأوى سطيح فمضى صائحاً :

ــ لقد اقتربت من مأواك ياسطيح . .

ثم استحث جواده على الركض الى ناحية الاطلال غير حافل بوهج الصحاري وكانت الشمس تطوف انحاء السماء ولـكن الهواء الذي بدأ مضطربا مشبــوبا عاد صارداً بارداً حينما بدت لحسان واحة خضراء فصاح :

ــ لم تمت احلامي ، بل انها لتنتعش كلما صافح بصري افقاً جديداً . . اي شبابي اني لارسلك الى هذه الارض الفيحاء فلعلك تأنس فيها بالحياة التي تحبها ! . .

وتغلغل في صميم الغابة تغيبه افنانها المرسلة وادواحها الرخية الظل وحجبت عن عينيه مشهد القوافل والجماعات التي كانت تشق طريقها الى مكان سطيح .

وكانت القوافل قد عبرت الطريق حتى بلغت الغابة فتسربت اليها وتغلغلت في اعماقها واخذ رجالاتها يمزجون ويمرحون ، وفي صباح اليوم التالي جفا الشاعر مكانه في الغابة ، وتوغل في الطريق الذي يدفع الى الاطلال ، وكان لاندحة له وقد اراد نفسه على هذه السياحة الجاهدة ان يستخذي لنسمات الصبح الصاردة فتجلد لها

ومضى في سيره حتى استقبلته قمم جبل الشعرى وحتى ظللته بواكير السحب الهائمة على السفائح والحدور ، فاقبل يجيل بصره في الظلال والندى ، وفي سرب من المعز اخذ يطفو على الذرى الكاسية العاشبة ! فخيل اليه وهو قريب من هذه المشاهد ان في قدرته ان يتنفس بكل جانحتيه ، وان نفحة حياة جديدة عادت تفعم نفسه الناصبة المكدودة ! وكان العالم كله في هذه اللحظة مشتملا على هضبة منعزلة ، وعلى طيور تسبح في فضاء ازرق شفاف ، ثم على سرب من الحملان فاستأنس بهذا العالم القصير المدى ووقف ينصت تارة الى ثغاء الحملان ، واحيانا الى خرير الماء الطافر من مسارب الأصلاد !

ولم يشأ مكثاً طويلا في عالمه الصغير فعزف عنه ، واستأنف سيره في ممر ضيق تلتف به جبال حمراء بلون الدهان فاشجته القمم البواذخ فتلفت لعله يرى لنفسه مخرجا من هذه المشاهد الكدراء ، فاذا عيناه تصالحان عن بعد جبل هارون المعروف في التوراة بجبل حور وقد امتد بروقيه الى السماء من ناحية الشرق فرعش رعشة البهة واخذته روعة عالم منفرد يتألف من الصخر والماء والسماء ! ومع هذا كله فقد نازعته نفسه الى مأوى سطيح فتمثل الرجل في كل ذرة من ذرات هذه الشواهق الحمراء وخيل اليه ان صوت سطيح عاد ماثلاً هذا الخرير المنبعث من السواقي الهادرة الدافقة على الحدور والسفائح !

لقد قطع في نهاره نجداً ، واجتاز غوراً ، ثم تسلق القمم والذرى ؛ ثم انحدر الى السهل وصوت سطيح يتدفق في نواحي روحه ، بل لقد كان خيال سطيح شاغله عن التفكير في هذه الاصلاد الموحشة البربرية ، فما غنى ولا فكر في شعر يتلهى بترديده وترجيعه وظل على طوافه حتى اظله المساء وغمرته سدفته فسرح بصره في المشاهد فاذا هي لم تتغير ولم تتبدل ، واذا القمم عن يمينه وعن يساره ، ومن ورائه ، وامامه ، فماذا يفعل ؟ ايعود القهقرى ام يتابع سيره ؟ لقد كان صوت سطيح ماثلا جوارحه فنشط الى طوافه بالجبال فكان لا اندحة له اذا تسلق ربوة حمراء

عن تسلق ربوة صفراء ، وكان لزاما عليه ان يمر بحوائط وغدران كانت في الماضي عامرة بالماء ، فاجتاحها قيظ الصحراء فجفت وعاد ماؤها ناضباً !

لقد كانت مدينة النبط وراء هذه البواذخ فاذا قدر لك ايها القاريء ان ترقى ذروة رفيعة من هذه الذرى بدت لك في الابعاد النائية الغائبة في الافق صحراء سيناء ورمالها الحمراء ! ولعل اشد مايرعش نفسك هو هذا الترديد الممل الذي تبعثه الرياح فوق الاصلاد الرمادية !

ان الانحدار الى مدينة النبط لذيذ سائغ ، فانك ايها القاريء لاتنتقل من بهاء الا الى بهاء جديد ، ثم تمر امامك المفاتن والمحاسن فيخيل اليك انك جد قريب منها ، فتنشط اليها فتنأى عنك ، وبينما تتسع المشاهد امامك ، اذا هي تضيق ، ثم تتكاثر امامك الالوان الطافية على الجبال فيستهويك منها الاحمر والاصفر ثم تعود الى نفسك فتراها قد تبرمت باللون الكدر الجاهم !

هذا هو الوصف الحقيقي لمدخل مدينة النبط وقد استطاع الفارس الشاعر بعد طواف جاهد ان يشقه فسقط على القبور المنحوتة في قلب الاصلاد ، ورأت عيناه القصور والدور والملاعب منتشرة في كل ناحية فوقف ينظر الى هذا العالم الراعب الهائل المليء بحصاد العصور والايام والليالي .

ولم يكن في طوقه وقد انتهى الى المدى من غايته ان يرجع فعاذ بطلل منفرد وجلس على حافة صخرة مجاورة واخذ ينظر الى العمد المحطمة والى الحنايا المبعثرة والاقواس المتداعية ، ثم اغمض عينيه كأنما قد خيل اليه انه في حلم ! واخذ يهمس:

— اهذا هو مكانك ياسطيح ؟ ثم صرخ صرخة الية :

ياللحلم الممض الموجع !

* * *

في صباح اليوم التالي استفاق الشاعر من رقدته على وسوسة الماء الدافق الهادر فجعل يستزيد النظر الى هذه المشاهد وهو ذاهل !

اي يقظة هذه يا الهي ؟ فان هذه المشاهد ما اجتمعت وتقاربت الا لتغري الناس بالفتون والجمال والسحر!

ان الحياة في الصحاري تورث السأم والخمول والضنى والذعر ولكن الحياة هنا في قلب هذه الاصلاد غيرها في الرمال ففي هذه الصخور الجميلة المنحوتة وفي هذه الاطلال البارعة والمحال العاشبة الكاسية ، عن كثب من ماء الينبوع كل مايطمح اليه الشاعر الذي يقبس فنه ووحيه من تحاسين العصور الماضية . . .

لقد يمر السائح بهذه البلاقع الخرساء المنتشرة تحت الافق فيستهويه هذا الجمال الذي غشيه الالم والحزن من غير ان يبدل في نواحيه وقديروح متسائلا

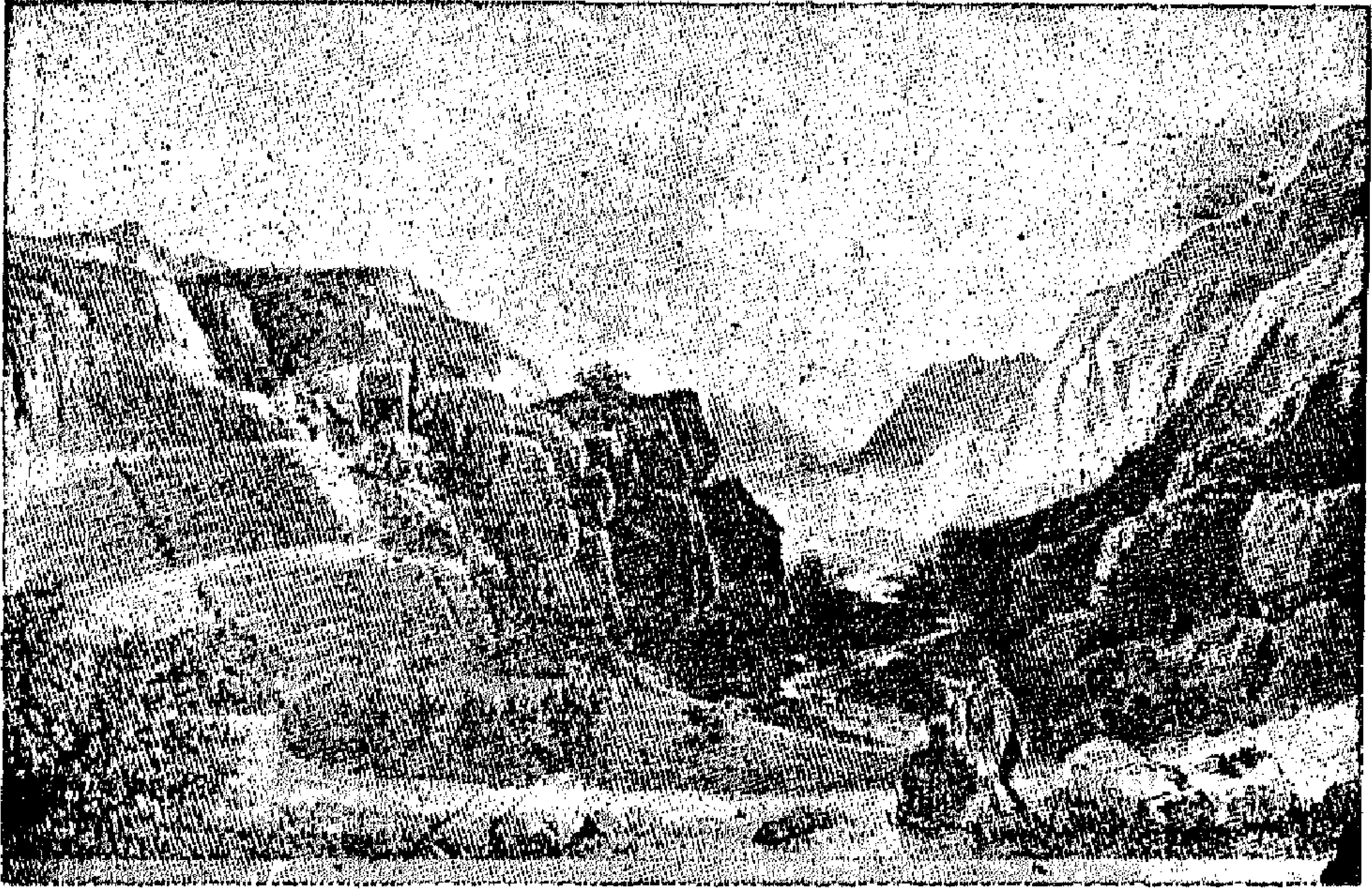
— ترى من يكون هؤلاء الذين اترعوا هذهالارض بالخضرةوالعشبوازينوها بالغابات الضاحكة المستبشرة ؟ من يكون هؤلاء الذين نحتوا في الجبال والاصلاد هذه الصروح ، وتلك المعابد والقصور والجواسق التي تنم عن هنائها ومرحها والتي لم تفقد شيئا من روعة شبابها الذاهب

الف تحية ايها الوادي الممرع المخصاب الذي انشأ فيه العرب النبطيون اول مدنية انسانية حملت الى العالم القديم السادر في حلم الجاهلية جمال الفنون الخالدة .

الف تحية ايتها المدينة التي استطاعت في عصر من العصور ان تنافس روما في خيلائها وكبريائها حتى حملت قواد بومبي على قبول الاندحار كعلامة على الاعتراف بتفوق العرب النبط على خصومهم في ميادين الانشاء والاعمار !

في الصحراء ، بلى في الصحراء غرس العرب النبطيون بذور المعيتهم المنشئةفاذا حصادها هذه المعابد والهياكل والقصور المنحوتةفي الجبال

اي بادية العرب ! لم يشأ الزمن الذي حطم صروحك وزلزل معابدك ومزق رواءك الخالب ان ينزع بهاءك ليخلعه على ناحية اخرى من العالم ،فترك الىجانب هذه الاطلال رمادا مقدسا ماتناوحت الرياح حياله الا اهتز واستفاق وزكاوراح



وصل فارسنا الشاعر الى الاطلال النبطية فما تردد في دخولها

— ج ١ ص ١٨٥ —

ينحسر عن حياة وبعث

تنهار القصور تحت عصف الشمال العاتية وتبتلع الصحراء المدن وتلتهم النغمات العذاب من افواه الضاحكين الوادعين وتطوي الفنون في دجناتها وغياهبها ولكن الطبيعة تبقى ، ويبقى الجمال طابعها الذي لايتبدل !

لقد غيب الرمل قصورك وابتلعت الصحراء مدنك وضواحيك والتهمت نغمات بنيك الوادعين الضاحكين وطوت فنونك في غسقها الدائم ؛ ولكن جمالك الطبيعي الذي اترع الذكاء العربي بعناصر الصفاء والاشراق ، سيظل الرمز المقدس لخصب ذلك الذهن الذي فجرته ينابيعك فعاد منشئاً جواداً محسناً ! . .

⁂

وصل فارسنا الشاعر الى الاطلال الرومانية فما تردد في دخولها ، ولا ابى ان يقتحمها

وكان لمشهدها في نفسه روعة لذة غمرت احساسه وشعوره وفكره فجعل يحدق الى العمد المرمرية ذات النقوش البديعة وهي قائمة تحت الأفق وهمس المياه ترجيع ينمي في روعة هذا المشهد

ولم يكن هنالك جرس يعطل سكون هذه الاطلال كأن الطبيعة ارادت ان لاتعطل على رماد العصور الماضية سكونها اللذيذ الى البلى والهلاك

على ان هذا الركود الذي غشيه لم يكن ركوداً في العواطف والاحساس والتفكير بل كان ركود النفس الشاعرة التي يعرض لها الجمال في مشهده الحزين الفجيع فلا تلبث ان تهدأ وتسكن كأنها تأنس بالحزن والاسى

وبعد قليل رفع عينيه الى الأرجـــاء الواسعة كأنه يريد ان يطل على الطبيعة الفتانة ليستمتع بمائها وعشبها ورياحينها والوانها وسحب الصباح تغطي الاطلال وتخلع عليها كثيراً من بهاء ورواء

وفي الحق ان انبثاق فجر العصور الماضية في عينيه قد بهره بهراً فحاول ان

ينسى اثره في التهافت على الطبيعة ومشاهدها المونقة فوجد في الشمس وهي شغر السماء الذي يتجدد في كل صباح ذلك الهناء المديد الذي اراده لنفسه الجائشة

وفعلت الشمس في نفسه ما تفعله الصهباء في نفس شاربها فاسترد قواه الناصبة المكدودة واستروح الى نشاطه ومرحه وكاد ينسى هذا الضنى البليغ الذي تحيفه في سياحة طويلة ممضة ثم تهافت على مسيل الماء فجلس اليه واراد لعينيه اغفاءة لذيذة فنام نوما هادئا حمل اليه حلما وادعا هانئا وسعادة لا يعلق غيم بنواحيها

ولم يستفق الا على اصوات تزخر في الفضـــاء ففتح عينيه فاذا هو يرى الارض تغص بالقوافل والجموع الوافدة من شتى النواحي فعاد الى جواده فامتطى غاربه ودلف الى تلك الجموع الحاشدة كأنه يريد ان يستوثق من امرها

وشد ما كانت دهشته حينما وقعت عيناه على راية حمراء تظلل القوافل التي اخذت تحط رحالها في ذلك الوادي فالتفت الى نفسه صائحاً :

ـــ هذه قوافل قريش !

كانت الراية الحمراء شعار قريش فلم يشك حسان في ان ابا سفيان بين هذه القوافل فدفع بجواده فانطلق كالبرق حتى بلغ به ناحية القوافل وصافحت عيناه ابا سفيان واميه بن ابي الصلت فناداهما فالتفت ابو سفيان الى ناحية الصوت صائحاً :

ـــ ماذا أابن الفريعة هنا ؟

ـــ نعم فلقد وصلت الى هذا الوادي في هذا الصباح . . .

ـــ اذن فانت مزمع على الاجتماع الى سطيح ؟

ـــ نعم نعم

ـــ ونحن سنجتمع ايضاً الى سطيح وهـــذه هي ارادة امية التي لاتغلب، انظر الى هذه الوفود التي نهدت الى هذه الاماكن من امصار سحيقة نائية، انها ماضية الى لقاء سطيح ، وقد اصبح هذا الكاهن مفزع العرب في هـذه الايام وموئلهم ، قل لي أتصدق انت مايقوله سطيح ؟

— لم اسمع سطيحاً يتكلم الى الآن فليس في وسعي ان اعريه من الصدق قبل الاصغاء الى احاديثه !..

— يبشر سطيح العرب بخصب الموسم في العام المقبل وهو كذلك يعللهم بآمال وشؤون كثيرة ويعدهم بحياة ثرة وادعة لاغيم فيها ولا اعصار ، وهنا سكت ابوسفيان فارتد حسان الى امية وقال له :

— اي اميه امزمع انت على الاصغاء الى سطيح ؟ فقال اميه :

— الا تحسب سطيحا هذا من الهازلين ؟

فقطع ابو سفيان حديث اميه واردف :

— ولكن سطيحا غير بعيد عنا ، في وسعنا ان نجتمع اليـــه ، ونستمع الى احاديثه ، فاذا تبين لنا انه كاذب جفوناه وان كان صادقا صدقناه فقال حسان :

— لقد ازمعت ان اسأل سطيحاً عن مستقبل ايامي ؛ فما انت فاعل ؟ فقال السيد الاموي :

— الم اقل لك في الماضي انني اهزأ باحاديث العرافين والكهان ؟

فالتفت حسان الى اميه وقال له :

— وانت ؟

— سأسأله عن الماضي وعن المستقبل

— واذا حدثك سطيح عن النبي المنتظر فماذا تفعل ؟

فلم ينبس امية ولـــكن كلمات حسان لذعته اشد لذعة ؛ وادمت كرامته اوجع ادماء ورأى فيها استهتارا باوجاعه والآمه فلم يفت حسان هذا الفزع الذي تملك روع اميه نصدف عنه ، واقبل الى ناحية ابي سفيان صائحا

— وداعا وداعا ايها الغطريف ؟

— الى اين؟

— الى سطيح ..

قال فما علينا اذا ذهبنا اليه معا ؟ قال حسان :

— اني افضل ان نجتمع هناك في اطلال النبط لأن نفسي بدأت تعاف هـــذا الرجل ، قال ذلك واومأ بيده الى اميه فقال ابو سفيان :

— هل احنقك اميه ؟

— كلا ولكنه رجل ضيع رشده وفقد حجاه حتى لم يعد يذكر من سابق امره وحاضره شيئا وقد بت اخشى ايضا ان لايعود يفكر في مستقبله ؟

فاغرق ابو سفيان في الضحك وقال :

— ياله من تعس ! لقد اردت اليه ان لايوغل في الاصغاء الى احاديث الرهبان فابى حتى حدث له امس حادث يثير بكاءك كما يثير ضحكك وكنت اود ان تبقى كرامته موفورة فلايتعرض لعبث العجائز ! وهنا اخذ السيد الاموى يقص على حسان قصة العجوز التي قذفت امية بالحجارة يوم قصـــد الى زيارة سطيح في وادي الاردن فبهت حسان واخذ يجمجم

— أقذفته بالحجارة ؟

— نعم ، ثم طردته بعد ان صبت عليه سيلا من اللعنات الحمراء

— أفعلت ذلك ؟ يالها من جريئة ! لعلها كانت لاتعرف اسمه !

— لقد كانت تعرف اسمه وتعرف صفاته فلما عرض لها راحت تتأمل في يديه ثم مالبثت ان انهالت عليه بالتقريع والسباب المؤلم وقالت له لن تكون ذلك النبي المرتقب

فوضع حسان يديه على جبينه كأنه يفكر ، ثم التمع وجهه واشرق والتفت الى ابي سفيان قائلا :

— يخيل الى انني اعرف هذه المرأة

— اتعرفها انت !

— نعم

— اكنت تعرفها قبل هذا العام ؟

— كلا بل عرفتها امس في كهف سطيح عن كثب من شاطئ الاردن

— وماذا كنت تفعل عند شاطئ الاردن ؟

— اردت ان اتعرف الى سطيح وهو في كهفه فخرجت الي هذه العجوز وراحت تحدق الى ملامحي كأنها تبحث في جبيني عن رجل تعرفه وكان وجهها متجهما فلما اخذت يدي وتبينت خطوطها اطمأنت الى وجهي وقالت لي :

— اذهب فلست ذلك الرجل التي ارتقب مجيئه . .

— اذن فقد كانت العجوز تنتظر ان يفد امية عليها ؟

— من يعلم ! ولما سألتها عن سطيح اجابت قائلة :

« برح سطيح الكهف في هذا المساء الى الخرائب النبطية فرأيتني بعد ان ان سمعت حديثها مسوقا الى مواصلة السير الى هذه الحوالي حتى بلغتها هـــذا الصبـــاح

— الديك ماتقوله لسطيح ؟

— كلا ، ولكني اظمأ الى حديثه اللذ عن المستقبل!

— اذن فسل سطيحا عن مستقبلك !

— وانت ؟

فهز ابو سفيان كتفيه ساخرا واردف :

اما انا فساظل صامتا ولكني سانظر بقلبي وعيني . .

وكانت الوفود في اثناء ذلك قد جاست خلال الاطلال واخذت تملأ الملعب الروماني ، وتنتشر في نواحيه ، وقد جعل الاعراب يتسلقون العمد حتى يتاح لهم ان يروا سطيحا عن كثب فلا تفوتهم كلمة من كلماته ؟

الفصل الحادي والعشرون

خطبة سطيح

كان مشهد الناس وهم يتدافعون ويتزاحمون يماثل مشهد الابل وهي تتدافع وتتزاحم في الصحراء ، وكان هؤلاء الذين توافوا الى هذه الأماكن يصيحون :

— اين هو سطيح ؟ لماذا لايطل علينا هذا الكاهن ؟

وفي خفة البرق المومض اخذت اصواتهم العاصفة تنتقل من صفوف الملعب الأولى الى صفوفه الثانية ثم راحت منتشرة في انحاء الوادي ثم اخذت تتضاعف وتنمو وتشتد حتى ارعشت الفضاء

وفي تلك الفينة دخل الاطلال النبطية ابو سفيان بن حرب واميه بن ابي الصلت وحسان بن ثابت فاخذوا مقاعدهم على حافة ينبوع قريب من الملعب الروماني ولكن الناس لم يفطنوا الى قدومهم لانهما كهم في امر سطيح وبحثهم عن مكانه

وبينما كان ابو سفيان يلوح للناس مزهواً بملابسه الدالة على الترف معتزاً بكبريائه مختالا بشرف بيته كان اميه بن ابي الصلت من ناحية اخرى ناشجاً دامعاً محزونا يائساً فاما حسان شاعر هذه الاطلال وهذه الجنات فقد ظلت روحه خلية من مثل هذه الهواجس التي تقرض نفس امية فلاح للناس جميلا فتان الطلعة فلم يتردد هؤلاء الذين رأوه في ان يقولوا ماأروع منظره وافتن طلعته ! وفي الحق لقد كان حسان مليحاً مشرقا كأنما هو مقبل على مرح ، مستخف الى لهو ،وكانت ومضات الوداعة والجذل تنبعث من عينيه السوداوين

وحدث في تلك اللحظة الحافلة بالروعة والخوف والأمل واليأس ان هب الناس من اماكنهم ينظرون الى مغارة دكناء في صدر الملعب فراعت حركتهم هذه ابا سفيان ورفيقيه فنهض الثلاثة من اماكنهم الى ناحية المغارة !

وتعالت الاصوات من كل ناحية :

— هذا هو سطيح ، هذا هو سطيح ،

ثم ارتد الناس الى اماكنهم وغشيهم الصمت العميق ، ولكن حدجاتهم بقيت معلقة بباب المغارة الذي فتح على مصراعيه وانبعث منه رجلان ينقلان محفة صغيرة جلس في وسطها انسان غريب الخلقة ، يوشك ان لايبين للناس لهزال جسمه ! وبعد قليل خرج من المغارة رجل آخر مالبث ان وقف الى جانب المحفة فالتفت حسان الى ناحية امية فالفاه مبهوتا محزونا وقد استطال وجهه وامتقع فقال له :

— اتعرف صاحب المحفة ؟

— اليس هو سطيح الكاهن ؟

فقال ابو سفيان وهو ينصت الى حوارهما نعم هو سطيح ولكني لم اعرف الرجل الذي انبعث اخيراً من المغارة فهل عرفته ياابن الفريعة ؟

فاجابه حسان :

— كلا

وتعالت الأصوات صائحة :

— هذا هو شق بن انمار بن نزار

وكان شق هذا في يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة (١) فلما رن اسمه في اذني ابي سفيان صاح :

— مااحفل هذا النهار بالروائع !.. وصاح امية

— ان مشهده الراعب يورثني كثيراً من الخوف

وتقدم الرجلان اللذان يرافقان المحفة من سطيح فاخرجاه ، وصعدا به دكة عالية في ذروة الملعب واجلساه عليها فبدت خلقته للجميع فهمس بعضهم

(١) بلوغ الأرب في احوال العرب للالوسي ج ٣ ص ٢٨٠

— مابشع منظره !

وقال آخرون :

— ياله مسيخاً يبعث مشهده الرعب حتى في الحيوان . .

كان سطيح يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة وكان وجهه في صدره ولم يكن له رأس ولاعنق ، وكان من اشهر الكهان ولد وشق في يوم واحد (١) فما ان ترعرعا حتى اشتهر امرهما في العرب فنهد اليهما الملوك والامراء يسألونهما عن المستقبل وعن حوادثه ، فكانا يحددان وقائع المستقبل ، ويكشفان عن حوادث لاتلبث ان تقع

وكان علم الكهانة شائعا في الجزيرة (٢) ، فكان العرب يفزعون الى الكهان والعرافين في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات (٣) بل لقد كان هذا هذا العلم شائعا في العرب المتحضرين الذين تذوقوا حلاوة التهذيب الروماني في مشارف الشام والذين لم يمنعوا نفوسهم ان تستمريء تهذيب الفرس في سوادالعراق

ولقد يتفق ان ينشب ثمة خلاف بين قبيلة واخرى ؛ فلاتأبى القبيلتان الاحتكام الى الكهان والعرافين ، وربما كان سطيح اعرق في شهرته من جميع كهان عصره بدليل تهافت ملوك الشام والعراق واليمن على الاستشراق بضوء تجاربه وعلمه اوبدليل هذه المنزلة السامية الممتازة التي له في قبائل العرب

وقد كان طبيعيا ان تروج الكهانة في قوم لم يتأدبوا بادب الدين ولم يطمئنوا الى غير العادات والسلائق التي انتقلت اليهم من طبيعة بلادهم الجافة القاسية ، وكان طبيعيا جدا ان يكون للكاهن العربي في قومه مزايا النبي الاسرائيلي في قومـــه ، فان الامة التي ينقطع فيها وحي السماء لاغنى لها عن الخضوع لوحي الفكر البشري

---

(١) بلوغ الارب ج٣ ص ٢٨١

(٢) الاغاني ، بلوغ الارب الطبري

(٣) بلوغ الارب ج٣ ص ٢٨١

الذي يعقل الاشياء اكثر مما يعقلها هؤلاء الذين احتوتهم جزيرة مجدبة ماحلة نائية عن العمران .

* * *

شرع شق في الحديث عن سطيح بلهجة بارعة فخمة بددت كثيرا من تلك السحب التي غشيت الناس حينما طلع عليهم شق بسحنته الغريبة فقال ابو سفيان:

ـ انه اخطب العرب بعد قس بن ساعدة!

وصمت شق سطيحا وصمتا خالبا شجيا ونعته بالرحيم الشفيق فصاح حسان

ـ بل هو ابرع من النابغة الذبياني في استمالة النفوس واما لتها الى الاغراض العالية النبيلة !

وقال شق عن سطيح « انه رسول خير وقد اراد لهؤلاء الذين نهدوا الى مثواه من كل فج عميق ان لا يعتصرهم اليأس لأن الارض التي امحلت في الاعوام الفائتة ستورق ايراقا زاهرا في الاعوام القابلة ، وقال امية :

ـ هذا ساحر العرب ..

ثم تجلجل صوت شق فاذا هو يدعو الناس الى استماع صوت سطيح

سطيح المسيخ ! سطيح بن مازن الذي منحته السماء الصحة والجمال والبهاء سيتكلم ! بلى سيتكلم سطيح ! وسكت الناس، فاذاهم في صمت هذه الاطلال العافية البالية ؛ وقد حالت اجسامهم الى دمى كهذه الدمى المحطمة المبعثرة في كل ناحية من نواحي الاطلال ؛ ولكن العواطف والاحساسات ظلت على صفائها واشراقها وطهارتها فلم تركد ولم يغمرها ذهول وظلت مفتوحة للمعاني السامية والكلم البليغ

لله الله من مشهد فاتن بهر الابصار بهرا

لقد كانت هذه الاطلال العافية التي جعلها الزمن في ذمة الصحراء جميلة فتانة كأن الرياح السافيات لم تنشر في عرصاتها ظلال الموت والمخاوف ، وكأن الرمال التي تحملها هذه الرياح من بادية العرب لم تحطم انصابها وتماثيلها ولم

تخرس اصوات سكانها السعداء .

وفي الحق لم تحفل اطلال المدن الدارسة بمثل رواء هذه الاطلال النبطية التي حباها سطيح الحياة والرجاء والقوة والشباب . فلقد كان سكانها الاولون يتناغمون ويتسامرون في عصر ازدهارها ونشاطها فاترعها سطيح بلذيذ النغم بعد موت وعفاء وكان خطباؤها في الماضي يسجعون وينثرون طرائف الحكمة وروائع الكلم فراح سطيح يجدد عصر البلاغة والبيان بعد ان احتواه غسق الموت ؟

لك الله من بقايا مقدسة تعيد على رائيها تاريخ امة عظيمة اصطنعت السلم في الأحسان الى العقل والى التفكير فكانت هذه القصور وهذه العمد وهذه الاروقة حصاد هذا الاحسان .

فتح سطيح فمه ، ففتح الناس قلوبهم وعيونهم . تكلم سطيح فاذا في صوته ذلك الرنين العذب الذي ينسجم في نغمات الأطفال ثم تكلم وتكلم كثيراً حتى اشجى وابكى ، وحتى استثار الذكرى .

اغمض سطيح عينيه وتكلم :

« ايها الرعاة الذين ساخت اقدامهم في رمال الصحراء وخبت قرائحهم واذهانهم في الجبال الجرداء ، نهوضاً نهوضاً من هذا الرقاد الذي يغطي العيون والنفوس والذي يحجب عنكم آفاق الحياة المرحة الوادعة .

« افتحوا عيونكم لهذا الفجر الذي تمتد ظلاله من بادية الحجاز الى بادية الشام فانكم ستبصرون في تورده ولمعانه وزخرفه طليعة زحف جديد الى سهول فتانة ؛ وحقول فينانة ، ومدن حالية بالنعيم ، وامصار لاتغشاها الغيوم ؛ وستكونون اصحاب هذا الزحف الميمون ، اذ توغلون في الأرض ايغالا وترثون هذا الذي احتوته الغبراء ، والدأماء ؟

بلى وستكونون احراراً كهذا الهواء المنسجم العذب ، وستحفل بيوتكم بالأنوار التي لاتخبو ! وسيكون لكم في كل منتأى من الأرض راية خفاقة وظل ممدود ،

ايها الرعاة ! انظروا الى هذه الصحراء المتطامنة الى حرها وهجيرها العائشة في صمت جبالها الغارقة في سكون افقها ، انها ستنحسر عن روح سامية تمشي بكم الى شتى الآفاق فيكون لكم في البر والبحر الملك الضخم الذي لايبلى والمجد الذي لايفنى والفضيلة التي تغسل حوباء النفس وسيمشي بكم هذا الروح الاسمى الى دين جديد تعرفون به ربا محسناً جوادا عادلا كريماً ينقذكم من جحيم هذا البؤس الذي تصطلون بحره ثم يطل بكم على افق بمور بالطمأنينة والسكون والراحة وكذلك سيتسق لكم العقل والفكر والذكاء المتمع حتى اذا بدت لكم هذه الطبيعة التي ترون اصطعنتم العقل والذكاء في فهم مقاصدها وحذق اغراضها ؟

وسيرتفع شأن الاسرة ، ويقوم الحب مقام البغض ، وينسجم الناس فلا بغض ولا ثأر ؟

ستقولون منّ اين جاء سطيح بكل هذا وستسألون اين هو ذلك الروح افلا يدلنا سطيح عليه ؟ بلى وستقولون ايضاً ، نحن فقراء وارضنا لا تنبت حباً ، ولا يغشاها ظل رخي ، سماؤنا عريقة في شحها واملاقها ، فكيف تنبت هذه الزهرة المحسنة في هذه الأرض البخيلة الضنينة !

افتحوا عيونكم ، حدقوا الى الصحراء ، انه يمشي في موكب فخم من الجلال والرونق . . بلى انه ليمشي فوق رؤوس العصور البعيدة ليطل من وراء شمسها الغاربة على فجر العصور الجديدة التي سيخلقها بيده خلقاً ، يخيل الي اني اراه . . . بلى يخيل الي اني اراه ، هو فتان كهذه الشمس التي تسطع على هذه النواحي ، وبهي كهذا الفضاء المتورد المصحي ، وعظيم رائع كالبحار ، ووديع كالزهرة الضاحكة في احضان الخمائل ؟

وهذه الاصنام ، هذه الاصنام التي خيل اليكم في الماضي انها تحمي احياءكم وامواتكم ، وانها تتحكم الصحة والشباب والحب والمرح ستنهار تحت قدميه لأنها تعيش بينكم في غير فضيلة ولأنها لاتملك شيئاً من الصحة والشباب والحب والحياة

وستمشون تحت لوائه الى عبادة موثقة تكفل لكم الصحة والشباب والحياة وتفتح امامكم افقاً جديداً منعتكم هذه الصحراء المشبوبة ان تروه.

لم يقل سطيح اكثر من ذلك فقد بح صوته وكاد يضيع في مدى الاطلال الواسع فاستروح الناس الى صمت مهيب ولذت هذه النفوس التي تستهويها البلاغة والفصاحة بلاغة كاهن الصحراء فانهال الناس على سطيح بالأسئلة ووجه اليه بعضهم هذا السؤال ؟

ـ اين نجد هذا النبي الذي حدثتنا عنه ؟

فصاح سطيح :

ـ انطلقوا الى مكة فان فجره قد انبثق في تلالها وجبالها :

وسأله سائل :

ـ من هذا النبي ؟ فقال :

ـ من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه الى آخر الدهر (١) فقال له قائل :

ـ وهل للدهر من آخر ياسطيح؟ قال نعم يوم يجمع الأولون والآخرون ويسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيؤون (٢)

وسأله سائل :

ـ احق ماتقول ياسطيح؟ قال نعم والشفق والغسق والفلق اذا اتسق ان ما اخبرتكم به لحق (٣)

حاول امية بن ابي الصلت ان لايبتأس ، وان يتطامن ولكن خطبة سطيح احنقته والهبت غيظه وفجرت في صدره ينابيع اليأس فبدا للذين حوله ناشجا باكيا وراح مرتمياً على صدر ابي سفيان وهو في بحران وجنة لايعي شيئاً . .

---

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٨١ (٢) بلوغ الأرب ج ٣

(٣) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٨٠

وانتبه الناس لفحامه المنبعث من صدره ، فراحوا ينظرون اليه مشفقين مروعين لايدرون هذا الذي اشجاه وابكاه وطفق ابو سفيان يواسيه ويعزيه بينما حسان ابن ثابت يخترق الملعب ليتصل بسطيح !

وبعد قليل زالت هذه الغاشية التي غشيت امية فانقلب رابط الجأش وفتح عينيه محدقا الى الناس الذين تجمعوا حوله وقال لهم متجلداً :

— ولكن هذا المسيح يكذب ..

ولفظ كلمته هذه هامساً فلم يسمعها احد وكان مقدرا له ان لايسلم من عبث الجماعات لو ذاع حديثه بينها فقال له ابو سفيان :

— اسكت ولا تتكلم فاني اخشى ان يقتحمك هؤلاء الذين ذهبت احاديث سطيح بالبابهم وعقولهم ؟

فانحى اميه ناحية ابي سفيان وقال له :

— الست ترى رأيي ؟

— نعم ، ولكني اضن بك ان تقتل ، انظر الى عيون هؤلاء فانها حمراء بلون الدم .

وكان حسان بن ثابت قد بلغ مكان سطيح فارتفعت العيون اليه واخذ الناس يتهامسون ويتساءلون :

— ماذا يريد هذا الرجل من سطيح ؟ وقال احدهم :

— حقا انه ان به لجنة ، افلا ترون اليه كيف وضع يده على كتف الكاهن وكيف اخذ يحدق اليه ... لقد فتح فمه ... انه سيتكلم ... اسمعوا ...

وقال آخر :

— كلا فليس في سحنته الهادئة مايدل على جنونه ... لقد تكلم ..

واثار ضجيج الجماهير انتباه ابي سفيان واميه وكانا الى حين لايعلمان شيئاً من ارادة حسان ، فقال اميه : لعله سيسأله عن المستقبل ؟

فقال ابو سفيان : لم تخطيء فان حسان قد اعتزم ان يحمل سطيحاً على قراءة خطوط يده ، وفي خفة الوميض تجلجل صوت حسان في انحاء الملعب ، فاذا هو يسأل سطيحاً :

— اسامعي انت ياسطيح ؟ فاغمض الكاهن عينيه وغاص في لجة حلم عميق فاستتلى حسان قائلا :

— اسامعي انت ياسطيح ؟

ففتح الكاهن عينيه ولكن من غير ان يرفعهما الى حسان فكرر الشاعر سؤاله:

— اسامعي انت ياسطيح ؟

تحرك سطيح وهو في المحفة ، وتفرس في الجماهير كأنه يقرأ همسها ويتعرف الى مايتردد في ضمائرها ثم اشرق وجهه فمد يده الى حسان صائحاً : تكلم ؟

قال حسان :

— هل لك ان تقرأ في خطوط يدي ؟ فلقد سمعتك تتكلم عن نبي يبعث في العرب فما شككت في حديثك ، وكنت مأخوذاً بحلاوة وصفك هذا النبي الذي سيمشي بقومه الى حياة ماجدة ؟ اي سطيح قل لي ماذا ترى في يدي ؟

فصاح سطيح :

— مد يدك الي ثم ادر عيونك الى ناحية الجماهير ، وطفق الكاهن يقرأ :

ستعيش ايها الرجل السعيد الحظ احفل الناس بلذاذة الأيام ومرح الأعوام وسيكون لك من ذلك النبي المرسل ما تطمح اليه من شرف ومجد وجلال وحب ورفق

وهنا سكت سطيح ، وسكتت خفقة فؤاده فلم يرق الجماهير هذا السكوت فصاحت

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

فتابع سطيح حديثه قائلا .

« وحينما يتبدل وجه العالم تحت تأثير هذه النبوة المقدسة وتنهار صروح الانسانية القديمة لتقوم على قواعد جديدة من كرم الخلق وفضيلة النفس تكون انت

ايها الشاعر الذي يأتيه الالهام من الارض رفيق هذا النبي الذي يأتيه الالهام من السماء ، ولا يلبث هذا اللألاء الذي تحوطه سحب داجية ان يتكامل ويمتد حتى يغمر الجبال والسهول والاودية والبحار .

— ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

فسكت سطيح ولم ينبس ؛ ثم اغمض عينيه ، وراح ينعم بحلم ؛ ويسعد برجاء ثم فتح عينيه والقى يده على ذراع حسان قائلا :

— هذا كل ما علمته ؛ قصصته عليك ايها الرجل السعيد النبيل .

وتعالت الاصوات في فضاء الملعب ، اقر الله عينيك يا سطيح بن مازن .

ومضى حسان قائلا: اي سطيح لئن عشت ليكونن لك في صدري اكثر من حب واكثر من عطف .

انحدر حسان الى الجماهير فاستقبلته بهتافها البريء الطاهر وحمله بعضهم على المناكب حتى بلغوا به السرادق، وتهافت خلق كثير على سطيح يسألونه عن المستقبل فجعل يتحدث اليهم بلهجة محببة وديعة ملأت قلوبهم مرحاً وتوثباً ونشاطــــا ثم مضوا يهدون اليه بعض الابل وبعض الماشية وقضوا نهارهم في الملعب وهم اشد ما يكونون سروراً وابتهاجا ،.ولما عسعس الليل استأنفت قوافل ابي سفيــان سيرها الى الحجاز تحت ضوء القمر وكان امية بن ابي الصلت خلال ذلك اشبه بميت افلت من حضيض القبر في كآبة طلعته وامحال جبينه وركود ذهنه . ولم يكن ابو سفيان اقل منه ارتباكاً وشحوباً وركودا فان احاديث سطيح جعلته مبهوتاً حتى اصبح خليقاً برثاء ؛ حقيقاً برحمة وعطف .

وبينما كانت الجماهير تعود الى اماكنها سكرى منزوقة من السعادة والغبطة اغمض امية بن ابي الصلت عينيه حتى لا يعرض له حلم بشع يوقظ في نفسه احساساتهــا القلقة وكان يحاول ان يسترد سكينته فما استطاع الى ذلك سبيلا فسقط اكثر من مرة بين ذراعي ابي سفيان صائحا :

— قتلني سطيح ! قتلني سطيح .

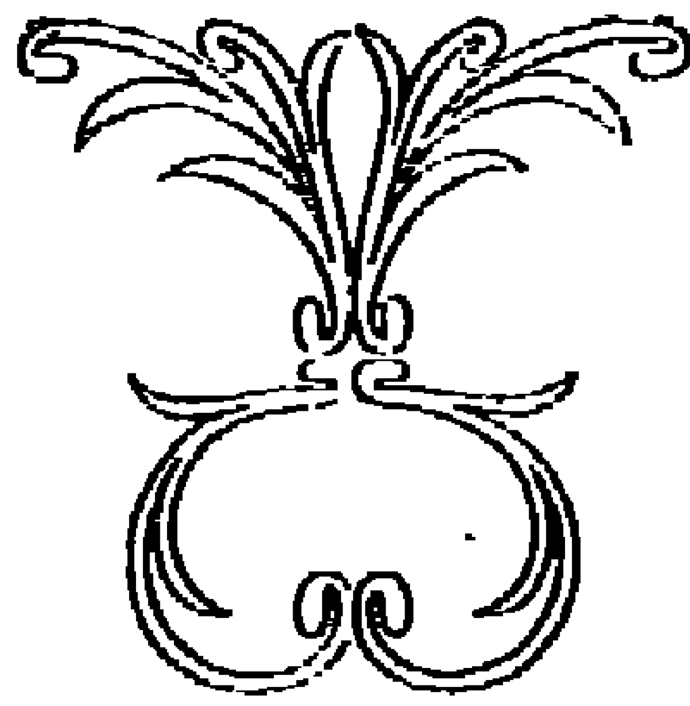
واثارت هذه الاحزان التي انفجرت في صدر امية طبيعته الصـــادقة الاصلية فبدت هذه خشنة قاسية وحشية فاذا هو تحت وقرها يزفر زفرات الحيوان الجريح .

— قتلني سطيح ! قتلني سطيح !

وظلت كلماته هذه الترجيع الوحيد الذي نقله الهواء الى فضاء البادية .

وفي تلك الاثناء طفق حسان بن ثابت يوغل في سيره بين الجماعات العائدة من الشام الى الحجاز وهو يتلهى بانشودة عذبة اودع فيها مرح النفس ونشاطها وهناءتها

وكان الليل الذي يغطي الاطلال النبطية بذوائبه الفاحمة ينشر سكونه في مضجع سطيح الذي نام فاتحاً نفسه وروحه للاحلام الهائئة القريرة ؟



الفصل الثاني والعشرون

اليتـــيم

في غداة اليوم الثالث من ايلول سنة اثنتين وثمـانين وخمسمائة للسيد المسيح عرست قوافل ابي طالب القرشي في بلاس وهي ضاحية غسانية قريبة من دمشق فنشرت اعلامها وخيامها في سهل اجتمعت فيه ضحكة الرياحين الى وسوسة الميـاه وطفق رجالها الذين لفحتهم الصحراء وروعتهم سياحة ممضة طويلة ينعمون برطوبة الهواء ويتلذذون بظلال المساء .

وكانت الشمس في تلك الغداة تستريح في احضان الشفق ؛ وقـد اشفت على الموت،واخذت انوارها تخبو وتذوب في روعة الجبال الهاجعة الوسنانة كأن عروس السماء تحب هذا النزع الذي يصاحبها التشية بين ذراعي الطبيعة .

وبينما كانت الشمس تطبع آخر قبلاتها المنزوقة السكرى على الغابات والمروج والجبال والمياه اخذت الصلوات في دير الحارث البطريق تملأ فضاء الضاحية برناتها الجلجلة كأن الذين احتواهم الدير من الرهبان يلذون ان تصبب ذكاء زفراتها الاخيرة في غناء العبادة ونشيد الورع .

وكانت مدينة دمشق التي اسماها بلزاريوس القائد الروماني في عصر يوستانيوس قيصر « روما الشرق » قد اجتمعت تلك الليلة في دير الحـارث البطريق لاستماع صلاة بحيرا الراهب ، ثم ما لبثت جموع المصلين ان برحت الدير الى المدينة لتشترك في افراح عيد السيدة العذراء .

ولم يشأ بحيرا ان يشترك في افراح هذا العيد الذي اعتاد الغساسنة ان يحتفلوا به كل عام بل آثر ان ينزع الى عزلته الوادعة في مصيف له قريب من بلاس فنهد اليه والليل لم ينشر ذوائبه بعد ، ولما بلغ مثواه الريفي تسرب الى حديقته الصغيرة

وجلس تحت افياء شجرة يقرأ في كتاب وانه لكذلك اذ طلع عليه رجل من ناحية الباب الذي غادره مفتوحا فلما ابصره دالفاً الى ناحيته جعل ينظر اليه كأنه يريد ان يستوثق من امره ، ثم قال له :

ـــ من الرجل ؟

ـــ أنت هو الراهب بحيرا ؟

ـــ نعم فاي الرجال انت ؟ نخفض الرجل صوته وقال :

ـــ اوفدني اليك رجل تعرفه وتنتظر رجوعه اليك منذ العام المنصرم !..

فاطرق بحيرا اطراقة عميقة واخذ يستعرض الماضي ثم قال للرجل :

ـــ لقد اذكرتني رجلا كاد تصرم الايام والليالي ينسيني اسمه ، قل لي الست رسول ابي طالب ذلك السيد القرشي ؟

ـــ بلى

ـــ اين هو صاحبك ؟ قال :

ـــ انه على مقربة من مسيل الماء .

ـــ انطلق اليه وقل له ان بحيرا لم ينس الموعد ..

ـــ الّا تذهب معي اليه ؟

ـــ كلا ! ولكن قل له ان بحيرا ينتظره هنـــا في هذا المثوى ، بل قل له اني صنعت لقريش طعاما ما احب ان يتخلف عنه صغير وكبير ؛ عبد وحر (١)

ارتد الرجل الى الناحيـــة المؤدية الى خيام ابي طالب وراح بحيرا يفكر ويتحدث الى نفسه قائلا :

ـــ هل ظهر ذلك النبي الذي قرأت عنه في الكتب ؟ (٢) فاني كلما خلوت الى نفسي رحت استمع الى هذه الاصوات التي تتغاير في اعماقها فاجدها تنبئني بقرب

(١) سيرة بن هشام ج ١ ، ص ١٧٠

(٢) الطبري

طلوعه علينا .

لقد لبثت عشرة اعوام وانا انتظر معاده حتى كدت اياس من الانتظار وحتى كدت انسي هذا الذي قرأته في الكتب القديمة عنه، قال ذلك ووضع يده على جبينه فاذا هو يتصبب عرقا ، واذا صدره يخفق ، وقلبه يرعش ثم اردف .

— لماذا هذا الخوف الذي يساورني ؟ ما اعتاد قلبي ان يخفق الا لرائعة من الروائع فهل حدثت تلك الرائعة الكبرى التي ستهز اعطاف الكون وتبدل معالمه ؟

ترى هل ولدت تلك الفاضلة ذلك الطفل المقدس الذي يدعو الخلق الى عبادة آله واحد ؟

واراد بحيرا ان يخنق في نفسه تياراتها الجامحة ففتح صدره لنسمات الليل العذبة الباردة وحاول ان يتلهى بهذا السكون الذي يشمل الطبيعة فما الفى في الطبيعة ذلك المرح الذي يبحث عنه ، وظلت هواجسه تتدافع في صدره حتى نقلته الى عالم غير منظور يطفح بالاحلام فاغمض عينيه قليلا كأنه يحاول ان يستعرض في الحلم خيال ذلك النبي الذي لم يره في اليقظة فتراءت له في حلمه صورة بهيجة فتانة لطفل بهي جميل تطفر الوداعة والرقة من احاديثه ، وتثب الفضيلة من صدره ففتح عينيه وهو تحت تأثير هذه الصورة الجميلة واخذ يهمس

— لقد رأيته . . بلى لقد رأيته ، انه جميل وفتان ، وسمعت حديثه اللذ ؛ واستشرقت بهذا الفجر الذي يلتمع في جبينه ولا يغيب .

وفي صباح اليوم التالي انبعث بحيرا من حجرته ليستظل بافياء تلك الشجرة التي اعتـــاد ان يجلس تحت ادواحها وانوار الفجر تغمر النواحي وتغسل الميـــاه والاشجار والجبال ، فلم يكد يقترب من الشجرة حتى شهد نفسه حيـــال رجل سري نبيل تبين في وجهه نضرة الشرف ونضرة الشباب فلما صافحت عيناه عينيه قال له

— لا اكذب نفسي، فانت هو ابو طالب بن عبد المطلب فهل جئت وحدك ؟

— لقد تركت صحبي في الطريق !

— خيل الي انني ان اجتمع اليك بعد ذلك اللقاء البعيد ، قل لي كيف تركت مكة ؟

— خلفتها تمور بالناس الذين تهدوا اليها من كل فج عميق لحضور موسم عكاظ في هذا العام ...

— انكم لتتلهون بالشعر في هذه الايام . ولكن ثق ان مواسم عكاظ لن تتجدد في المستقبل !

— ماذا تقول ياسيدي ؟

— اقول لا بأس ان تأنسوا بموسم عكاظ في هذا العام ، فانكم ستودعون فيه جمال الشعر لتستقبلوا بهاء النبوة . قال ابو طالب :

سمعت اناساً كثيرين يقولون قولك هذا ولكن شيئاً من اقوالهم لم يتحقق بعد ومع هذا كله فلا يزال الشعر مفخرة العرب وحلية فرسانهم وامرائهم فليس من السهل اهماله واغفاله .

— والنبوة ؟

— النبوة ؟ في العام الماضي حدثتني عنها ولا يزال الرهبان يتحدثون عنها ، وابي عبد المطلب نفسه قص علي حديثها الطويل قبل موته ولكن يلوح لي ان فجر هذه النبوة لم يحن انبثاقه بعد

— لقد اعددت لقريش طعاماً على مائدتي .

فضحك ابو طالب ضحكة بجلجلة واجاب قائلا :

— كان عطفك في الماضي مقصوراً علي فماذا حدث حتى صرت تستمرىء ان تجلس قريش الى مائدتك ؟ (١)

— ولكني احب قريشاً ؟ واحبها كثيراً لمكارمها وحسبها وشرفها .

---

(١) روى ابن هشام عبارة ابي طالب على هذه الصورة « والله يا بحيرا ان لك لشأنا اليوم ؛ ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم »

ـــ اتحبها من اجل مكارمها وحسبها وشرفها ؟

ـــ نعم واحبها كثيراً لان ذلك الفجر المقدس سيظللها ، قل لي الا تأكلون طعامي في هذا الصباح ؟

ـــ سيصل اصحابي بعد قليل !

ـــ ناشدتك الله الا يتخلف احد منهم عن المائدة ! . .

ـــ ستراهم كلهم حول مائدتك . . انظر هاهم قد توافوا اليك .

وفي تلك الاثناء اقبل جماعة ابي طالب فاحسن بحيرا وفادتهم والتفت اليهم قائلا

ـــ ناشدتكم الله يا معشر قريش الا يتخلف احدكم عن طعامي .

فضحك ابو طالب واردف :

ولكن هنالك غلاماً في ربيعه العاشر ما احببت ان يسير على قدميه حتى لا يتعب

ـــ وهذا الغلام ؟

ـــ هو ابن اخي ، مات ابوه وهو لم يطل على الوجود بعد ، ثم ماتت امه فكفله جده عبد المطلب ، فلما مات جده ، كفلته انا واحببته حباً جما ، وانحدرت دمعة من عيني ابي طالب واستفاضت شجونه فقال متخافتاً بصوته :

« لما اردت المضي الى الشام ، خرجت الى وداع اهلي فاقبلت على اليتيم ورحت احتبسه بين ذراعي فابتسم لي وابى الا ان يلحق بي ، وقال ياعم الى من تكلني لا اب لي ولا ام فرثيت له ولم انكر عليه هذا الذي اراد ، وجئت به الى الشام فتبسم الراهب وقال :

ـــ الا يأكل هذا اليتيم طعامنا ؟

فالتفت ابو طالب الى رجل من رجاله وقال له :

ـــ انطلق الى الخيام وادع ابن اخي الينا .

* * *

كان صباح ذلك اليوم ساجياً وادعا لا تحجب شمسه الزرقاء غيمة سوداء ولا تعطل صفاءه مزنة وطفاء وكان الهواء ينبعث سائغاً عذبا كالرحيق والجبال المجاورة لا تفتأ ترسل اريج الجنات الحادرة الى شتى الانحاء.

الطبيعة ناعمة وادعة، والارض ناعمة وادعة، والاطيار السابحة في الفضاء ناعمة وادعة؛ والرعاة الذين يتسلقون الذروات الشامخة يتهادون ناعمين وادعين كأن مرح الارض والسماء قد خالط افئدتهم وخالج نفوسهم ففتحوا صدورهم للاريج الطاهر الذي يملأ الاودية والسفوح والجبال.

وذلك البيت الصغير الذي اخلد بحيرا الى صمته وسكونه لم تصدف عنه هذه الحياة القريرة فكانت انوار الشمس تفتح طريقها إلى اروقته ومقاصيره وحناياه والى قناطره واعمدته حتى غمرت كل ناحية من نواحيه.

لقد راح بحيرا يتساءل عن معنى هذه الغبطة التي تغشى الناس والطبيعة معا، وكان يقول:

— الا تحسون هذا الذي احسه فاني ليخيل الي ان الارض التي تعبت من المآسي قد بدأت تستريح، الا ترون معي هذا الجمال الذي يغشى الانسان والحيوان والنبات؟

ولما جيء بالطفل وثب ابو طالب اليه واحتضنه وجعل يعبث بشعره المستفيض على كتفيه وهو يهمس:

— اي بحيرا؛ الا ترى وداعة هذا الطفل؟

— يخيل الي انك تحب الاطفال كثيراً؟

— من منا لا يحب الطفل؛ بل اي الرجال لا يأنس بالطفولة ولا يتعبدها؛ ان حبك للطفولة احفل بالروعة من اي حب آخر، ذلك بأنها مسلاة الشيخوخة وملهاتها، وخفقة الماضي في صدر الشيخ الذي يتوكأ على عصاه، بل هي بناء جديد في طلل عتيق..

لقد كان ابي عبد المطلب يحتضن هذا الطفل وكنت الحظه يبكي كلما حدق

الى ملامحه بل كنت اراه افرح بالحياة منه امس : وحينما كنت اسأله اتحبـــه ؟ كان يقول لي « انني ارى في صورته شمس حياتي الغاربة ففي نضرة جبينـه نضرة جبيني في عمري الأول ، وفي وسوسة ضحكه مرح حياتي الذاهبة وضحكها وكان ليتم هذا الطفل روعة في قلب ذلك الشيخ الوقور ! وفي بعض الليـالي كان ابي يخرج من حجرته والرقاد العميق يطوي في سكونه احـــلام بنيه ، فكنت اراه يدلف الى حجرة هذا الطفل في كثير من الرفق والتؤدة حتى اذا الفاه نائما راح يرسل الى فضاء الحجرة قبلاته العذبة الندية ثم يفيء الى مرتعه وكل حركة منـه وسكنة ونظرة تنم عن حب وحدب فكنت اسأله « ماذا فعلت في ليلك هـــذا ؟ فكان يقول لي « صه ، ان لابن اخيك هذا لشأنا . . انطلق اليه وانظر اي وداعة تظلل جبينه ، واي نور يملأ وجهه » .

وقد مات ابي وهو شديد الكلف بهذا الطفل فاورثني حبه وكلفه ،

فدلف بحيرا الى ناحية الطفل ولحظه لحظاً شديداً ثم استتلى قائلا :

— ما اسمه ؟

— لقد دعاه ابي محمداً .

— ما اعذب هذا الأسم ، بل ما اعذب نظرات هـــذا الطفل الصبيح الوسيم فان بها لصفاء السماء ، وعذوبة الماء ؟

واقترب بحيرا من ابي طالب ، والطفل لايبرح بـــين ذراعيه ، مطمئن النفس لايتبرم بهذه الأشياء التي تعرض له ، فتقدم بحيرا منه وتناول يديه ثم مضى يحدق اليه تحديقاً طويلا !

خيل الى الراهب وهو ينظر الى الطفل انه مأخوذ بحلاوة نظراته ، فما استطاع ان يرفع عينيه وظل يحدق اليه حتى غابت تصوراته وهواجســـه في نظراته ، ثم مالبث ان غرق في لجة حلم عميق لحملته هواجسه الى عالم بعيد يمور بذكـريات

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠

ماضية قديمة كادت تضمحل في نفسه فجاء الطفل اليتيم يستجيشها ويستثيرها ثم رفع عينيه الى ابي طالب وقال :

— امن الممكن ان اكون حالماً ؟

فلم يفقه ابو طالب هذا الذي اراده راهب بصرى فسأله قائلا :

— ما الذي ادهشك في الطفل ؟

فهمس بحيرا في اذني ابي طالب :

— ناشدتك الله ان تبعد هؤلاء الناس قليلا فاني محدثك بامر جليل ،

فشخص ابو طالب الى ناحية رفاقه واراد اليهم ان يتواروا قليلاً ففعلوا ثم عاد الى الراهب قائلا :

— ماذا رأيت ؟

فصاح بحيرا وهو لاينفك شاخصاً الى السماء !

— امنحني ايها الاله القدير الرحيم الأشراق والذكاء كما منحت هذا الطفل البهاء والضياء ، ثم التفت الى ابي طالب وسأله قائلا :

— ماذا قال لك ابوك عن هذا الصغير ؟

— قال لي « ان لابن اخيك هذا لشأنا

— لم يخطيء ذلك الشيخ الوقور في هذا الذي افضى به اليك ، واراد بحيرا ان يتحدث الى الصبي فدلف اليه خاشعا وقال له

— ياغلام اسألك بحق اللات والعزى الاما اخبرتني عما اسألك عنه وانما قال ذلك لانه سمع بعض قريش يحلفون بهما (١) فحدجه الطفل طويلا ثم قال له هادئاً وادعا

— لا تسألني باللات والعزى شيئاً فوالله ما ابغضت شيئاً قط بغضهما (٢)

— بالله الا ما اخبرتني عما اسألك عنه فقال له سلني عما بدالك فجعل يسأله

(١) ابن هشام ج ١ س ١٧٠

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٧١

عن اشياء من حاله ونومه وهيئته واموره والطفل يخبره وبحيرا في صمت مهيب، واطراق غريب ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه وكان الانفعال قد استطال على مشاعره فالتفت الى ابي طالب وقال له :

— ذكرت لي انه يتيم ؟

— نعم .

— وذكرت لي ان اباه مات وامه حامل به ؟

— نعم .

— وذكرت لي ان جده كان يتوقع ان يكون له شأن عظيم ؟

— نعم .

— اذن فاعلم ان ابن اخيك هذا نبي . .

فقال ابو طالب .

— وما النبي ؟

— النبي هو الذي يوحى اليه من السماء فينبىء به اهل الارض(١) لماذا اخذتك الرعدة ؟ ان هذا الطفل سيكون عظيما في احسانه الى الناس ، وهو سيدعو الى ديانة مهذبة تصقل العقل فلا يضيء الا لفهم الحقيقة والفضيلة والصداقة واحترام المرأة ومحاربة هذه الوثنية التي تغمر العقل بظلماتها ودجناتها بلى وسيكون الانشودة الهائمة التي تغنيها الانسانية الفاضلة في المستقبل .

— ولكني اخاف عليه هذا الذي تقوله فانه يتيم .

— لقد عاش النبيون الذين تقدموه ايتاما ، ولكن العالم على رحبه وامتداده ما لبث ان اصبح اسرة هؤلاء الذين مشوا في الظلمات ليطلوا على النور

ان النبيين والرسل لا يجدون تلك الحواجز التي تفصل بين كيانهم والحياة العظيمة التي تخترق العالم فهم يعيشون منسجمين في الطبيعة وعناصرها كأنهم

(١) تاريخ ابن عساكر ج (١) ص ٣٥٣

بعض الطبيعة وكأن الطبيعة نفسها بعض تفكيرهم واحساساتهم .

لقد عاش موسى النبي يتيما ايضا ، وعاش مضطهـــدا مروعا لا اسرة له ولـكن الطبيعة كانت اسرة هذا اليتيم العظيم الذي حمل بيده الى البشر اول مصابيح الفضيلة بل لقد كانت الطبيعة تعيش في تأملاته وكانت تأملاته تقبس نشاطها وامراعها من الطبيعة ، ثم لم يمض زمن حتى كان ثمة انسجام بين موسى والطبيعة بين النبي وبين العالم الذي عاش فيه .

وكذلك عيسى فانه ولد يتيما مروعا من اعدائه مضطهداً في قومه ، ولـكن هذا الروح السامي الذي ارسله الله داعياً الى السلام ما لبث ان وجد في العالم الاسرة الحادبة الشفيقة .

ان النبيين وكذلك عظماء الرسل لا يعيشون في كفاح ونضال مع الطبيعة ولـكنهم يعيشون معها في توافق وانسجام .

وسيعيش هذا الطفل اليتيم كما عاش موسى وعيسى ولـكنه سيطل في النهاية على عالم يحبه ويشعر انه متصل به .

عد ايها السيد بابن اخيك الى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرا فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم (١) وسيدين له العرب ويملك الروم والعجم (٢)

فلمعت عينا ابي طالب ببروق غريبة وانثنى قائلا :

ـ اتخشى على ابن اخي اليهود ؟

ـ نعم

ـ ولـكنك نسيت شيئاً واحداً كان ينبغي الا يفوتك .

ـ وذلك الشيء ؟

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧١

(٢) تاريخ ابن عساكر ١ ص ٢٥٤

ـ كنت احب الا تنسى ان ابن اخي هذا يعيش تحت كنفي ورعايتي وان في قدرتي ان اردعنه عادية اليهود بسيفي هذا .

وراح ابو طالب يذرع ارض الغرفة جيئة وذهابا وعيناه تنظران الى ابن اخيه تارة والى الراهب تارة اخرى ثم وقف ينظر شارد الذهن الى الراهب كأنه يريد ان يتسرب الى اعماق نفسه وراح متسائلا :

ـ من اين جئت بهذا كله ؟ من ذا الذي قص عليك هذه الاحاديث ؟ نعم من ادراك ان ابن اخي سيكون نبيا ؟

ـ لقد قرأت ذلك في الكتب القديمة وسمعت كثيرين من الرهبان يتحدثون عن النبي بحماسة وكان وصفهم منسجاما مع هذا الذي رأيته في صفات هذا الطفل النبيل

فترقرقت الدموع في عيني ابي طالب كأنما نفس حديث الراهب عن صدره ولكنه ظل صامتا كالدمى وبقيت عيناه شاخصتين الى طلعة ذلك الصبي الجميل ثم استفاقت خواطره في نفسه ، فحملته الى ذلك الماضي الذي لم يسلخ من عمره عشرة اعوام وحلقت به في افق حوادثه وصروفه فاذا هو يذكر موت اخيه عبد الله والد هذا اليتيم العظيم فاغمض عينيه حتى لا يطرقه خيال هذه الذكرى الشجية ثم طفق يذكر تلك الليلة التي ولد فيها هذا الصغير الكبير وكانت جزيرة العرب كلها مروعة مذعورة يجتاحها الاحباش الذين اغاروا من كل الاطراف لهدم كعبتها المقدسة ، ثم ذكر كيف نزع ابو عبدالمطلب الى الكعبة ضارعا باكيا شاجنا ، بينما ابرهة صاحب الفيل يوغل في الزحف الى البلد الآمن ، ومرت بخياله المحتدم ذكرى هائلة محت ذكرى صاحب الفيل ، فخيل اليه انه يرى هزيمة الاحباش وارتدادهم عن الكعبة فاذا شفتاه تتبسمان ، واذا عيناه تومضان ، فاقبل على بحيرا وهو اشد ما يكون مرحاً وقال له :

ـ لم يخطئك حدسك ، فان هذا الطفل عظيم وجليل ، وليس ادل على عظمته وجلاله من ذلك النصر اللامع الذي ادركته قريش في ليلة مولده فبينما كان الاحباش

يوغلون في الزحف الى مكة يقتلون ويأسرون ، وينهبون ويسبون اخذ نجم هذا الطفل يتألق في آفاق جزيرة العرب ، وفي تلك الليلة الرائعة انهزم الأحباش وارتدوا عن بلاد العرب .

واقبل ابو طالب على الطفل يقبله في كثير من الحنو والعطف والحب ثم قال له:

— الا تسمع يا ابن اخي ما يقول ؟ (١)

فاجاب الطفل قائلا :

— اي عم لاتنكر لله قدرته (٢)

فاحتضنه ابو طالب كرة اخرى وطفق يغمره بسيل دافق من قبلاته وراح بحيرا الى ناحية في حجرته يصلي ويجمجم

— لقد آمنت برسالتك ايها النبي العظيم .

وفي المساء اكلت قريش على مائدة بحيرا ، وكانت الأزهار والأثمار تغطي المائدة وظلال الشفق الساجية المطمئنة تغمر مثوى الراهب الغارق في لجة من الخضرة والرياحين . وامضى الراهب زلفاً من الليل الى جانب ضيوفه وهو يتحدث اليهم عن موسم عكاظ المقبل وعيناه لاتفارقان طلعة الطفل وقد وجد فيها كثيراً من العزاء والرجاء .

وفي صباح اليوم التالي ودع ابو طالب بحيرا فقال له الراهب :

— اذا جئت في العام الجديد الى دمشق فلن تجدني هنا في هذا المثوى !

فبهت ابو طالب وقال له :

— اذن فاين اجدك ؟

— لا ادرى ! فاني ليخيل الي ان اوراق ايامي حالت الى هشيم فاذا تحيفها خريف عاصف في العام المقبل راحت متناثرة .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ٢٥٣

(٢) تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ٢٥٤

ـ ولكنك قوي وصليب والحياة تبسم في وجهك ؟

ـ ولكن الحيـاة حلم مشعشع لا يلبث ان ينطفىء تحت عصف رياح المـوت فاذا قدر الله ان تنهار صروح ايامي فانك واجد في بيعتي هذه راهباً يحدب اشد الحدب على ابن اخيك فلا تتردد في الأصغاء الى نصائحه .

ـ من يكون هذا النصيح ؟

ـ هو نسطوراً الراهب

ـ سأفعل هذا الذي اردت .

واستتلى بحيرا قائلا :

ـ ليس هذا الذي حدثتك به حلما في الكرى او خيالا من الخيالات ، بل هو الحقيقة الطاهرة الصافية ، فاحفظ ابن اخيك من اليهود فانهم قوم اعتادوا ان يصمدوا للانبيـاء !

ـ سأعمل بنصحك الى النهاية .

وتصافح الرجلان .

وبعد قليل غادرت قافلة ابي طالب ضـاحية بلاس عائدة الى مكة ولم تدخـل دمشق مساوقة لنصائح بحيرا .

* * *

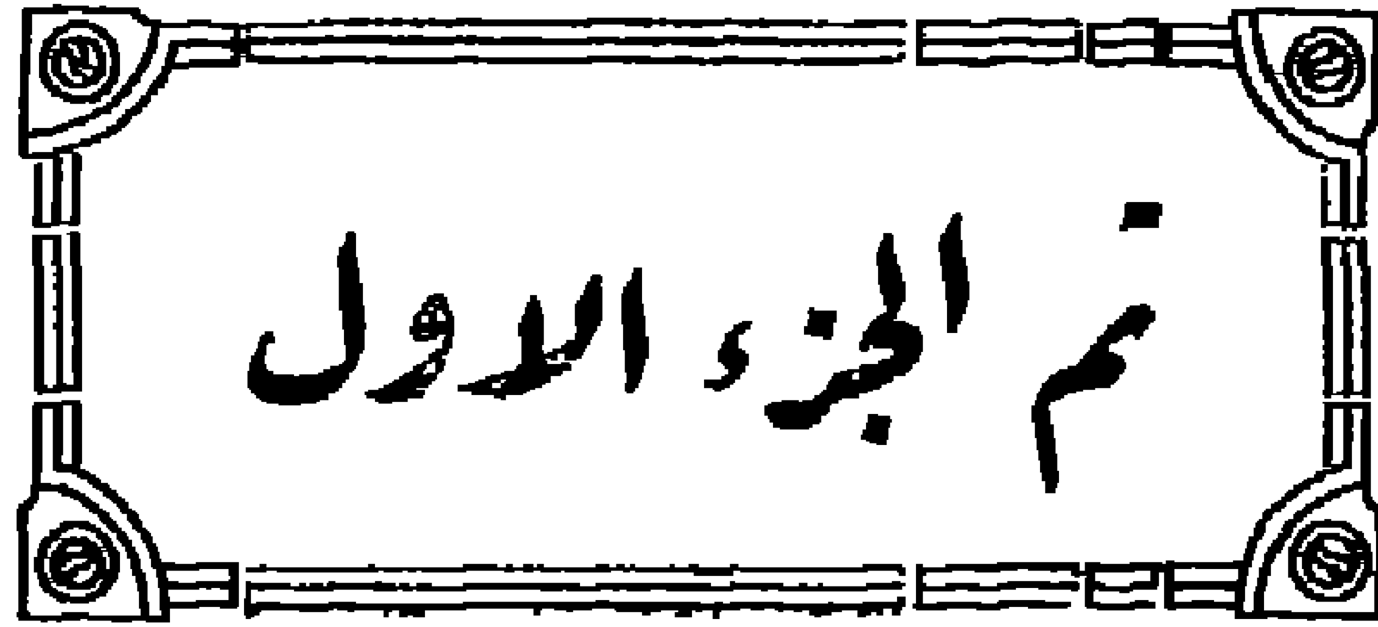
عاد الراهب الى مثواه في الضاحية بعد ان ودع ابا طالب وصحبه وظلت صورة الطفل تطفو في عينيه الى المساء ، فلما سجا الليل وقف على الشرفة المطلة على السهول والمراعي فاذا عيناه تريان القافلة وهي ماضية في طريقها فجعل يحدق الى الفضاء تحديقاً متواصلا والقمر يريق انواره على القافلة حتى ليكاد يغمرها .

وازدحمت الهواجس في نفسه فكاد اكثر من مرة يسقط على حضيض الغرفة تحت تأثير ذلك المشهد الخالب الذي عرض لعينيه ولـكنه استصرخ شجاعته وجلده فاذا خاطره الهلوع الجازع يطمئن ويركد . ورأي في الصلاة عزاء النفس الوالهة

الجافلة فترك الشرفة الى ناحية منعزلة وراح يصلي هامسا .

— لقد آمنت برسالتك ايها اليتيم العظيم .

وكان يقول ذلك باكياً شاجنا ؟ .



ملحق تاريخي
لرواية سيد قريش

الدولة الغسانية في الشام
اذينة والرومان

اراد الرومان بعد ان تبسطوا في الشام والعراق ان يقيموا بينهم وبين الفرس دولة يمنعون بها تدفق الفرس على تخوم بلادهم فوضعوا اسس هذه الدولة في شرقي الشام وربطوا بها بعض العراق وولوا اذينة بن السميذع سيد عرب الشام عليها ومنحوه لقب « فيلارك » وكانت ولاية اذينة في منتصف القرن الثاني للسيد المسيح اي في عصر ماركوس اورلوس «سنة ١٦٥» للميلاد وقد تمكن الرومان بفضل تعاقدهم مع اذينة من احتلال العراق وعقد معاهدة رابحة مع الفرس .

ملوك الشــــام

ولما مات اذينة وانقرض نسله في اواخر القرن الثاني «١٩٠» للميلاد ورث الأمر في الشام بنو سليح من قضاعة وكانوا قد هاجروا من تهامـــة الى فلسطين اثر نزاع استطال امده بين قضاعة ونزار على ان مؤرخي العرب يؤكدون ان اذينة لم يمت بلا عقب ، بل لقد ورث الأمر من بعده ثلاثة من بنيه هم حسان بن اذينة بن السميذع وزهير بن حسان بن اذينة وعمرو بن زهير ، وكان هذا الأخير موالياً لعرب العراق حلفاء الفرس وقد قتل في حرب مع الضجاعمة . ومن المقارنة بين تاريخ موته وتاريخ انقراض حكم الضجاعمة في الشام سنة ٢٦٨ للميلاد يمكن القول انه ولد بين سنة ٢١٠ وسنة ٢١٥ للسيد المسيح واذا جاز لنا ان نعتبر حياة جيل من الناس ثلاثين سنة

جاز لنا القول ان جده الاعلى اذينة ولد سنة ١٢٠ او سنة ١٢٥ وان هذا الجد الاعلى ولي امر الشام والعراق سنة ١٦٥ م .

ملكة تدمر

وليت الأمر بعد موت عمرو امرأته الزباء وقيل انها ابنته فبلغت من امتداد السلطان واتساع الملك مالم يبلغه طامح .على ان شخصية هذه المرأة العجيبة التي لعبت دوراً جسيما في التاريخ القديم كانت محاطة بمناقضات كثيرة فاذا ازحنا عن حياتها جميع الاساطير التي رواها مؤرخو العرب امكننا ان نرى بينها وبين زنوبيا ملكة تدمر وحليفة روما شبها عظيما وهذا الشبه وحده هو الذي يحملنا على ان نجعل من زينب العرب وزينب الرومان شخصية واحدة لامرأة واحدة .

اذينة

اعتقد ان اذينة بن السميذع ملك العرب في تدمر ليس الا اذينة بن سبتيموس ابن ارناس بن وهب اللات. يؤيد ذلك بحث جليل القيمة نشره العلامة مسيو سان مرتين في مجلة ميشو الافرنسية واستند فيه الى اثار الرومان واللاتين ومن كلام العالم الافرنسي يتضح لنا ان اسرة اذينة كانت مرتبطة مع الرومان بمعاهدات ونصوص وان امراءها كانوا ينعمون بالقاب ضخمة في مقابل دفاعهم عن النفوذ الروماني في الشام ضد امبراطورية الفرس .

اقوال سان مرتين والمؤرخ ابن سعيد

تطابق اقوال العالم سان مرتين من هذه الناحية اقوال المؤرخ العربي ابن سعيد ولا تشذ عنها الا في التفاصيل .

قلت ان اذينة الأول المعروف بابن السميذع كان من معاصري ماركوس اورلوس ومن حلفاء الرومان وازيد على ذلك ان لقب سبتيموس الروماني الذي حمله والد اذينة واذينة نفسه قد حمله ابن هذا من بعده واضيف اليه اسم «الامبراطور»

مع جميع حقوق المدينة وقد ظل هذا الملك ارثاً يتقلب في اسرة اذينة وفي عصر سبتيم سيفر« سنة ٢٠٠» منح هذا الامبراطور اسرة اذينة جميع الحقوق التي ينعم بها المواطن الروماني، وهاك ماقاله العالم سان مرتين في مجلة ميشو :

في سنة ٢٤٨ كان بريسكوس والياً على سورية باسم اخيه الامبراطور فيليب العربي وكانت ادارته قاسية وظالمة فثارت عليه البلاد واشتركت الجالية الرومانيةفي تدمر في هذه الثورة واعلنت استقلال تدمر وكان اذينة في ذلك العهد عضواً في مجلس الشيوخ الروماني واميراً « فيلارك » على جميع عرب تدمر فانتخب ابوه اريناس « حارثة » ملكا على تدمر واصبح اذينة بعد انتخابه قائداً عاماً لجيوش تدمر ولما مات اريناس « حارثة » ولي الامر من بعده ابنه اذينة سنة « ٢٠٢ » ويظهر ان اذينة كان مسوقا الى الاستعانة بالفرس لتوطيد استقلاله فخالف سابور الاول بن اردشير وكان هذا قد اجتاح سورية ووضع يده على انطاكية وعلى اثر هذه الحادثة ساق الامبراطور فالريان الجيوش الجرارة من روما وهزم سابور فرجع هذا الى بلاده ورأى اذينة ان ينقلب على حليفه ففعل وغزا ساقة الجيش الفارسي غزوة اليمة ثم عاد موقراً بالمغانم .

اذينة وسابور

كانت بداية حملة الامبراطور فالريان ضد سابور مكللة بالفوز ثم لم يلبث الحظ ان تنكر لقيصر الرومان فسقط اسيراً في يدي عدوه فارسل اذينة الى سابور وفداً مزوداً بالهدايا ليستميله الى محالفته كرة اخرى ولكن سابور الذي نجح في اجتياح سورية لم يشعر باقل عطف على اذينة فزق رسالته ورمى بالهدايا التي ساقها اليه في نهر الفرات واقسم على قتل اذينة وبنيه اذا قدر له ان يظفر بهم .

اذينة ينتصر

ادرك اذينة ان لارجاء له في ولاء سابور فلاذبشجاعتهوحدهاورأىان لاندحة

له عن البقاء على ولاء الرومان فجند عرب الشام وبعض الرومـان واعلن الحرب على سابور فانتصر عليه وانقذ انطاكية واجبر عدوه على الارتداد الى بلاده ثم لحق به حتى لقيه عـلى ضفاف الفرات ومع سابور نساؤه واطفاله وكانت المعركة على ضفاف الفرات من اعظم المعارك التي عرفتها سورية في تاريخها القديم وذلك ان سابور خسر فيها جيشه ونساءه وبنيه ثم عبر اذينـة النهر متـأثراً خطى العدو ومجتاحاً المدن والقرى في ارض العراق وقد امتد زحفه الى عاصمة سابور فاقام على محاصرتها ثم اضرم فيها النار !

بعد النصر

اصبح اذينة بعد هذا النصر اللامع صاحب الأمر في العراق والشـام فلقب نفسه « بالملك » ولم يعد هنالك عدو يخشاه ويتحاماه غير الرومـان الذين انقذهم بشجاعته واعماله وقد حدث ان توالت على اذينة ظروف وصروف سياسية اضطرته الى رفع الحصار عن عاصمة سـابور فارتد الى سـورية في نفس اليوم الذي نادى فيه جيوش الرومان في الشرق بمكريان امبراطوراً رومانياً فذهب قيصر الجديد الى اوربه لينازع الامبراطور غاليان السلطة وترك في سوريـــة قائده بليزات وابنه كوتيوس وناط بهما حماية سورية والسهر عليهـا فلم ير اذينة بدأ من الانضمام الى غاليان الذي لم يكن ينافسه على السيادة في سورية فاعلن الحرب عـلى كوتيوس وبليزات ودمر جيوشهما تدميراً .

اذينة امبراطور الشرق

رأى غاليان ان يجزل ثواب اذينة فولاه امر الشرق كله واباح له ان يضرب النقود باسمه ففعل وظهرت هذه النقود وعليها صورة اذينة المنتصر وتحت قدميه فلول من الفرس المغلوبين ولما كان النصر يفعل في النفوس ما تفعله النـار في الهشيم فقد كان طبيعياً ان تنمو طمحات اذينة وتقوى اطماعه فلبس في سنة ٢٦٣ الأرجوان وهو

لباس القياصرة برغم ارادة غاليان الذي رضي في النهاية بان يقتسم الامبراطورية الرومانية مع اذينة .

مصرع اذينة

في سنة ٢٦٤ سار اذينة بحملة جديدة للاستيلاء على فارس فانتصرت جيوشه وحاصرت عاصمة سابور وبينما كان اذينة ثملا من هذا النصر الجديد الذي احرزه على اكبر امبراطورية في العالم القديم اغارت جيوش البرابرة على آسية الصغرى ثم امتدت الى بلاد الشام فزحف اذينة الى هؤلاء البرابرة المتوحشين وارغمهم على الارتداد والتراجع وعاد الى بلاده موقراً بالمجد وفي سنة ٢٧٦ قتل اذينة بمدينة حمص وسط حفلة رائعة دعا اليها اشراف الدولة وكبراءها وكان قتله بيد ابن اخيه الذي سعى الى ان يرثه على عرش تدمر فذهب سعيه سدى .

الاعشى الشاعر واذينة

ولقد كانت انتصارات اذينة ارثاً ماجداً ورثته جاهلية العرب ، ورضي به الاسلام كرائعة قديمة واخذ الشعراء الذين شهدوا بداية الاسلام يشيرون الى مجد اذينة والى النهاية التي انتهى اليها فمن ذلك قول الاعشى :

ازال اذينة عن ملكه واخرج عن اهله ذا يزن

هذه هي رواية العالم سان مارتين اما مؤرخو العرب فيلوح انهم كانوا لا يجهلون فحسب اروع ما حدث في عصر اذينة بل كانوا لا يعرفون من امرهـا شيئاً كما كانوا يجهلون مصائر رجال أسرة هذا الملك العظيم .

زنوبيا والزباء

ولا نريد هنا ان نتكلم على الأقاصيص والاساطير التي كتبها مؤرخو العرب عن الزباء وريثة اذينة فان امر ذلك معروف عند الجميع وانما نريد ان نكشف للذين قرأوا سيد قريش عن زنوبيا او الزباء مستندين في ذلك الى مصادر لها شديد اتصال بالتاريخ

لم يذكر مؤرخو اللاتين واليونان شيئاً عن اصل زنوبيا التي خلفت زوجها اذينة على العرش سنة ٢٦٧ ولكنهم اقتصروا على القول انها تمت الى الأسرة السامية وزادوا على ذلك انها كانت على علم وثيق باللغات السريانية والعربية والمصرية واللاتينية واليونانية ويقول مؤرخو العرب مثل هذا القول ويؤكدون ان الزباء كانت عالمة بلغات العرب والرومان والمصريين ولما صعدت زنوبيا العرش انزلت اشد العقاب بقتلة اذينة فهي اذن كالزباء العربية التي ثأرت بزوجها عمرو من قاتليه وهي اذن مثلها ملكة تدمر وصاحبة الأمر والسلطان في الشام والعراق

يقول الطبري ان الزباء بنت القصور والحصون وحسنت التجارة ووسعت المرافق، ويقول مؤرخو الروم عن زنوبيا مثل هذا القول، ويقول الطبري ان كثيرين من اليهود كانوا رعية الزباء ويقول القديس اتناس ايضا ان زنوبيا كانت على اليهودية وانها على يهوديتها لم تفكر في انتزاع كنائس النصارى .

ويطري مؤرخو العرب جمال الزباء ويقولون انها كانت من احزم النساء مارؤي في نساء زمانها اجمل منها ويذهب مؤرخو اللاتين والرومان الى اطراء جمال زنوبيا وامتداح شجاعتها ، والزباء عند العرب إمرأة موفورة الشرف والدهاء والسياسة والحيلة وزنوبيا عند الرومان من هذا الطراز وكما ان زنوبيا وقعت في اسر اعدائها الرومان بينما كانت تهم بعبور الفرات على زورقها فكذلك هو شأن الزباء فقد ذكرت الاسطورة العربية انها اتخذت لنفسها نفقاً في حصن كان لها على شاطيء الفرات وسكرت الفرات في وقت قلة الماء وبنت في بطنه ازجا من الآجر والكلس متصلا بذلك النفق وجعلت نفقاً آخر في البرية اجرت عليه الماء فكانت اذا خافت عدواً دخلت النفق ولما دخل اعداؤها قصرها هربت تريد السرب فوجدت قصيراً وهو احد المتآمرين عليها قائماً عنده بالسيف فانصرفت راجعة واستقبلها عمرو بن عدي فضربها وقيل بل مضت خاتمها وقالت « بيدي لا بيد عمرو »

فانت ترى من ذلك ان هنالك شبها عظيما بين خاتمة زنوبيا الرومان وزباء

العرب وان اورليان الذي قتل زنوبيا صورة طبق الأصل لعمرو بن عدي قاتل الزباء

ملوك الشام الضجاعمة

بعد موت الزباء او زنوبيا انقرضت اسرة اذينة بن السميذع ودخل امرها في حكم النسيان فرأى الرومان ان يولوا امر عرب الشام اسرة ملكية من قضاعة (سنة ٢٧٢) ففعلوا وتعاقب على الشام ثلاثة من الملوك نعموا بلقب فيلارك الروماني وهم: النعمان بن عمرو بن مالك ، ثم من بعده ابنه مالك ثم ابنه عمرو بن مالك وقد ارتضى جميع هؤلاء النصرانية ديناً وكان انقراض هذه الأسرة سنة ٢٩٠ .

هجرة الغساسنة الى الشام

لم تقم في الشام في العصور التي تقدمت الاسلام دولة اطول عمراً من الدولة الغسانية بعد انقراض دولة الانباط العربية ودولة تدمر ومع ان امر غسان ظل مرتبكاً قلقاً عند مؤرخي العرب لأسباب يرجع معظمها الى سياسة خلفاء العصر العباسي فقد استطاع مؤرخو الروم واللاتين ان يزيحوا الغطاء عن دولة الغساسنة واثرها في التنافس القائم بين الفرس والرومان .

ولسنا هنا في حاجة الى ذكر تفاصيل هجرة الغساسنة من جزيرة العرب الى الشام فان امر ذلك معروف في كتب التاريخ والشيء الذي نريد اقراره هنا هو ان نشير الى الدور الجسيم الذي لعبه ملوك هذه الدولة في الحروب والعلاقات السياسية بين الفرس والرومان .

لما نزل الغساسنة باطراف بصرى وتوزعوا في بادية الشام احنق عملهم ملوك البلقاء من بني سليخ الضجاعمة فكتب هؤلاء الى قيصر الرومان يسألونه عما ينبغي لهم ان يعملوه حيال المغيرين فكتب قيصر الى فيلارك البلقاء ان دعهم وشأنهم ولا تعرض لهم بسوء ثم اراده على ان يأخذ منهم الجزية فثارت كبرياء غسان واعتدت الجزية زراية بكرامتها ثم نهدت الى سلاحها تحمله لتقاتل الضجاعمة بني سليخ ولكن امراءها لم يوفقوا في هذه الحرب فارتدوا على اعقابهم وقبلوا الجزية .

ثم تجددت المعارك بين غسان وسليح في مشارف البلقاء وعلى اطراف بصرى وكان الرومان في شاغل يشغلهم عن الاهتمام بمصائر حلفائهم الضجاعمة وذلك لانصرافهم الى محاربة الفرس ولم يكن يشجيهم كثيراً ان تزول اسرة حاكمة في الشام لتحل مكانها اسرة حاكمة فشجع موقفهم هذا الغساسنة فاستمروا في الحرب حتى ازاحوا الضجاعمة وملكوا الارض بعدهم وقد تم ذلك في سنة ٢٩٢ اي في عصر بهرام الثاني ملك فارس وديوسوليسيان قيصر وقد تمكن الغساسنة بزعامة غطريفهم ثعلبة من حمل الرومان على الاعتراف بنفوذهم في الشام .

ملوك غسان

من الامور الصعبةان يعرف الانسان عدداً حقيقياً لملوك آل جفنة الغساسنة فان مؤرخي العرب انفسهم منقسمون في ذلك انقساماً بيناً فحمزة وابو الفداء متفقان على ان الملوك من آل جفنة يعدون اثنين وثلاثين ملكا حكموا في اربعة عشر جيلا وابن الدمشقي يقول انهم يعدون اثنين وعشرين ملكا وابن سعيد يقول ان ملوك غسان لم يكونوا اكثر من خمسة عشر ملكا اما الثعالبي وابن قتيبة وابن عمر شاه والمسعودي فمصرون على القول ان عدد هؤلاء الملوك لا يزيد على عشرة .

ولكن المستشرق الافرنسي الكونت دي ساسي يميل الى اقرار رأي حمزة وابي الفداء ويشذ الاستاذ نولدكى الالماني مؤلف كتاب امراء غسان عن رأي الكونت دي ساسي فهو يؤكد ان ملوك غسان الذين عرفهم الرومان كانوا ستة عشر ملكا ولكن الواقع هو غير ماذكره نولدكى وغير ماذكره الثعالبي وابن قتيبة وابن عمر شاه والمسعودي وذلك ان حكم الغساسنة في الشام امتد من القرن الثالث الى القرن السابع فلا يعقل ابداً ان يتعاقب على الملك خلال هذه المدة الطويلة ستة عشر ملكا والمعروف عن اول ملوك غسان انه سمي ملكا سنة ٢٠٥ وان آخر ملوك هذه الاسرة وهو جبلة بن الأيهم وضع على رأسه التاج سنة ٦٢٣ اذن فرواية حمزة وابي الفداء هي الصحيحة .

غسان والنصرانية

كانت النصرانية في الشرق الديانة الحاكمة ويقول ابن حمزة والمسعودي ان النصرانية كانت ديانة بني سليخ ولكن كوسين دي برسفال صاحب كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام ينكر انتشارها في قبائل الازد والخزرج التي هاجرت من جزيرة العرب الى الشام وهو يؤكد ان ثعلبة منشيء الأسرة الغسانية بقي على دين اهل الجاهلية مع بنيه فلم يتنصر ولا يعني هذا ان الغساسنة لم يكونوا نصارى بل الواقع هو ان النصرانية تسربت الى غسان في عصر قسطنطين قيصر اي في ايام جبلة الأول ويقول المؤرخ اليوناني سوزومين ان اميراً عربياً تنصر في عصر الامبراطور فالانس فجارته قبيلته وقربه قيصر منه واغدق عليه الالقاب والهدايا والمنح واستعانه في حروبه ضد الفرس وروى المؤرخ اليوناني لوكين مثل هذه الحادثة فهو يؤكد ان اميراً عربيا قد تنصر على يدي قسطنطين قيصر وكان الامير العربي سيداً على قبائل فينيقية وفلسطين وليس من شك ان المؤرخين اليونانيين يتكلمان هنا على امراء غسان لأن بعض هؤلاء كانوا ملوكا في فينيقيه وفلسطين .

في سنة ٢٦٦ خرج الامبراطور جوليان من انطاكية عن طريق هيرابوليس « منبج » وكانت عاصمة الفرات لذلك العهد وكان قد بعث الرسل الى القبائل العربية ودعا زعماءها الى موافاته في كالينيسوس « الرقة » على شاطيء الفرات فخفوا اليه ومعهم امراؤهم ثم زاروا معسكره حاملين اليه تاجاً من الذهب فاكرم قيصر وفادتهم واستنفرهم الى قتال الفرس بجانب صفوف جيشه والغريب ان اميان المؤرخ اليوناني قد ذكر هذه التفاصيل ولكنه لم يذكر اذا كان هؤلاء الامراء ملوك الشام الغساسنة او غيرهم ويعود اميان فيذكر خلافا نشب بين الامبراطور جوليان وحلفائه العرب وبيان ذلك ان قيصر حبس عن الزعماء عطاياه فثاروا عليه وقطعوا ساقة جيشه وحملوه الانكسار وهنالك مؤرخون يذهبون الى ان حلفاء

الرومان من العرب كانوا كلهم على النصرانية وكانت لهم اديرة عظيمة البنيان تضاهي في جمال هندستها اديرة الروم وكانت لهم قصور لاتقل في روائها عن قصور القياصرة .

الإمبراطورية البزنطية وغسان

شعر الرومان في القرن الرابع بانصراف العرب في الشام عن احترامهم فعدلوا عن اساليب الادارة المباشرة الى انشاء امارات مستقلة في البلقاء وبصرى وفلسطين وحمص وتدمر واسموا امير كل مقاطعة من هذه المقاطعات (فيلاركا) فنجح هذا النوع من الحكم وتقدم تقدماً باهراً في القرن السادس ولكن ملوك غسان كانوا ملوكا على هذه الامارات باعتبار كونهم اصحاب مدينة بصرى وكانت هذه المدينة المحصنة في عصر جوستينان عاصمة البلاد المعروفة بالبلقاء .

ولما كانت الحروب الطاحنة مستمرة بين الرومان والفرس وحلفائهم المناذرة فقد اصطنع جوستنيان الغساسنة واستعانهم في المعارك الكبرى ويقول المؤرخ تيوفان ان اريتاس او الحارث بن جبلة كان اشهر ملوك غسان على الاطلاق وكانت له يد طولى في انتصار بلزاريوس القائد الروماني الاشهر على جيوش كسرى .

في سنة ٥٢٩ اجتاح المنذر الثالث ملك الحيرة مدينة تدمر وتقدم منها الى سورية وهدد دمشق ثم استولت كتائب من جيشه على مدينة انطاكية فطاردتها جيوش الامبراطور جوستنيان وحدث ان اسر اللخميون في هذه المعركة فيلاركا غسانياً فثارت لذلك حماسة الرومان والغساسنة فاجتاحوا جميع ولايات الفرات وانتزعوها من يدي الفرس وفي نفس الليلة التي حدثت فيها هذه المعركة تغلب الفرس في مدينة الرقة على القائد الروماني بلزاريوس (١٩ نيسان سنة ٥٣١) نخف الى انقاذه الحارث بن جبلة بجميع من معه من جيوش غسان فاحسن قيصر ثوابه ومنحه لقب دوق دمشق وولاه امر جميع العرب في جميع سورية .

وفي سنة ٥٤٠ انتصر الحارث بن جبلة انتصاراً رائعاً على الفرس فمنحه قيصر لقب بطريق واعترف بسلطانه على فينيقيه وفلسطين وفي سنة ٥٤٤ سقط ابن الحارث اسيراً في يدي الملك المنذر العراقي فذبحه هذا زلفى للات والعزى فاحفظ عمله الملك الحارث بن جبلة فلحق به الى قنسرين واشتبك معه في حرب قاسية قتل فيها المنذر

وفي سنة ٥٦٣ زار الحارث بن جبلة القسطنطينية زيارة رسمية فاستقبله على ابوابها جوستنيان قيصر وزوجه تيودورا .

ملوك الشام وملوك العراق

كانت غاية الرومان من انشاء الدولة الغسانية وتوسيع سلطانها القضاء على دولة المناذرة في العراق ولكن الغساسنة برغم جميع الانتصارات التي احرزوها في كثير من المعارك لم يوفقوا الى تحقيق هذا الغرض فقد لبث ملوك العراق ينظرون الى اتساع نفوذ الغساسنة بعين الحسد والغيرة فلم يمتنعوا عن اثارة الحروب على اطراف الامبراطورية الرومانية .

وقد كان طبيعياً والغساسنة اصحاب النصر في المعارك التي ينهزم فيها الرومان ان يفكر احد ملوكهم المنذر بن الحارث بن جبلة « ٥٤٩ — الى ٥٨٧ » في انشاء دولة كبيرة تضم اليها دمشق وبصرى وفلسطين ولبنان « المنذر هو احد ابطال رواية سيد قريش » ولكن اطماعه هذه لم تخف على جوستين الثاني الذي ورث عمه الامبراطور جوستنيان في سنة ٥٧٠ تجددت الحرب بين غسان والحيرة فانتصر المنذر الغساني على ملك العراق وامل الملك الشامي ان يعترف قيصر بعد هذا النصر بحقوقه في دمشق وبصرى وفلسطين فتردد جوستين في ذلك وادى تردده الى حدوث حرب قاسية بين غسان وبزنطية استمرت ثلاثة اعوام وعرف الفرس كيف يستغلون هذه الحرب في مصلحتهم فاغاروا على اطراف الامبراطورية البزنطية وافتتحوا كثيراً من مدنها فاضطر جوستين الى مصالحة المنذر وتم هذا

الصلح في حفلة رائعة امام قبر احد القديسيين ويقول تيوفان ان هـذا الصلح كلف جوستين كثيراً فقد تخلى على الرغم منه للملك الشامي عن قيادة جيش سورية كلها وكانت الى سنة ٥٦٩ قيادة رومانية صرفة ورضي ان يكون للمنذر عامل في دمشق ومنح هذا العامل لقب « Praese » وهو من ابهر الألقاب عند الرومان ويتمتع صاحبه بالزعامتين العسكرية والمدنية .

المنذر يزور القسطنطينية

لما مات جوستين الثاني احب الملك المنذر ان يساوق اباه الملك الحارث في بهاء الملك وروائه فزار طيباريوس الثاني مصحوبا بولديه وكان همه الوحيد ان يظهر على الشعب البيزنطي في وسط قاعدة ملكه ليريه البطل المنتصر على ملك فارس وملك العراق فاستقبله طيباريوس قيصر بحفاوة منقطعة النظير واسماه حامي الارثوذكسية في الشام ومنحه لقب « Phylarche de l'empire » والبسه التاج شعار القياصرة بدل الاكليل في حفلة رائعة بكنيسة اياصوفيا وعند رجوع المنذر الى بلاده اضطرمت الحماسة في نفسه فطمع في ضم العراق الى ملكه الذي امتد واتسع بعد مصالحته جوستين الثاني وفي العام نفسه احرق الحيرة .

وقع مؤرخو الدولة الغسانية في اغلاط كثيرة فيما يتعلق بتاريخ سفر الملك المنذر الى القسطنطينية فروى دي ساسي وكوسين دي برسفال وسديو ان هذه الزيارة كانت سنة ٥٧٨ وقال نولدكى وهو اكثر كتاب الافرنج عناية باثار الدولة الغسانية ان هذه الزيارة وقعت سنة ٥٨٠ وهو يستند في روايته هذه الى مصادر يونانية واللاتينية وقد اعتمدنا في رواية سيد قريش ما كتبه نولدكى .

غدر قيصر بالملك المنذر

خشي طيباريوس الثاني صاحب القسطنطينية ان تنمو مطامع المنذر فتمتد الى ارث الامبراطورية البزنطية كما امتدت مطامع الزباء الى الاستيلاء على ارث

امبراطورية روما فازمع على التخلص من هذا المنافس القوي الذي جمع الى عنفوان البطل دهاء السياسي وكياسته ويقول بركوب احد كبار مؤرخي الرومان ان الحيلة وحدها كانت سلاح قيصر في التغلب على منافسه الشديد العنيف ففي سنة ٥٨٢ احاط الرومان بالملك المنذر وهو مشرف على بناء كنيسة غسانية في ضاحية تقع بين دمشق وتدمر ولم يكن معه جيش ولا سلاح ماعدا حاشية صغيرة فساقوه اسيراً الى القسطنطينية وبعث به طيباريوس الى « صقلية » حيث امضى حياته في المنفى

وعلى هذه الصورة تخلصت بزنطية من عدو شديد لا يقل خطره عن خطر ملك الفرس.

ثورة غسان على الرومان

اثارت الآلام التي عاناها الملك المنذر في حصن صقلية حيث سجنه قيصر حماسة بنيه فثاروا على الرومان وطردوهم من بصرى ثم زحف جيش غساني بقيادة النعمان ابن المنذر الى دمشق فلقيه جيش عظيم من الرومان وكان القتال شديداً حامياً سقط في خلاله اربعة من قواد طيباريوس هم فيليب ، وقسطنطين ، وتيودور ، وجوليان ولكن النصر الذي لازم الملك المنذر في جميع حروبه خان بنيه في هذه المرة فسقط ثلاثة منهم في الميادين ، ووقع النعمان اسيراً فاعتقله طيباريوس قيصر في احدى جزر القسطنطينية حيث قضى نحبه وهو شديد الحنين الى الثأر بأبيه . وقد وقعت هذه الحوادث كلها سنة ٥٨٤

ويمكن القول ان عهد الاستقلال الغساني قد لفظ انفاسه في هذه السنة فقد قسمت بزنطية الدولة الغسانية التي لبثت مستقلة الى سنة ٥٨٤ الى خمس عشرة امارة واكثرت من خلق الزعماء والرؤساء لاضعاف روح القومية في الغساسنة وكانت هذه الروح قد ظهرت ظهوراً جلياً في عصر الملك المنذر .

الدولة الغسانية في القرنين الخامس والسادس

لم تكن الدولة الغسانية كما قال دي ساسي دولة بدوية لا عاصمة لها وانما كانت

دولة متحضرة وكانت لها عاصمة طافحة بالعمران هي بصرى ، نعم لقد لبثت الدولة الغسانية من القرن الثالث الى اول القرن الرابع دولة حائرة مشتتة فكانت عاصمتها تارة في جرش واحياناً في مأدبا وكرة اخرى في بصرى ولكن الدولة الغسانية لم تلبث ان استقرت على وضع ثابت من القرن الخامس الى أواخر القرن السادس فكانت عاصمتها الدائمة في بصرى وكان لها سفراء في بلاط قيصر وكانت الزعامة العسكرية والدينية والمدنية محصورة في ملك غسان الذي يتمتع بحق كامل في اعلان الحرب وفي سوق الجيش الى اراضي العدو من غير ان يستشير قيصر ومع ان سورية (دمشق ، وحلب ، وانطاكية) كانت تخضع كلها لسلطة مجلس الشيوخ في القسطنطينية ومع ان قيصر كان القائد الاعلى لجميع جيوش الشرق فقد لبث الغساسنة في نجوة من رقابة مجلس الشيوخ ومن رقابة قيصر وكانت المدن التي يفتتحها الجيش الغساني تعتبر بلاداً غسانية واذا كانت الدولة الغسانية قد بلغت هذا المدى الواسع من الاستقلال فذلك يعود الى المهارة السياسية التي تحلى بها ملوكها من سنة ٥٢٥ الى سنة ٥٨٤ وقد كان هؤلاء الملوك يعتبرون انفسهم بحق ورثة ملوك النبط وملوك تدمر وحماة جزيرة العرب ومع ان ديانتهم كانت الارثوذكسية البزنطية فقد ظلوا في معزل عن تدخل بطاركة القسطنطينية في شؤونهم الروحية وذلك لأن العصبية القومية تغلبت على العصبية الدينية !

بصرى عاصمة غسان

كانت بصرى عاصمة دولة الأنباط العربية قبل ان تكون عاصمة الدولة الغسانية ويقول كامرر في كتابه « بترا والانباط » ان رئبال الثاني ملك النبط هو الذي تخيرها عاصمة لبلاده بعد ان ضيع الحارث الثالث النبطي مدينة دمشق وان الثقافة النبطية لم تلبث ان انتشرت في حوران حتى اصبحت ثقافة عامة في جميع نواحيه ولما قضي الرومان على استقلال دولة الانباط ابقوا بصرى عاصمة للولاية العربية

« Provincia Arabia » اي لجميع الاراضي التي تتألف منهـــا دولة الانباط ، واعظم ماتركه النبط في بصرى حصن بنوه عـــلى الطراز النبطي المصري — وفي العصر الروماني تقدمت بصرى تقدما باهراً في العمران فبنى الرومان فيها مسرحها الشهير وبناء الكابيتول وطائفة من القصور وكان على بصرى في ايام العصر الروماني حاكم يتمتع بوظيفة قنصلية وفي زمن الامبراطور تراجان سميت بصرى « نوفا تراجانا بصرى » وضربت باسمهـــا النقود وفي زمن اسكندر سيفر انقلبت الى مستعمرة رومانية صرفة ، ثم اعادها الامبراطور فيليب العربي المولود في شهبا عاصمة لسورية الثانية ومع ان اللاتينية كانت اللغة الرسمية فقد ظلت العربية لغة الناس جميعاً .

وفي ايام قياصرة بزنطية تطورت اوضاع بصرى تطوراً عظيما فقـد مر عليها القرن الرابع كله والنصف الاول من القرن الخامس وهي تدار باسم القيـاصرة ، ثم صارت عاصمة ثابتة لملوك غسان وظلت كذلك الى نهاية القرن السـادس وقد بنى فيها ملوك غسان قصوراً وحصونا بحيث اصبحت في القرن الخامس والقرن السادس معرضاً لأذواق الأنباط والرومان والبزنطيين والغســاسنة في فن العمارة والهندسة .

وكانت ابوابها من الشرق ومن الغرب اي من صلخـــد الى درعا من اعجب التحاسين الأثرية .

وكان وسط المدينة بديعاً وفتاناً فقد قام فيه قوس نصر روماني الى جانب قوس نصر نبطي وقام الى جانب القوس الروماني ملعب وعدد كثير من الهياكل ، وكان يحيط ببصرى لبعض المدن المتحضرة كمدينة « كاناتا » وهي المعروفة اليوم بمدينة القنوات وكانت هذه تنافس بصرى في جمال ابنيتها وقصورها ومعابدهـا ومسرحها وكانت مدينة بصرى في القرن الخامس والقرن السادس اي في زمن تفوق الدولة الغسانية وتقدمها وانتصارها على الفرس من ارقى المدنيات التي عرفتها بلاد الشام ومن بصرى امتدت يد العمران الى جميع حوران واروع اثر غساني في حوران هـــو

القصر المعروف بقصر دامر القسطل من بناء المنذر بن الحارث « من سنة ٥٧٠ الى سنة ٥٨١ »

حدود الدولة الغسانية

تتألف الدولة الغسانية من جميع اراضي الدولة النبطية فهي تتصل بالبحر الاحمر الى خليج العقبة ثم تمتد الى سورية بحيث تضم بصري وتتوغل في سهل دمشق اما حدودها الشرقية فممتدة من خط عسكري يبتديء من ايله وينتهي بطريق اراضي النبط وعمان الى بصرى ومن اشهر مدن غسان مأدبا وجرش اما حدودها الغربية مما يصاقب الصحراء الشامية العراقية فموضوعة تحت ادارة غطارفة من غسان اطلق على غطريف منهم لقب فيلارك وكانت رقابة الغساسنة ممتدة الى فلسطين لأسباب عسكرية ناشئة عن ثورة قام بها اليهود السامريون في سنة ٥٢٥

في الحقيقة ان حدود الدولة الغسانية غير معروفة بالضبط وانما يمكن القول ان سلطة ملوك هذه الدولة كانت في القرن الخامس وبعض القرن السادس ممتدة الى فلسطين والازدن وحوران وغوطة دمشق وتدمر وكانت في عصر المنذر الغساني تمتد الى الفرات .

نظام الجيش الغساني

عدلت الامبراطورية البزنطية في القرن السادس عن اساليب الرومان العسكرية القديمة فالفت الجيش من ثلاث وحدات ، وحدة الجيوش المحالفة ، ووحدة جيوش الامبراطور ، ووحدة الجيوش المساعدة فكان المحالفون من الغساسنة ، وقد احاطهم الامبراطور جوستنيان بكل مظاهر التكريم والاجلال فمنعهم من الذهاب الى المستعمرات البزنطية في اوربة فظل عملهم مقصوراً على الدفاع عن حدود بلادهم وكانوا يتلقون الاوامر من ملوكهم وزعمائهم وقد اخرجت غسان قواداً من الطراز الاول حاربوا في صفوف بلزاريوس القائد الروماني الأشهر

وامتاز هؤلاء على قواد الرومان بالشجاعة والمغامرات وكان بعضهم يتمتع بلقب دوق ولقب بطريق ، وروى بركوب ان حرس جوستنيـــان كان من خيرة فرسان الغساسنة .

والخلاصة ان الدولة الغسانية على ضؤولة اخبارها كانت عنصراً مهما في حياة سورية الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، فمن اراد التبسط في معرفة مصـــائر الأمارات التي قامت بعد انقراض الدولة الغسانية فليراجع روايتنا الجديدة :

﴿ عمر بن الخطاب ﴾

مصادر الجزء الاول من

﴿ سيد قريش ﴾



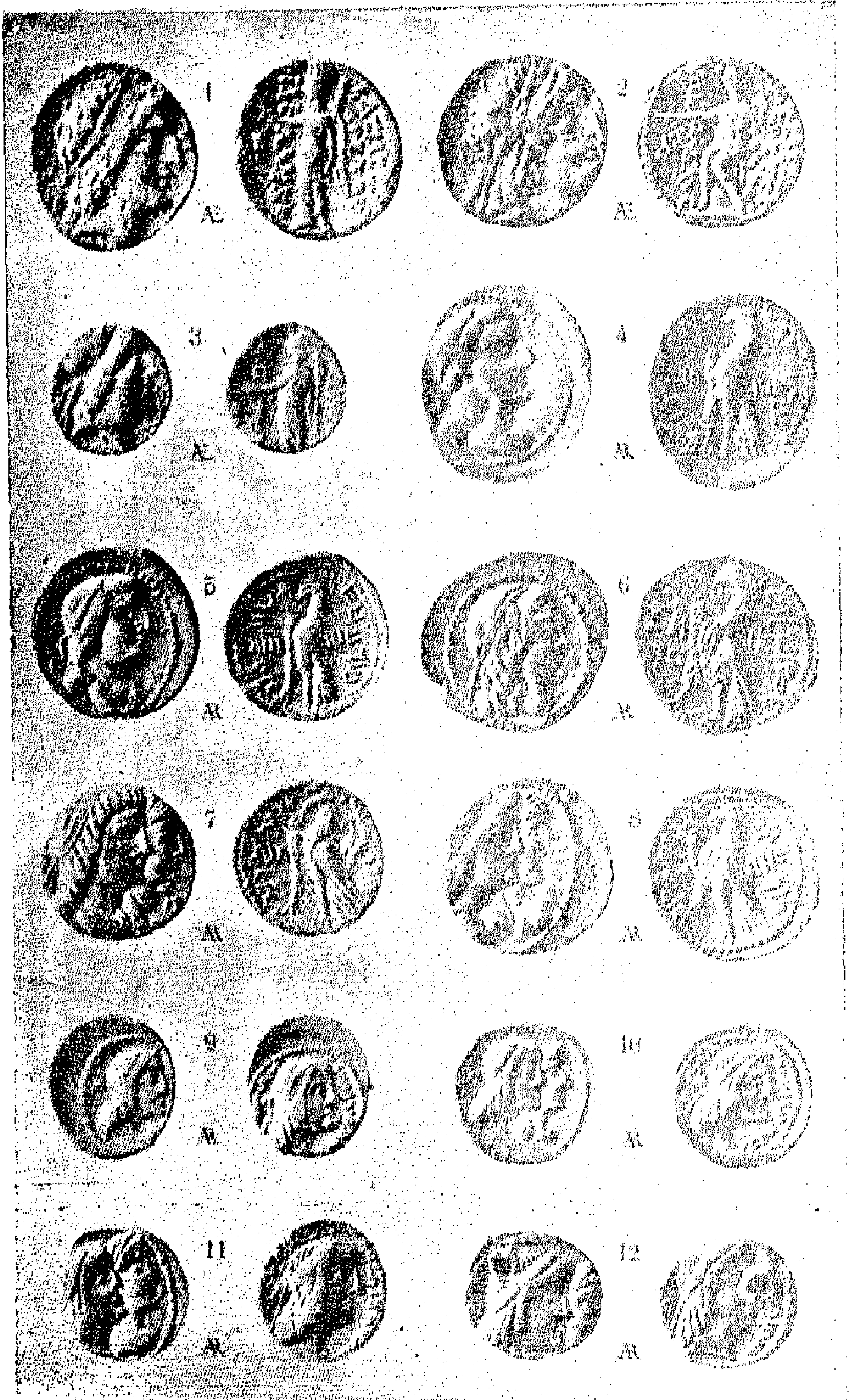
الكتب العربية

الاغاني ، تاريخ ابي الفداء ، تاريخ ابن الاثير ، الطبري ؟

الكتب الاجنبية

تاريخ العرب لسديو ، تاريخ العرب لميار . تاريخ فارس القديمة لميار ، تاريخ العرب قبل الأسلام لكوسين دي برسفـــال ، تاريخ دولة النبط لكامرر ، تاريخ امراء غسان للاستاذ نولدكى، كتاب برنطية للاستاذ شارل دوهل .؟

ملوك الشام في العصر الجاهلي



١ : الحارث الاول ٢ : الحارث الثاني ٣ : الحارث الثالث ٤ : عمرو بن الحارث ٥ : الحارث الخامس ٦ : الحارث السادس ٧ : المنذر بن الحارث الثاني ٨ . جبلة الاول ٩ . عمرو الثاني ١٠ : جبلة الخامس ١١ جبلة السادس ١٢ : عمرو الثالث